رشيد العبيدي
الأستاذ بجامعة بغداد

دراسات في النقد الأدبي

الجزء الأول

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الطبعة الأولى

مطبعة المعارف ـ بغداد
٧٨/١٠٠٠/١٩٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الانسان علمه البيان والهمه العلم والعرفان وجعله يميز بين الخير والشر والجمال والقبح ، وصلى الله على النبي العربي القائل ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكمة وعلى آله الطاهرين واصحابه الغر الميامين وسلم تسليما .

اما بعد فهذه دراسة في موضوعات النقد الادبي . توخيت فيها الايجاز والوضوح مع استيفاء موضوعات هامة جديرة بالدراسة والاعتبار .

واني لا انكر ان من ابرز الدراسات الجامعية هي حرية الفكر وحرية التعبير . غير ان هذه الحرية اذا لم تكن ضمن اطار علمي يعين ابعادها ويجمع شتاتها فانها تكون أشبه ما تكون بالفوضى المناقضة لمتطلبات العلوم .

قد يقول قائل أين تكون حرية البحث اذا الزم الاساتذة بتدريس موضوعات معينة محدودة ؟

الجواب : ان المراد بتعيين الموضوعات هو اتباع منهاج يكفل بلوغ الغاية المتوخاة من دراسة النقد . وللاساتذة بعد ذلك بحث الفكرة المراد ابرازها بالاسلوب الذي يفضلونه والهدف الذي يريدون الوصول اليه .

من هنا وجدت الحاجة ماسة الى اتباع منهاج معين ، والى تاليف كتاب يجمع تلك الموضوعات ويفي بحاجتها دون ان ادعي باني في هذه الدراسة قد أشرفت على الغاية وبلغت النهاية . بل أؤكد بان هناك مجالات واسعة ما زالت بحاجة الى كثير من الدراسات النقدية المتطورة والى اشباع تلك الدراسات نقدا وتمحيصا واستقصاءاً .

ومما أود بيانه بادىء ذى بدء أن نعلم أن بعض موضوعات هذا الكتاب ولا سيما الموضوعات الخاصة بتراجم النقاد والمعنية بدراسة الكتب النقدية القديمة جاءت موجزة بعض الايجاز قصدا . حتى لا اشق على القاري الكريم . اما الاقدام على طبع هذا المؤلف مع علمي بالجهد المضني الذي يتطلبه طبعه فهو صادر عن عهد قطعته على نفسي لابنائي الطلبة واستجابة لرغبتهم في جمع هذه المحاضرات التي القيتها عليهم في كتاب .

والله اسأل أن يسدد خطانا ويلهمنا الصواب في القول والعمل ، انه ولي التوفيق .

رشيد العبيدي

استاذ النقد الادبي في كلية التربية
(قسم الاداب)

الفصل الأول

النقد وتاريخه

النقد بوجه عام يطلق على تبيان العيوب يقال نقد فلان فلانا اذا اظهر ما بـه من عيب ، ويستدل على ذلـك بحديث ابي الدرداء ان نقدت الناس نقدوك وان تركتهم تركوك .

وقد جعـله البعض أعم من ذلـك ، فاطلقـه على تبيان المحاسن والمساوىء ثم بيان درجتهما في الحسن والقبح .

اما تاريخ النقد العـام فهو قديم قدم الانسان المميز بين الخير والشر بين الجميل والقبيح بين ما يليق وما لا يليق .

ومما هو جدير بالذكر ان ممارسة الانسان للنقد قد امدت ملكة النقد بنصيب كبير من النمو والتطور وما زال هذا الفن يتدرج في سلم الرقي حتى يبلغ ما قدر له من مراتب الكمال .

النقد الأدبي

اما النقد الادبي الذي نحن بصدده فانه مقصور على محاولة تمييز الكلام الجيد من الكلام الردىء فنيا واجتماعيا وخلقيا ونفسيا وغير ذلك مما يتصل بالثمرة العليا لتجارب الحياة الانسانية .

لذلك قالوا عنه انه ثمرة التفكير في الآثار الادبية لتقويمها وبيان زيفها من صحيحها وتفسير نواحيها الفنية ثم الحكم عليها . أو انه جهد موضوعي لمعرفة حقائق الاعمال الادبية كما هي ، عن طريق دراسة النصوص والتمييز بين الاساليب المختلفة .

ثم ان جودة الكلام تظهر في كونه قد استوفى كل ما تفرضه قواعد اللغة وكان مشتملا على قيم شعورية وتعبيرية وجمالية . واما رداءة الكلام فانها تظهر حين يكون الكلام غير مستوف لتلك القواعد ولا مشتمل على شيء من تلكم القيم .

علماً بان مهمة النقد هي معرفة افضل المعارف في العالم واشاعتها في تيار من الافكار الجديدة الصادقة . هذا وان معرفة الافكار والمعارف لا يمكن ان تتم في ظل التحيز لاراء معينة شخصية او حزبية ، وانما يجب على النقد ان يحافظ على استقلاله وحياده .

تاريخ النقد الأدبي عند العرب

ان ما قيل في تاريخ النقد العام عبر الازمان والاجيال يقال في تاريخ النقد الادبي عند العرب ، غير ان هذا يختص بنشأة الاديب العربي حين استطاع أن يعي تجاربه الشعورية ويعبر عن انفعالاته الوجدانية ويميز بين الكلام القيم وغير القيم .

ولقد كان النقد الادبي في بداية نشأته في العصر الجاهلي مقصورا على الاحكام الذاتية التي اساسها الذوق الخاص دون تحليل أو تعليل للنصوص التي ينقدونها . اللهم الا ما صدر عن بعضهم مما يفهم منه بانه ضرب من ضروب النقد الفني . ولقد يرى بعضهم ان هذا النقد الاجمالي الذوقي أمر طبيعي في حالة البداوة التي كانت تسيطر على العرب ، والرجل الفطري يستطيع باحساسه ان يخلق اجمل الشعر يصوغه في مشاعره ومعطيات حواسه وهو لذلك ليس في حاجة الي عقل ناضج يرى جوانب الاشياء كلها ولا يحكم الا عن

استقصاء . ومن ثم جاء نقدهم جزئيا مسرفا في التعميم ، يحس احدهم بجمال بيت من الشعر وتنفعل به نفسه فلا يرى غيره ولا يذكر سواه كدأبه في كل امور حياته[1] .

النقد الذاتي والنقد الموضوعي

النقد الذاتي :

هو ان يكون حكم الفرد في النص الادبي هو المرجع . غير اننا لو اخذنا بهذه القاعدة فسوف يكون لكل قارىء أو سامع ذوق خاص في النص . ويلزمنا حينئذ ان نقول بعدم وجود شؤون فنية مشتركة بين اصحاب هذا الفن . وفي ذلك ما فيه من الفوضى الفكرية المؤدية الى تعدد الاذواق وضياع الاحكام الصائبة بين العلماء والادعياء . ثم افساح المجال لهدم كل عمل فني يمكن ان يضع لبنة في هيكل الحضارة وينتج فكرة ادبية يرتفع بها شأن الادب .

اما النقد الموضوعي :

فهو النقد الذي يسعى الى معرفة الاشياء كما هي في ذاتها وحقيقتها بصرف النظر عن الاهواء الذاتية والرغبات الشخصية ، وهو في الوقت نفسه يضع لكل شيء قواعده الفنية التي اتفق على صحتها اولو العلم وأقرها ذوو الاختصاص .

ولا يخفى ان في النقد الادبي عنصرا فنيا لا يمكن تجاهله . ذلك العنصر هو تلكم القواعد النحوية والصرفية والبلاغية والعروضية

(١) كتاب النقد المنهجي للدكتور محمد مندور .

والمنطقية وما اليها من ضوابط الكلم . وهي ضوابط اساسية في تبيان حسن الكلام وجماله . من هنا كان من الزم اللوازم الأخذ بالمقاييس النقدية الثابتة التي وضعها الاكفاء من النقاد .

هل العمل الادبي يحتاج الى ناقد ؟

الحقيقة ان المعنيين بالشؤون الادبية مختلفون في ذلك . فمنهم من يرى أن الحياة العامة بجميع مجالاتها لا حاجة لها بالنقّاد ، وانما هي بأمس الحاجة الى المبدعين الخلاّقين للفنون الادبية . أي ان الحياة ترقى وتزدهر بالادباء انفسهم لا بالنقّاد الذين ينقدون ولا ينتجون .

ذلك ان الاديب اذا ظل ممارسا لعمله الادبي يمكن على توالي السنين أن يكون كاتبا بليغا أو شاعرا فذا . واذا قدّر للناشيء في دولة الادب أن يخفق في مداه القريب فانه يمكن أن يفوز في مداه البعيد . هذا عمر بن ابي ربيعة القرشي كان يقول الشعر في صغره فما أبه له أحد من فحول الشعراء . ولما استمر في معالجة الشعر ارتاض وأسلس له قياده مما دعا جريرا أن يقول فيه حين سمع رائيته التي مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر   غداة غد أم رائح فمهجّر

ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر .

ومما لا ريب فيه ان الادباء الناشئين كثيرا ما يتولاهم الخجل من النقاد فيتركون ممارسة الادب ويركنون الى اليأس والقنوط وتخسر الحياة الادبية بتركهم اناسا يمكن ان يكونوا شيئا عظيما في المجالات الادبية . لذلك كان ضرر النقد عند اصحاب هذا الرأي أكبر من نفعه

على اعتبار انه يعرقل مسيرة الرقي الادبي ويحدث قلقا وارتباكا في نفوس المبدعين من الكتّاب والشعراء، ولا سيما اذا ادعى النقد غير اهله ودس انفه فيه غير المختص.

واما اصحاب النقد الموضوعى فيرون ان العكس أصح، أي ان النقد اساس لتقويم كل معوج واصلاح كل فاسد ولأن الانسان في كثير من الاحيان لا يرى عيب نفسه، ولذلك اقتضى ان يكون للادباء رقباء يعبدون طرائقهم ويعدلون أودهم ويجنبونهم الاخطاء قبل وقوعهم فيها (والوقاية كما يقولون خير من العلاج).

وعلى هذا الاعتبار يرون ان النقد عامل مهم في دفع عجلة التقدم بما يضع للناشئين من معالم التوجيه والهداية نحو الافضل. وبذلك يحصل الناس على الافكار الممتازة بطريق اقصر وباسلوب ارقى فتجود القرائح والملكات وتتفتح القلوب والعقول لما هو خير.

ثم ان اصحاب هذا الرأي يرون ان النقد هداية للذي هو افضل. والهداية لاتكون الا بالتي هى احسن ولا يسمّون النقد نقدا ادبيا الا على هذه الصورة المهذبة. والناقد البارع النزيه يعلم حق العلم ان الادباء ليسوا معصومين من الخطأ، لذلك يوجب على نفسه مبدئيا تناول انتاجهم باسلوب هيّن ليّن جميل ويصل الى مبتغاه بدون جرح لشعور الاديب المنتج وبدون تشنيع بما يمس شخصيته. ذلك لأن مهمة النقد فوق مستوى المهاترات وأسمى من أن تتعرض للشخصيات.

فمن مهام النقد معرفة افضل المعارف والافكار فى العالم ثم اشاعتها فى تيار من الافكار الجديدة الصادقة. ومعرفة افضل الافكار

والمعارف لا يمكن ان تتم فى ظل التحيز لآراء معينة شخصية أو حزبية أو غير ذلك من الامور الجاثمة فى الصدور الضيقة المتحكمة فى النفوس المتعصبة التى لم يتح لها ان تبلغ المنزلة الرحبة من الكمال الانساني كما ذكرنا آنفاً .

عناصر العمل الادبي

شعور عميق وانفعال شديد وتعبير رائع وتصوير جميل . ان كل عنصر من هذه العناصر يؤلف جانبا من جوانب التجربة الشعورية التي يريد الاديب تبيانها واذاعتها بين الناس . وكلما كانت التجربة بعيدة الآفاق تتخطى حدود الزمان والمكان ، وكلما كانت مشتملة على الحقائق المعبرة عن اماني الانسانية كانت تلك التجربة أشدتأثيرا وأوسع انتشارا وأدوم بقاء في الحياة ، ثم ان العمل الادبي بناء متكامل يشترك في اقامته المضمون والشكل معا فلا استقلال لمضمون عن الشكل كما لا استقلال لشكل عن المضمون ، فهما روح وجسد فلا حياة لجسد بلا روح ولا وجود لروح بلا جسد .

النص

النص لغة هو الكلام الذي لا يحمل الا على معنى واحد ، أو هو الكلام الذي لا يحتمل التأويل .

وقد اطلقه علماء البيان على الكلام المأثور من المنظوم والمنثور مما صدعت به الانبياء ودبجته اقلام البلغاء من الكتاب والشعراء عبر الازمان والاجيال .

فالكتب السماوية والاحاديث النبوية نصوص لا ريب فيها ، و كذلك القصيدة و الخطبة والرسالة والقصة والمقالة والمسرحية والامثال والحكمة والوصية كلها نصوص ادبية نتدارسها ونتفهمها ونطلق الحكم عليها بما تستحقه من التقدير والتثمين سلبا او ايجابا .

ولا يخفى ان النصوص مؤلفة من كلمات مفردة ومركبة وان جمال تأليفها هو الذي يحدث الصلة بين مبدع النص وبين قرائه وسامعيه وهو الذي جعل طلاب الادب وعشاقه يعومون في غمرة من الاحلام الجميلة والبديعة . ذلك لأن النفوس البشرية يطربها النغم الجميل والمعنى الاصيل . اجل يسعدها الكلم الطيب ذو المعنى القيم الذي ترقى به الحياة وتتحسن به احوال الناس كما يشقيها الكلام الخبيث ذو المعنى التافه الرخيص مما تفسد به الحياة وتنحط به الاذواق .

ذكر ابواسحاق الحصري في كتابه زهر الآداب[1] ان اباحازم وهو من اعيان الحجاز واتقيائها خرج حاجا لرمي الجمار فاذا هو

(١) الجزء الأول ص ٢١٠ .

بأمرأة حاسر قد فتنت الناس بحسن وجهها والهتهم بجمالها قال لها : يا هذه انك بمشعر حـرام وقد فتنت الناس وشغلتهم عن مناسكهم فاتقي الله واستتري فان الله عز وجل يقول في كتابه العزيز «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» فقالت له ياعم اني من اللاتي قيل فيهن :

اماطت كساء الخزعن حر وجهها
وأرخت عـلى المتنين بردا مهلهـلا
من الـلاتي لم يحججن يبغين حسبة
ولكن ليقتلن البرىء المغفـلا[1]

فقال ابو حازم لاصحابه : تعالوا ندع الله لهذه الصورة الحسنة أن لا يعذبها الله تعالى بالنار . فجعل ابو حازم يدعو واصحابه يؤمنون فبلغ ذلك الشعبي فقال : ما أرقكم يا اهل الحجاز واظرفكم . اما والله لو كان من قرى العراق لقال : اعزبي عليك لعنة الله .

نخرج من هذه القصة ان جمال تلك الحسناء لم يشفع لها عند ابي حازم بدليل انه زجرها حين رآها ونهاها عن سفورها وتلا عليهـا الآية الكريمة ، ولكنه حين سمع منها الشعر رق لهـا ودعا الله بأن يغفر لها ويرحمها .

وهكذا يصنع الشعر في النفوس حين يكون شعرا موحيـا يسحر القلوب والاسماع (وان من الشعر لسحرا) .

(١) المغفل الطيب القلب .

ملكة النقد

يقولون ان دولة الادب تحتل ثلاث ملكات :-

الاولى ملكة التذوق ، والثانية ملكة الانتاج ، والثالثة ملكة النقد .

اما ملكة التذوق فانها تحتاج الى طبيعة فنية والى حس شاعري ، واما ملكة الانتاج فانها تحتاج الى مران ودربة وصبر على التمحيص والتنقيب والمثابرة وتحتاج الى فكر حر واطلاع واسع ونظر بصير بمراد النفوس واصول الاجتماع وفلسفة الحياة .

من هنا نعلم ان ملكة النقد لا تحصل مطلقا الا بعد توفر الملكتين ، الانتاج والتذوق ، وباصالة الانتاج وسلامة الذوق تظهر مهارة النقد وقوته وفائدته .

سئل أحد النقاد عن سر نجاحه في النقد الادبي فأجاب بانه يعزو نجاحه اولا وقبل كل شيء الى تركيز تفكيره فيما يريد نقده وتوجيه جميع جهوده نحو عمل واحد الى ان ينتهي منه والى ان يحل جميع مشكلاته .

هل يستطيع النقد ان يصنع اديبا

الحقيقة ان النقد عاجز عن صنع الاديب ، لان الاديب يحتاج الى موهبة طبيعية اولا اذ هي العامل الاكبر في جعله اديبا وهذه الموهبة لا يخلقها التعليم اذا كانت غير مخلّقة في جبلة الانسان . ثم ان هذه الموهبة لا تبرز فيه الا اذا حاول محاولة قوية ومارس مختلف الدراسات الادبية وحفظ الشيء الكثير من اشعار العرب القدماء

ومن القرآن الكريم والحديث الشريف ورسائل البلغاء، الى ان تنجلي لديه تلك الموهبة فيقوى بها عقله ويستقيم لسانه ويتهذب طبعه ويحكم ذوقه وحينئذ يكون فهمه للنصوص الادبية فهما صحيحا واحكامه في النقد صائبة وكل ما يستطع ان يصنعه النقد في الناقد هو كما قال صاحب المثل السائر ان النقد يضع في يد الناقد سيفا ليقاتل به. وليس عليه ان يخلق له قلباً فان حمل النصال غير مباشرة القتال.

ولقد اجمل ابو الفتح الات علم البيان وأدواته والعلوم والاحوال التي يحتاجها المتأدب فقال :-

« اذا ركب الله تعالى في الانسان طبعا قابلا لفن البيان فيفتقر حينئذ الى ثمانية انواع من الالات ».

النوع الاول :

علم العربية من النحو والتصريف.

النوع الثاني :

معرفة ما يحتاج اليه من اللغة وهو المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشي الغريب ولا المستكره المعيب.

النوع الثالث :

معرفة امثال العرب وايامهم ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوادث خاصة باقوام فان ذلك جرى مجرى الامثال ايضاً.

---

(١) كتاب المثل السائر ج ١ - ص ٩.

النوع الرابع :

الاطلاع على تأليفات من تقدمه من ارباب هذه الصناعة المنظومة والمنثورة والتحفظ للكثير منه .

النوع الخامس :

معرفة الاحكام السلطانية ، الامامة[1] والامارة[2] والقضاء[3] والحسبة[4] وغير ذلك .

النوع السادس :

حفظ القرآن الكريم والتدرب باستعماله وادراجه في مطاوى كلامه .

النوع السابع :

حفظ ما يحتاج اليه من الاخبار الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال .

النوع الثامن :

وهو مختص بالناظم دون الناثر وذلك علم العروض والقوافي الذي يقام به ميزان الشعر .

---

(١) الامامة : رئاسة دينية ودنيوية يأتم بها الناس فى امور دينهم ودنياهم .

(٢) الامارة : منصب يخول صاحبه ان يحكم فى الناس بقوة نفوذه وسعة سلطانه.

(٣) القضاء : الحكم ، والقاضي هو الذي يوكل اليه بحث الخصومات للفصل فيها طبقاً للشرع والقانون .

(٤) الحسبة : منصب كان يتولاه في الدولة الاسلامية رئيس يشرف على الشئون العامة من مراقبة الاسعار ورعاية الآداب .

دواعي دروس النقد الادبي

لقد قضى سبحانه وتعالى ان يكون لكل شيء مادي أو معنوي يظهر على مسرح الوجود سبب يوجب وجوده ويقوي عناصره ويهذب طبيعته ويسعى لايصاله الى الغاية المرسومة ، و كذلك قضت قدرته ان يخلق الانسان على صورة خاضعة لناموس التطور وان يجعله في غده أكثر تفكيرا من امسه يفلسف الامور ويضع لهـا الحـدود والسدود و كلما عمل شيئا نزع الى اشياء يراها مفيدة له وحسنة في نظره ، ثم ان الناس ليسوا على درجـة سواء من الفهم . وانمـا هم يتفاوتون فيما آتاهم الله من فضيلة العقل ونبل العاطفة وقوة الالمعية. فمنهم من يدرك الجمال بالنظرة العجلى ، ومنهم من لا يدركه الا بجهد ومعاناه . ومنهم من يحتاج الى دليل يدله عليه ويحببه له .

وبهذه الرغبة نشأت فكرة لدى المعنيين بالشؤون الادبية تحتم عليهم العمل على وضع موازين نقدية توجه اضواء على هذا التراث الضخم الذي انتجته قرائح الكتاب والشعراء وهفت اليـه افئدة الاجيال البشرية منذ الخليقة حتى زماننا هذا وستظل تهفوا اليه الى ما شاء الله .

نعم ان هذه الفكرة دعت رجال الادب الى ايجاد فن يحدد معنى الادب ويشير الى اوابده ويؤلف بين اجزائـه وينقيه مما ليس منه ويصونه من دخيله ويضع لـه قواعد أو ما يشبه القواعد لتكون معالم يهتدى بها الناشئون من الادباء والنقاد يعرفون بها الادب السليم من السقيم ويميزون به الادباء الاحرار الخالدين من غيرهم ممن هم عالة عليهم.

فكان من ادمان البحث والتفكير في ذلك ظهور معايير للقول سموها النقد الادبي . ثم ظهر بعد ذلك رجال وسعوا ابوابه وفصوله وأعلنوا مبادئه ومناهجه وجعلوا يطوفون حول هذا النتاج الادبي العظيم يتوغلون في صميمه . ويبحثون في قديمه وحديثه شعره ونثره قصصه ومسرحياته مقاماته ومقالاته يقرأونه اولا . قراءة فنية يدركون بها جرس الكلمة وفصاحتها وجمال التركيب وبلاغته . ثانيا . يفسرون النص تفسيرا من جميع وجوهه المحتملة فيتبينون عمق معناه وفلسفته وجدته وطرافته . ثالثا . واخيرا يصدرون الحكم عليه بالجودة أو الرداءة ان خيرا فخير وان شرا فشر ولهذا الامر العظيم قال الناقد الالماني الكبير الفويد كير : ان الادب بلا ناقد كالغريزة بلا عمل تنطلق في اعصار الميول والاهواء لاضابط يكبح جماحها ويهديها سواء السبيل[1] .

ولقد جاء في كتاب على هامش الادب والنقد للاستاذ علي ادهم ما يخالف رأي الفويد كير ، فيقول ادهم نقلا عن شوبنهاور : ان النقد لا يرجع الى قاعدة ولا يعتمد على اصل من الاصول وانما مداره على الذوق المهذب المصقول الذي يهتدى الى كشف الجمال ويوفق في اصابة الهدف .

وعندي ان المراد من الذوق المهذب في قول شوبنهاور هو ذلك الذوق الذي انضجته العلوم وصقلته الآداب وعلمته كيف يهتدى الى الجمال .

---

(١) مذاهب الادب ، محمد عبدالمنعم الخفاجي .

الادب والتجارب الادبية

ظـل مفهوم الادب العربي منذ نشأته الاولى محافظا على معناه القديم الذي قالوا فيه انه اللفظ البديع والمحتوى القيم والكلام المؤثر الدال على طبع سليم وخلق نبيل .

وهذه الاوصاف كلهـا تنم عما يعبر عنه اليوم بالثقافة التي يتحلى بها كل من نال قسطا من العلوم والمعارف ونشط عقله وتهذب طبعه وحسن تفكيره ومنطقه وجاد عنده تأليف الكلام .

وقد يحلو للبعض ان يطيل الكلام في تطور كلمة أدب ولكنه لا يأتي منهـا بطائل . وكل ما اورده في تطويرها لا يتجاوز قـول عتبة بن ربيعة في وصفه ابا سفيان لابنته هند حين خطبها (انه يؤدب اهله ولا يؤدبونه) وقول ابنته له (سآخـذه بأدب البعل) . وقول النبي صلى الله عليه وسلم لسيدنا علي عليه السلام حين سأله : يارسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم اكثره . فقال لـه الرسول (ص) : أدبني ربي فاحسن تأديبي . وهكذا بقيت كلمة أدب تطلق على كل كلام منثور وشعر موصوف ومثل سائر وموعظة بالغة وخطبة شريفة ورسالة بليغة[1] .

ثم جاء ابن خلدون فأيد الذين سبقوه في الكلام عن معنى الادب فقال : المقصود من كلمة أدب عند اهل اللسان انما هي ثمرته وهي الاجادة في فني المنظـوم والمنثور على اساليب العرب ومناحيهـم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر

---

(١) من كلام محمد بن يزيد المبرد في صدر كتابه الكامل .

عالي الطبقة وسجع متساو في الاجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة اثنا. ذلك يستقرى. منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من ايام العرب يفهم به ما يقع في اشعارهم منها. وكذلك ذكر المهم من الانساب الشهيرة والاخبار العامة. والمقصود بذلك كله الا يخفى على الناظر فيه شي. من كلام العرب واساليبهم ومناحي بلاغتهم اذا تصفحه. لانه لا تحصل الملكة من حفظه الا بعد فهمه، فيحتاج الى تقديم جميع مايتوقف عليه فهمه. ثم انهم اذا ارادوا تعريف هذا الفن قالوا: الادب هو حفظ اشعار العرب واخبارهم. والاخذ من كل علم بطرف يريدون من العلم علوم اللسان او العلوم الشرعية من حيث متونها فقط. وهي القرآن والحديث اذ لا مدخل لغير تلك العلوم في كلام العرب الا ما ذهب اليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في اشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية. فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ الى معرفة اصطلاحات العلوم. ليكون قائماً على فهمها[1].

التجارب الادبية:

اما التجارب الادبية فقد قالوا عنها انها تعبير فني عن فكرة من الافكار في لحظة من لحظات الحياة يتوهج فيها الشعور توهجاً يتحتم التعبير عنها[2]. فهي اذن هذا الانتاج الذي يتضافر على اخراجه العقل والارادة والوجدان بسبب حادثة اجتماعية او ثورة وطنية او

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص (٥٠٨).

(٢) ان لفظ التجربة هنا ليس معناه المحاولة بل ما يعرض للانسان من فكر أو حادث أو احساس أو نحو ذلك (قواعد النقد الادبي لكرومبي) ص ٢٥.

خاطرة ذاتية أو صورة طبيعية أو علاقة عاطفية كرثاء صديق حميم أو مدح ماجد كريم أو ذم بخيل لئيم .

وقد تناولت التجارب الادبية شئونا اخرى كمنادمة لبيب ، ومناجاة حبيب وما يتخلل ذلك من لطافة وظرافة تعبر عن شعور المحب وترفه عن قلب النديم .

وهكذا شأن التجارب لا تدع مجالا في الحياة الا اقتحمته ولا سرا مكتوما الا كشفته ولا مخدعا محترما الا طافت حوله . وهل التجارب الا هذا الادب الرفيع الذي ينحسر جماله عن طبع الكاتب والشاعر في الكلمة يرسلها والقصيدة تقع على مواضع الحس من النفس فتثيرها حماسة ونجدة وتذيبها حنانا ورقة وتهزها اريحية وكرما وهل هي الا تلك الصحائف التي تتزين رسومها بالوان الاخلاق وانتزاعات العقول .

انها اصدق مظاهر الحياة التي يترسمها الباحثون في احوال الامم والشعوب ،فيجدون الهدى الى تعليل الانقلابات وعرفان الاسباب التي صارت بالقبيل من الناس الى الرفعة أو نزلت بهم حينا آخر الى الضعة[1] .

ان هذه التجارب التي يسمونها النصوص الادبية قد استأثرت بفن النقد الحديث وشغلت اهم ابحاثه لما لها من الاثر البليغ في نفس القارىء والسامع .

ومن مظاهرها :

اولا : ان تكون الفكرة التي تتضمنها ذات قيمة في معناها

(١) عن كتاب الأدب العربي للاستاذ هاشم عطية .

وذات جمال في صورتها لما لهذين العنصرين من قوة التأثير في العقل والارادة والوجدان. ذلك لأن المعنى القيم يزيد العقل قوة ونباهة وابداعا، كما ان الصورة الجميلة تبعث في النفس بهجة وبهاء وأريحية مما يثير فيها أحب الذكريات وشتى المشاعر والانفعالات.

ثانيا: ان تكون التجربة تعبيرا عن امهات الافكار وكبريات الحوادث التي تحبب الى الناس معاني العظمة في كل موضوع تتناوله ويكون صورة صادقة للحياة الحرة الكريمة في مختلف مجالاتها وتبرز للناس حقيقة الفكرة المراد بيانها وهي في الوقت نفسه تظهر ذاتية الاديب على حقيقتها بكل ما انطوت عليه من اخيلة واحاسيس ومشاعر.

احكام النقد عند العرب عامة

ما اجمل اعتذار الدكتور محمد مندور عن كون النقد الادبي عند قدماء العرب جزئيا مسرفا في التعميم، فقد قال: ان النقد الادبي يعتمد على الاحساس الصادق، وعلى الذوق الفطري لذلك كانت احكام العرب في فن النقد احكاما عامة سارت على السنتهم مسير الامثال كقولهم اشعر الناس امرؤ القيس اذا ركب وزهير اذا رغب والنابغة اذا رهب والاعشى اذا طرب وكقولهم ارق بيتين قالتهما العرب قول امرئ القيس:

فلما تنازعنا الحديث واسمحت ... هصرت بغصن ذي شماريخ ميال
وصرنا الى الحسنى ورق كلامنا ... وراضت فذلّت صعبة أي اذلال

وكقولهم اكذب بيت قالته العرب قول الاعشى:

لو اسندت ميتـا الى صدرهـا   عـاد ولـم ينقـل الى قابـر

و كقولهم أمثل بيت قالته العرب قول الاعشى في تقريع خصمه :

كناطع صخرة يوماً ليوهنها   فلم يضرها وأوهي قرنه الوعل

و كقولهم اهجى بيت قالته العرب قول الاعشى ايضا :

يبيتون في المشتى ملاء بطونهم   وجاراتهم غرثى يبتـن خمائصا

و كقولهم أصدق بيت قالته العرب ، قول لبيد :

الا كل شي ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائـل

وامثال هذه الاحكام كثيرة .

ولقد جعل الدكتور مندور لهذه الاحكام الذوقية العامة سببين :

اولهما عدم وجود نقد منهجي :

وهذا امر طبيعي في حالة البداوة التي كانت تسطير على العرب ، والرجل الفطرى يستطيع باحساسه ان يخلق اجمل الشعر يصوغه من مشاعـره ومعطيات حواسه . وهو لذلك ليس في حاجـة الى عقل مكون ناضج يرى جوانب الاشياء كلها ولا يحكم الا عن استقصاء . ومن الثابت ان الشعر لا يحتاج الى معرفة كبيرة بالحياة ، بل ربمـا كان الجهل بهـا اكثر مواتاة له ، وكثيرا ما يكون اجـوده أشده سذاجة .

والنقد المنهجي عنده لا يكون الا لرجل نما تفكيره فاستطاع ان يخضع ذوقه لنظر العقل . وهذا لم يكن عند قدماء العرب وما لم يكن لا يكون . ومن ثم جاء نقدهم جزئيا مسـرفا في التعميم يحس

احدهم بجمال بيت من الشعر وتنفعل بـه نفسه فلا يرى غيره ولا يذكر سواه كدأبه في كل امور حياته .

ثانيهما عدم التعليل المفصل :

قال وهذا ايضا شـرط لم يكن من الممكن ان يتوفـر لعرب البداوة ، فالتعليل امـر عقلي لا يستطيعه الا تفكير مكون وكل تعليل لا بد له من استناد الى مبادىء عامـة . والعرب لم يكونوا قد وضعوا بعد شيئا من مبادىء العلوم اللغوية المختلفة التي لم تدون الا في العصر العباسي ، ومن الواضح ان الاتجاه الى التعليل خليق بذاته أن يسوق حتى في النقـد الـذوقي الى التمييز والتقدير ، والمـراجعة والتحديد ليصبح احساسنا اداة مشروعة للمعرفة .

واذن فقد ظل النقد في هذه المرحلة احساسا خالصا ولم يستطع ان يصبح معرفة تصح لدى الغير بفضل ما تستند اليه من تعليل .

والذي يقصده الدكتور بعبارة النقد المنهجي . هو هـذا النقد الذي يقوم على منهج تدعمه أسس نظرية أو تطبيقية عامة ، ويتناول بالدرس مـدارس ادبية أو شعراء او خصومات يفصل القول فيهـا ويبسط عناصرها ويبصر بمواضع الجمال والقبح فيها .

اما هذه الاصول التي انتهجها المرحوم مندور فهي تلك المبادىء التي ارتضاها قبله ادباء كبار كابن سلام الجمحي البصـري وابن قتيبة وابن المعتز وقدامـة بن جعفر وغيرهم من رواد الحركـة الادبية في عصورها الذهبية كالآمدى وعبدالعزيز الجرجاني وغيرهم .

وهكذا استمد الدكتور منهاجه من مناهج اولئك الادباء .

حقا انه منهج علمي سليم من حيث الاعتماد على ذوي الاختصاص، غير ان هذا المنهج يحتاج الى عمل ادبي يوحد الاتجاهات الكثيرة المبثوثة في تآليف اولئك الفضلاء، ويستخرج منها القواعد المتفق عليها بحيث يستطيع الناظر فيها ان يميز النواحي الجمالية من غيرها في النصوص الادبية التي يقع نظره عليها دون ان يرتاب في حكمه ودون ان يضل الطريق.

الفصل الثاني

الفن بوجه عام

فنّ المفن الشيء يفنه فنا انشأه نشأة جديده وحسّنه وجمله يعجب الناظرين اليه .

ويقال فنّ الاديب كلامه جعله ذا قيمة تعبيرية وقيمة انسانية أي جعله رائقا في السمع واللسان ومفيدا في الحياة .

وجاء في المعجم الوسيط ان الفن تطبيق عملي للنظريات العلمية بالوسائل التي تحققها . وفي القاموس المحيط فنان كشداد الحمار الوحش له فنون من العدو ويكتسب الفن بالدراسة والمرانة . وجملة القواعد الخاصة بحرفة أو صناعة وبجملة الوسائل التي يستعملها الانسان لاثارة المشاعر والعواطف وبخاصة عاطفة الجمال كالتصوير والموسيقى والشعر .

اما الفن الادبي فهو هذا النظام البديع الذي يتناول مفردات اللغة فيؤلف بينها باسلوب رائع وينشئها شعرا أو نثرا فنيا نافخا فيها من روحه روحا علوية جذابة تهفو اليها الافئدة وتنتشي بها العواطف ويجد الانسان فيها هواه وامانيه مرسومة ماثلة بين هاتيك الالفاظ والسطور .

حقا ان الفن الادبي هو هذا الذي يجسّد لنا المُثل العليا في قصيدة او قصة او مقامة او مقالة ويجعلها في صورة الواقع المحسوس حتى يحقق للمجتمع غاياته النبيلة واغراضه الانسانية ويجعل علاقاتنا الخاصة والعامة في منتهى الحسن والروعة بما فيه من قوة التأثير وبما يبعثه في النفوس من انبهار ونشوة وجمال .

ولقد ذهب الاستاذ محمود تيمور في كتابه الادب الهادف الى ان الفن بمعناه الواسع كقوس قزح يحوي مختلف الاطياف ولكن اطيافه وحدة لا تتجزأ وهي في مجموعها تؤلف ذلك الخط العريض الزاهي الذي لا يكتمل جماله وروعته الا باجتماع اطيافه لا يطغي فيه لون على لون .

ثم يقول سواء أكان الفن في هذا المعنى الواسع لاهيا أم غير لاه وسواء أكان ظاهر الغرض أم ملحوظه وسواء أكان جليل الموضوع أم غير جليل فهو انما يهدف الى خير الانسانية وعونها على الكفاح واحتمال ما في الحياة من اثقال وآلام .

مما تقدم نعلم ان الاستاذ تيمور يرى ان الفن وان تعددت موضوعاته وتنوعت اشكاله فهو واحد في جوهره ومظهره ، الا وهي الناحية الجمالية في جميع موضوعاته واشكاله .

ثم هو يدعو الى حرية الرأي وحرية الفن حرية كاملة غير منقوصة والى اطلاق يد ولسان الفنان لاعتقاده ان الابداع الفني منوط بهذه الحرية وموقوف عليها . فالحرية المطلقة للفنان الموهوب المخلص هى الضمان الاكيد للعمل الفني الذي يرقى به الناس وتعلو به الحياة .

ولقد يخشى البعض من هذه الحرية المطلقة على ظن انها قد تكون سببا لخروج المفن على العادات والتقاليد الموروثة او انها تغريه على فتح باب قد لا يرضاه المجتمع .

---

(١) ولقد ذكر عبدالعزيز البشري في كتابه المختار ان الفن معناه النوع والحال . وقال في الفرق بين العلم والفن هو ان العلم مادته الفكر والنظر . وان الفن مادته العمل والاثر .

والحقيقة ان هذه الخشية ليست مؤكدة لأن المفروض بالفنان ان يكون من ذوي المواهب الفنية والاحساس المرهف والذوق السليم مما يجعله فى نجوة من الشطط . اذ ليس من المنطق فى شيء بعد توفر هذه المواهب ان يضعف ادراكه وتزل قدمه وينحط ذوقه الى الحد الذي تنعدم فى نفسه المسؤولية الاجتماعية ويعمل بما ينبو عنه السمع والذوق والعقل والوجدان . ان الفنان يعتبر نفسه المسؤول الاول عن تصفية النفس وتنقية الذوق وترقية الطبع واصلاح الضمير .

ماهية الفن

ان ماهية كل شيء حقيقته ومادته التي يتكون منها قبل ان تنالها يد الفن وقبل ان تخرج من حيز العزيمة والتصميم . فماهية الزهرة عناصرها الجوهرية المقومة لها والكامنة في بذرتها والتي ظهرت حين نموها بشكل قاعدة وساق وتويج .

وماهية الموسيقى هي هذه الاصوات المنسقة التي تصدح بالالحان الساحرة والانغام العذبة المعبرة عما يختلج في خاطر الانسان من لذة ومتعة . (حتى يخيل ان الموسيقى تخلق في الانسان ماضياً يجهله وتشيع فيه احزاناً كانت خافية عن دموعه) .

وماهية الانسان بدنه وروحه ومجموع قواه الكامنة في ذاته التي ينبعث منها شعوره وتفكيره وادراكه .

وماهية الفن المهارة التي تضفي على الشيء جمالا يتميز به عن غيره من افراد جنسه ونوعه وتعيين مرتبته ومكانه في عالم الوجود والظهور .
وماهية الشعر الفاظه الملحنة المؤثرة التى تستهوي الوجدان

وتتسع بها الحياة وتهب القارى، أو السامع الوانا من النشاط والفتنة وتكشف عن جوانب النفس الانسانية باسلوب رائع بديع .

غاية الفن

اما غاية الفن ، فالسعى وراء الكمال المطلق وبلوغ ما يستطيع بلوغه من ذلك الكمال .

فغاية فن التصوير مثلا نقل صور الطبيعة بالوانها الزاهية بشكل رائع جميل يحي في النفس معنى الرشاقة والانسجام والجمال .

وغاية الموسيقى توصيل الحانها وانغامها محملة بالمعاني الروحية التى عجزت اللغة عن ايصالها والتعبير عنها الى السامعين . (وهى بمالها من تموج وتدرج وتركيب تستطيع ان تتكلم بالاف من اللهجات الى الاف عديدة من المستمعين . وان تبوح بما لا تعبر عنه اية لغة)

وغاية فن الشعر بعث الافكار القيمة بطريقة بارعة توقظ العواطف النبيلة وتوجهها نحو متطلباتها الحيوية مما هو اجدى على الحياة واسمى للذوق وارقى للاخلاق .

ولأمر ما قالوا : ان فن الادب ثمرة من ثمرات الحياة الاجتماعية ينشأ فى البيئة الهانئة الوادعة وينشأ فى البيئة الصاخبة المحتدمة ، يكون فى الاولى وصفا وحبا وسلاما وحكمة وفكاهة وما يتبع ذلك من الوان المشاعر الجميلة المتصلة باحاسيس النفس وفيوضات الخواطر .

ويكون فى الثانية فخرا وحماسة وهجاء ووعدا ووعيدا واثارة للمعارك الدامية والبطولات الحربية وما يتبع ذلك من دواعى القوة والرجولة .

ومن الفنون الادبية ايضاً تلك الاساليب البلاغية التي تكسب الكلام رونقاً وبهاءً . ففي علم المعاني لا بد للاديب من مراعاة مقتضيات الاحوال لان للكلام البليغ صوراً تختلف باختلاف تركيبها كقوله تعالى (وانا لا ندرى اشرٌ أريد بمن في الارض ام اراد بهم ربهم رشدا) فان ما قبل ام صورة من الكلام تخالف صورة ما بعدها . لان الجملة الاولى فيها فعل الارادة مبني للمجهول ، وفي الجملة الثانية فعل الارادة مبني للمعلوم ، والحال الداعي لذلك نسبة الخير اليه سبحانه وتعالى في الثانية ومنع نسبة الشر اليه في الاولى .

وكذلك تختلف صورة الكلام بالنسبة لاضرب الخبر مثل تأكيده او عدم تأكيده بحسب احوال المخاطب في تصديقه الخبر أو انكاره . وفي حاجته الى ذكر بعض الالفاظ او حذفها . وهناك احوال اخرى كالتقديم والتأخير والقصر والوصل والفصل والايجاز والاطناب والمساواة الخ ...

وكذلك تختلف صور الكلام في علم البيان . ففيه التشبيه واغراضه . وفيه المجاز واقسامه من مرسل او مركب ، وفيه الاستعارة والكناية على اختلاف صورها .

اما الفنون البديعية فقد اوصلها العلماء الى انواع لا تحصى . وقسموها الى معنوية ولفظية . وقالوا : ان الحسن في الفنون المعنوية راجع الى المعنى اصالة والى اللفظ بالتبعية . كالتورية ، والطباق ، والمقابلة ، وحسن التعليل ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، او تأكيد

الذم بما يشبه المدح ، واسلوب الحكيم واللف والنشر والاستخدام، والتوجيه ، وتجاهل العارف ، والتوشيع الى غير ذلك مما يطول تعداده.

واما المحسنات اللفظية فان الحسن فيها راجع الى اللفظ اصلاً وان تبعه تحسين المعنى عرضاً . كالجناس ، والسجع ، والاقتباس ، وحسن الابتداء ، وحسن الانتهاء وغير ذلك مما يخص اللفظ اولاً والمعنى ثانيا .

الاسس العامة لفن النقد الادبي

يراد بالاسس العامة تلك القواعد الكلية التي تضم اشتاتا من الجزئيات والتي يتخذها النقاد موازين يقيسون بها قيم الاجناس الادبية ويصدرون على ضوئها احكامهم النقدية .

ولفهم طبيعة تلك القواعد الكلية نقسمها الى اقسامها المتجانسة حتى يسهل علينا بحثها واتقانها . فنقول :-

اولا : القواعد الخاصة بالناحية التعبيرية ، وهذه تتمثل في :-

أ - قواعد علم النحو الذي يعرف به احوال اللفظ العربي من جهة الاعراب والبناء .

ب - قواعد علم الصرف الذي يعرف به احوال ابنية الكلمة التي ليست باعراب ولا بناء . ويدخل في ذلك قواعد فقه اللغة واشتقاق مفرداتها وهل هي عربية اصيلة أو انها مقتبسة من لغات اخرى .

ج - فهم معاني مفردات اللغة وهذا يوجب علينا دراسة القواميس والمعاجم العربية قديمها وحديثها . كلسان العرب والمحكم والمخصص

والصحاح والاساس وقاموس المحيط والمعجم الوسيط والمنجد وغيرها.

د – قواعد علم المعاني مما يعرف بـه احوال اللفظ العربي التي يطابق بها مقتضى الحال.

هـ – قواعد علم البيان التي يعرف بها ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه كالتعبير بالحقيقة او المجاز. ثم النظر في كيفية صياغتها، أهي صياغة رائعة ام اعتيادية ام دون ذلك.

و – قواعد علم البديع التي يعرف بها وجوه تحسين الكلام كما هو معروف في المحسنات اللفظية والمعنوية وما يندرج تحتها من الوان هذا العلم ومباهجه.

ز – قواعد علم العروض والقوافي التي يعرف بها فنون الشعر العربي وموازينه ومايعتريه من العلل والزحافات وما يلزم وما لايلزم.

ثانيا: الناحية الشعورية والذوقية. وهذه تقتضينا ان نعرف:

أ – كيفية نشوء الملكة التي يقتدر بها الاديب على اجراء التلاؤم القوي بين سمو الفكرة وسمو الصورة. وهل تلك الملكة هبة لدنية أو انها مكتسبة تأتي عن طريق التعليم والمران والدربة.

ب – قدرة الاديب العجيبة في نقله ادق المشاعر بأدق التعابير بيسر وسهولة مع كثرة الانتاج وتنوع الاغراض واشتمال هذا الانتاج على الخصائص التي تستجيدها الاذواق في جمال صياغته وجدة معانيه، حتى يخيل ان تلك التعابير ما خلقت الا لتلك المشاعر، وان تلك المشاعر ما خلقت الا لتلك التعابير.

ثالثا: الناحية التاريخية وهذه تستلزم الاحاطة بتاريخ الادب

العام الذي نعرف به تواريخ الادباء والعوامل التي هيأتهم للحياة الادبية وفجرت في نفوسهم تلك المعـاني التي نكبرها ونعجب بهـا . وبهذا نستطيع :-

أ - تحقيق ما ابدعوه من فنون الكلام تحقيقا نبلغ بـه صحـة نسبته الى قائليه ، وهل هو كما نطقوا بـه أو طرأ عليـه تحريف أو تصحيف بسبب أو بآخر . ثم هل هو موضوع منتحل أو انه أصيل مبتكر .

ب - معرفة الاساليب العربية القديمة وما فيها من اصالة وبراعة وما امتازت به من خصائص ومزايا .

ج - معرفـة المتقدمين من الادباء والمتأخرين عنهم لكي نميز بين المبدعين والمقلدين وبين الذين تواردت خواطرهم حول معنى من المعاني او تركيب من التراكيب .

د - الاطلاع على المقاييس النقدية والتطورات التي حدثت لها حتى نعلم ما استحسنه النقاد من منظوم القول ومنثوره وفق تلك المقاييس .

هـ - الاحاطة بالمذاهب الادبية الحديثة وبالتيارات التي تتلاقى فيها والحدود الفاصلة بينها .

الفصل الثالث

القديم والحديث

لقيت هاتان اللفظتان حظا وافرا من العناية ونالتا نصيبا كبيرا من جهد الادباء ، فمنهم من يرى في القديم مزايا لم يجـدها في الجديد ومنهم من يخالف هذا الرأي ويرى في الجديد امورا لم يحظ بها القديم. ولكل طائفة من الباحثين في المجالات الادبية آراء جديرة بالاعتبار والتقدير . ليس هذا محل التفصيل فيها وانمـا غرضنا من طرق هذا الموضوع هو مجرد الاشارة الى تلك الخصومات الادبية التي دارت رحاها بين ارباب الاقلام في مختلف الازمان .

فالخصومة بين انصار القديم وانصار الحديث ليست حديثـة ، فهي دائما وابدا خصومة طبيعية قائمة بين الاجيال البشرية المتعاقبة . فالجيل الجديد الذي يبدأ حياته الفكرية ينظر الى الجيل الذي سبقه في الزمن نظرة تشير الى عدم القناعة والرضا والاطمئنان الى عادات وتقاليد وافكار الجيل السابق باعتبار ان الجيل الجديد يتمتع بحكم فتوته وشبابه بقوة تحبب اليه الطموح والمغامرة والتضحية وتحيي في نفسه آمالا عريضة واسعة تغريـه بالمزيـد من رفاه العيش ومتع الحياة مضافا الى ذلك حصوله على انماط جديدة من العلوم والمعارف التي لم تكن متيسرة لدى الجيل الـذي سبقه بسبب التقدم الحضاري المستمر .

بينما الجيل القديم ينظر الى الجيل الجديد نظـرة عطف واشفاق وتبدو على محيـاه ابتسامة تقول للجيل الصاعد (في التأني السلامة

وفي العجلة الندامة) . ان هذه النصيحة الصادرة من الجيل القديم للجيل الجديدتحمل في طياتها معنى فيه روح الاستخفاف والاستهانة فليس من السهل تقبلها والاخذ بها . لذلك كان وقعها في نفسية الجيل الناشيء وقعا ممضا . فمن الطبيعي ان يكون ثائـرا مستنكرا للقديم متلهفا للجديد . وبهذه العوامل ستظل رحى هذه الخصومات دائرة بين القديم والجديدما دامت عجلة الزمن في تقدم مستمر وما دامت الحضاوة البشرية تنمو وتزدهر في كل سنة بل في كل شهر .

لا يخفى ان الافكار الادبية كسائر شؤون الحياة خاضعة للتطور والتغير من حال الى حال . فقد يسعفها الزمـن بنخبة من الناس تأتي بالعجائب من الافكار بحيث تهز كيان مجتمعاتهم هـزا عنيفا تنبه عقولهم وتوقظ مشاعرهم وتطهر قلوبهم من اسباب الضعف والكسل والخمـول وتبعث فيهم نشوة قويـة تغريهم وتشجعهم على الطموح والتطلع الى فجر جديد يرون من خلاله آفاقا رحبة وحياة حرة ودنيا زاخرة بالامال والاماني .

وحينئذ يدعو هؤلاء الادباء اجيالهم الى نبذ القديم البالي والنزوع الى كل جديد . ومن هذا المنطلق تنبثق الثورات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية فتكتسح كل قديم لا يـلائم عصرهم وتتمسك بكل ما هو نافع ومفيد لهم مما يشبع رغبات الجيل الصاعد ويحقق آماله ، ويقربه من مثله الاعلى الذي يطمح اليه .

في وحدة اللغة والهدف وحدة الامة

خذ امتك العربية مثلا فقد مرت عليهـا قبل الرسالة ادهـار

مختلفة متباينة ترفعها حينـا الى الاوج وتنحط بها حينا آخـر الى ما دون ذلك . ولما اذن سبحانه وتعالى لها بالنهوض وهيأها لحمل رسالته بث في نفوس ابنائها العزة والتعالي وجعلهم يعملون جاهدين لجمع كلمتهم وتوحيد لهجاتهم وصهرها في بوتقة واحـدة . وبذلك اصبحت لغة قريش هي اللغة السائدة بينهم يصنعون بهـا اشعارهم ، وينشئون خطبهم ويكتبون رسائلهم . حتى اذا جاءهم القرآن الكريم وبث فيهم ما بث من معانيه وتعاليمه واحكامه أخذت لغتهم تزداد نمـوا وتقدما فسلست الفاظهـا ورقت معانيها وحسنت تراكيبها . فنشأت عندهم طبقة اخرى من الشعراء والخطباء والكتاب . وأخذ هـؤلاء الادباء يحثون الناس على الفتح ويحضونهم على الاتصال بالامم الاخرى ويحببون اليهم الاخذ باسباب حضاراتهم حتى اذا تم لهـم ذلـك وتوسعت فتوحاتهم وامتد نفوذهم في مشارق الارض ومغاربها جنحوا الى الترف والنعيم الى حد انساهم مبدأ الجهاد واقعدهم عن الفتح . وحينئذ ضعفت هممهم وانحلت عزائمهم وتقطعت اوصال دولتهم على ايدي الخلفـاء العباسيين الذين اعطوا زمام الحكم الى عناصر غير عربية ممن يحملون في قـرارة نفوسهم رواسب دياناتهم القديمة ويضمرون حقدا دفينا على العرب الذين فتحوا بلادهم وابطلوا عقائدهم . وطفق هؤلاء الحاقدون على العرب والاسلام يخـادعون الناس باساليب ظاهرها فيه الخضوع والطاعة وباطنهـا فيه التمرد والعصيان عن طريق حرية الفكر وحرية الفن واباحة العلم للجميـع .

ومن هذا الباب دخل ذوو الاغراض فتعددت المذاهب الاجتماعية والدينية والسياسية وصار كل مذهب يدعو الى مبادئـه ويكشف

عن اهدافه فنشأت نظرية الفن للفن والدين لله والعلم للجميع، وهكذا اشتدت دواعي الخصام واتسعت شقة الخلاف بين ادباء العربية منذ القرن الثاني للهجرة الى يومنا هذا.

نعم انتهز الحاقدون فتح هذا المجال، مجال الحرية وأخذوا يشنون الغارات على كل قديم عسى أن يهدمـوه وينالوا منه ما يشفي غليلهم ويحقق اهدافهم، وقد جرى المغفلون منا مجرى الحاقدين ونددوا بالقديم ايضا بحسب ما تهيأ لهم من الافكار والآراء. غير ان كثيرا من ارباب العلم وحذاق الادب تصدوا لتلك الحملات الظالمة واماطوا اللثام عن اهدافها الحقيقية فبينوا زيفها حتى ابطلوها وأثبتوا فضل القديم على الجديد وان لقديمنا اكبر الاثر في بقاء امتنا وتخليد تراثنا الادبي الذي لم يوجد مثله لدى الكثير من الامم.

سبب الخلاف المباشر بين القديم والجديد

ان اختلاف بعضنا في القـديم والحديث ناشـيء من ان ادباءنا المعاصرين فتحوا عيونهم بعد رقاد طويل على حضارة اجنبية خطفت ابصارهم وخلبت البابهم وجعلتهم يشعرون بتخلف عن ركب الحياة الجديدة. فدفعهم هذا الشعور الى الاستهانة بالقديم، وقالوا لا بـد لنا من ان نولي وجوهنا شطر المستشرقين الذين نشروا امؤلفاتنا ووضعوا ايدينا على كنوز تراثنا.

وهكذا انخدع بعضنا فاكبروا اعمال المستشرقين وعجبوا من مجهودهم فصاروا يلقفون كل ما صنعوه فينا وما قالوه عنا بدون تحفظ ولو كان قولهم مسخا لتراثنا وهدماً لكياننا ومحقا للغتنا ووحدتنا.

لقد حاول الاستعمار ان يشوه حضارتنا في اعيننا ويجحد فلسفتنا في الحياة فيقول على لسان ارنست رينان الافرنسي: « ليست الفلسفة العربية سوى الفلسفة اليونانية مكتوبة باحرف عربية »[1].

ومن المؤسف حقا ان يتخذ بعض الباحثين في بلادنا هذا القول سندا له يردده في كثير من ابحاثه ليقال عنه انه مثقف متجدد.

ولم يكتف الاستعمار بذلك بل اخذ يروج للغة العامية ويزعم انها احق من الفصحى بالعناية. باعتبار ان اللغة العامية هي لغة الغالبية من الناس وانها سهلة بسيطة خالية من القواعد، بينما اللغة الفصحى هي لغة الخاصة من اهل العلم والفن والادب، وانها صعبة مشحونة بتعابير فوق مستوى الجماهير مما يجهد العقل والقلب واللسان.

ولم يقف اصحاب هذه الدعوة عند هذه الحدود المقيتة بل اخذوا يحبذون استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية لخلوها من الحركات ولنكون تبعا لأهل اوربا في حروفهم اللاتينية.

وكان اكثر الداعين الى كل ذلك ينتمون الى عرب لبنان وعلى رأسهم المستشرق الفرنسي في قسم الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية لويس ماسنيون[2] الذي حاول ان يبث دعوته هذه في المغرب وفي مصر وفي سوريه ولبنان خاصة عن طريق الذين في قلوبهم كره وحقد على العروبة والاسلام.

ومن رحمة الله تعالى ان هيأ لصد هذه الدعوة الخطرة رجالا من

---

(١) كتاب التبشير والاستعمار ص ٢١٩ . للدكاترة الخالدي وفروخ.

(٢) » » » ٢٢٠ » » » »

المؤمنين الذين لا تأخذهم في الحق لومة لائم فتصدوا لها وسفهوها واصحابها وبينوا للناس ان تقطيع اوصال العرب والاسلام لا يمكن ان يتم ما دام هناك لغة واحدة يتكلمها العرب والمسلمون ويعبرون بها عن آرائهم. وما دام هناك حرف عربي يربط حاضر المسلمين الى تراثهم الماضي وقالوا لهم اذا حمل المستشرقون والمستعمرون وخدعوا العرب على الكتابة باللغة العامية اصبح لكل قطر عربي لغة خاصة به، او لغات متعددة. ثم اذا هم استطاعوا ان يحملوا المسلمين على التخلي عن الحرف العربي واحلال الحرف اللاتيني مكانه انقطعت صلة العرب تماما بادبهم القديم وبالمؤلفات الدينية واللغوية والادبية والتاريخية والفكرية. حينئذ يصبح العرب وحدات لغوية وفكرية غير متعارفة ثم تتنافر هذه الوحدات مع الزمن فيسهل اخضاعها بجهد ايسر من الجهد الذي تحتاج اليه هذه الغاية الآن[1].

نقد الرافعي لطه حسين

واني لارى ان من المفيد جدا ان اذكر قولا للاستاذ مصطفى صادق الرافعي حول المشادة بينه وبين الدكتور طه حسين في معنى القديم والجديد اذكر الكاتبين الفاضلين باعتبار ان كل واحد منهما رئيسٌ لمدرسته وزعيم لاتباعه.

يقول المرحوم الرافعي للدكتور طه حسين : انا لست انكر التجديد وانما انكر شيئا واحدا وهو ان يقال مذهب قديم ومذهب جديد. فقد وسع الله على الناس فيما علموا وفيما جهلوا، ولكن اصحابنا

(١) كتاب التبشير والاستعمار ص ٢٢٥ للدكاترة الخالدي وفروخ.

يريدون الا نكتب الا نمطا بعينه ولا نذهب الا مذهبا بعينه لأن كل ذلك هو الجديد ، فايهما خير لنا ولهم والذين سيخرجون تاريخهم من قبورنا : ان نعتد اللغة والادب كل ما اجتمع من قديم وجديد ونحكم هذه اللغـة ونحفظها وندفع عنها ونجعل تجديدها كتجديد الحسناء في اثوابها والوانها دون تشويه ولا مسخ ولا مس للجسم الجميل. الى ان يقول: ياايها الملأ افتوني ما هو هذا الجديد ؟ أهو ذاك الخيال الشارد المجنون، ام تلك الشهوات المتوثبة المتلهفة، ام ذلك الاسلوب الفج المستوخم ، ام العامية السقيمة الملحونة ، ام هو في الحقيقة بين رغبة في النبوغ قبل ان تتم الاداة وتستحكم الطريقة ، كما هو شأن فريق من الكتاب فيختصرون الطريق بكلمة واحدة هي المذهب الجديد . وبين رغبة في التعصب للاداب الاجنبية كما هو شأن فريق آخر ، وبين رغبة في الحط من قيمة بعض الناس ورميهم بالجهل والسخف وانه لا قيمة لما يجيئون به ؟ كل ذلك في تعبير علمي يصح ان يكون نظرية علمية .. وقبلهم قالها العرب في القرآن الكريم لو نشاء لقلنا مثل هذا . ان هـذا الا اساطير الاولين . فقد شاؤا فلم يقولوا . ولو ان المذهب الجديد فسّر القرآن يوما .. لقال في معنى اساطير الاولين انهم ارادوا بها المذهب القديم[1] هذا لون ثان من الوان الخلاف بين القديم والجديد .

وهناك الوان اخرى من الخصومات دارت بين المحافظين والمجددين ثم دارت بين المجددين انفسهم متطرفيهم ومعتدليهم . وقد انتظمت تلك المعارك موضوعين هامين معركة مفاهيم الثقافة ومعركة مفاهيم

---

(١) وحي القلم جزء ٣ ص ١٥٥

الادب . وكان ابرز اعلامها في معسكر المحافظين احمد زكي شيخ العروبة وفريد وجدي والرافعي ومحمد احمد الغمراوي وشكيب ارسلان ورشيد رضا ، وفي معسكر المجددين العقاد والمازني وزكي مبارك وهيكل وطه حسين وسلامة موسى .

تيارات المعارك الادبية المعاصرة

وكان اظهر جوانب المعارك الادبية المعاصرة يجري في خلال اربع تيارات واضحة هي المحافظة والتجديد ثم التقريب والاعتدال في التجديد. وقد دلت هذه المعارك على يقظة المحافظين وما اسموهم بدعاة القديم .

فهم عندما قاوموا تمصير اللغة العربية أو مذاهب التجزئة والقوميات الضيقة أو الفرعونية أو الفنيقية أو غيرها أو الشعر الجاهلي أو آراء التغريب أو الالحاد أو التهوين من شأن الدين في المجتمع أو الفكر أو فضل العرب على الحضارة انما كانوا اصدق ايمانا وأقرب الى الحق وابعد عن الانحراف .

غير ان الخطر في الامر ان معارضة دعوات التغريب والاندفاع نحو الغرب والتطرف والانحراف لم يلبث ان ظهر في جانب المدرسة الحديثة نفسها فقد انقسمت هذه المدرسة التي تعلم ابناؤها في اوربا انقسمت على اساس تطور فكري وتحول عقائدي . فقد كان دعاتها في اول الامر من أشد المتحمسين للحضارة الاوربية غير انهم اكتشفوا مدى الخدعة التي تكمن وراء اطلاق هذه الدعوة حينما شاهدوا الفوارق البعيدة بين شارات الحضارة الغربية وبين واقعها

وتصرفاتها الفعلية في العالم العربي والاسلامي . هناك استفاقت معاني جديدة في نفوس هؤلاء المفكرين جعلتهم يقفون وقفة النظر والتأمل غلبت عليهم عاطفة الايمان بالوطن والتراث وحق امتهم عليهم . وقد بلغ بهم الاعتقاد حد الايمان بان هذه المذاهب التعبيرية لن تصل بهم الى خلق امة جديدة أو فكر جديد هنالك قاوموا زملاءهم في ارائهم ووقفوا يعارضونها وفي مقدمة هؤلاء ساطع الحصري والدكتور هيكل ومنصور فهمي وزكي مبارك .

فقد عارض هيكل طه في كتابه الاساطير على انها جزء من سيرة الرسول . وعارض ساطع وزكي مبارك وعبدالرحمن عزام اراء التجزئة والفرعونية، وعارض توفيق دياب الادب المكشوف وعارض منصور فهمي التقليد الخالص وعارض فليكس فارس نظريات التغريب في الثقافة وعارض زكي مبارك النزعة اليونانية وعارض المازني الكتابات الاباحية وترجمة القصص الفرنسية المكشوفة[1] .

---

(١) كتاب المعارك الادبية للاستاذ انور الجندي ص ٧

الفصل الرابع

مجمل عصور الادب اليوناني

قسم مؤرخو الادب آداب اليونان الى سبعة عصور :[1]

١ - العصر الخرافي ولم يبق منه الا القصص الخرافية عن الالهة ونحوهم مما يسمى في اصطلاح الفرنجة ميثولوجيا (Mythology) يبدأ هذا العصر قبل تدوين التاريخ وينتهي بانتهاء القرن التاسع قبل الميلاد واسماء ادبائه خرافية .

٢ - عصر الابطال والحروب من القرن التاسع الى حوالي نصف القرن السادس قبل الميلاد (من سنة ٩٠٠ ـ ٧٥٠ ق م) ، وفيه ظهر الشعر الوصفي او القصصي كمنظومات هوميروس في الاليـاذة والاوديسة الذي يعتبرونـه ابا الشعراء ، وجاء بعده هسيود فانشأ شعراً في نشيدين احدهما ألف بيت وصف به بناء العالم وتعاقب الالهة والآخر ثمانمائة بيت وصفت به الطبيعة .

٣ - العصر الثالث في سنة (٥٧٠ ـ ٥٠٠ ق . م) وفيـه تحضر اليونانيون وعمـروا المدن ووضعوا الشرائع وانشأوا المستعمرات ونشأ الشعر التمثيلي الدراما (Dram) والشعر الغنائي المعبر عن شعور الشاعر في المدح والحماسة والغزل والرثاء ونبغ في كل بلد شاعر ينصر قومـه ويعبر عن شعائرهـم ، ومن شعراء هذا العصـر ارشيلوك وسيمونيد وغالينوس ، ونبغ ايضا شواعر منهن ارنيي . ومن قبيل الشعر الغنائي الشعر الديني الذي كانوا يغنونه في الصلوات .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان .

٤ - العصر الاثيني سنة (٥٠٠ - ٣٠٠) قبل الميلاد وفيه نضج الشعر التمثيلي واشهر اصحابه اشيل وسفوكلس ويوربيدس . وفيه ظهر هيروديتس ابو التاريخ. والفلاسفة سقراط وزينوفون وافلاطون وارسطو .

٥ - العصر الاسكندري (٣٠٠ - ١٤٦ ق . م) وفيه انتقل العلم من اثينا الى الاسكندرية على عهد البطالسة فزهت هذه المدينة بالعلماء والفلاسفة ، ومن مشاهير الشعراء الغنائيين كليماك وابولونيوس الروديسي ومن الرياضيين اقليدس وارخميدس .

٦ - العصر اليوناني الروماني (١٤٦ ق . م - ٣٣٠ ب . م)وكانت بلاد اليونان قد سقطت وذهبت دولتها ودخلت في حوزة الرومان فذهب علمها وخلت قرائح اهلها (والذل يذهب بالقرائح) فضعفت آداب اللغة فيها . ولكن النصرانية احدثت انقلابا في تلك الآداب فادخلت فيها بعض الاساليب الشرقية ومن مشاهير ادباء هذا العصر في التاريخ والادب بوليبس ونيقولاس وسترابو وارخياس وابولودورس .

٧ - العصر البيزنتي من (٣٣٠ - ١٤٥٣ ب . م) زهت فيه بيزانس (القسطنطينية) وكانت مركزا للآداب اليونانية حتى فتحها العثمانيون سنة ١٤٥٣ م ، فدالت دولة الروم ، ومن علماء هذا العصر هيربوس وتمستس وليبا نيوس وجوليان .

هذه خلاصة تاريخ آداب اللغة اليونانية فقس عليها تواريخ آداب سائر اللغات فانها كثيرة الشبه بها من حيث تناسق عصورها بالنظر الى نشوء العلوم فيها فان اقدم آدابها دائما الشعر الديني يليه الشعر

القصصي والتمثيلي فالغنائي. ثم ينشأ الادب والخطابة والتاريخ وتضبط اللغة وقواعدها ، ثم الفلسفة والعلم الطبيعي ثم تستغرق الامة في المبالغات والتفاصيل الخارجة عن المعقول ويقل فيها الاستنباط وتبلى جودة الشعر وتضعف القرائح بالذل والتقهقر .

مصادر الادب اليوناني

اما مصدر ادبهم فقد لخصه الاديب الكبير شلي مؤلف كتاب (بروميثيوس طليقاً) فقال

كان كتابهم يتناولون بالتعرف ما يختارونه من فصول في تاريخهم القومي الواقعي والاسطوري ليجعلوا منه موضوعاً لادابهم ومسرحياتهم ولم يكن لتصرفهم في ذلك التراث اسباب واسانيد . ولم يحس كتاب الاغريق قط انهم ملزمون بالتقيد بالتفسير الشائع للخرافات والتاريخ . كما انهم لم يجدوا ما يضطرهم الى تقليد اسلافهم او اندادهم سواء في تفاصيل القصة او في عنوانها . ولو قد التزموا ذلك لما كان هناك مجال لتفوق كاتب على انداده من الكتاب . والرغبة في التفوق هي التي هدتهم الى انشاء المسرحيات التي تجوز فيها المفاضلة . فقصة اجا ممنون عرضت على المسرح الاثيني في صور شتى واحتملت من التخريجات بقدر ما كتب المؤلفون من مسرحيات انتهى ..

ولاجل ان نكون على بينة من معرفة ذلك ينبغي لنا ان نعلم شيئاً عن الفكر اليوناني الغارق في الاساطير وعما اكتسبه وتأثر به واستحدث من عقائد وعادات وتقاليد مما كانت تضطرب فيه تلك

الاجيال الغابرة . ولعل اوضح صورة تتمثل بها تلك الاحقاب التاريخية السحيقة هي التي جلاها لنا الشاعر شلي ايضا في كتابه الذي المعنا اليه تواً . فكتب تحت عنوان : الاسرة المقدسة فقال :

كان الاغريق يعتقدون ان الازل الاول كان مادة لا شكل لها ولا معالم ، واحدة في عنصرها ، مختلطة لم يدخل عليها نظام وزعموا ان تلك المادة الاولى كان يحكمها اله يدعى كاوس اي (العماء) او (الفوضى) لا يعرف احد من مظهره شيئاً لان العالم كان مظلماً في القديم ، ولم يكن هناك سبيل الى رؤيته ، وقد شاركت نكس اي (الليل) زوجها كاوس سلطانه ، فزادت طلعتها السوداء وسرابيلها القاتمة الكون عتمة ووجوماً .

ملّ كاوس ونكس حكم الوجود فاشركا ولدهما اربوس اي الظلام في الحكم ، فما عتم ان عزل اباه من عرشه ، وانفرد دونه بادارة الوجود . ثم تزوج امه وشاطرها دولته ولبثا كذلك زمناً حتى انجبا ولدين آية في البهاء ، هما الاثير اي (النور) وهميرا اي (النهار) وتعاون هذان على خلع والديهما (الليل) و (الظلام) والاستئثار بالملك دونهما ، فاستضاءت ارجاء الكون ، ورأى الاثير وهميرا ما كان الكون فيه من البشاعة والاضطراب ، ولكنهما استطاعا ان يستشفا في طبيعته ممكنات لا تحد ، فحزما أمرهما على ان يخلقا من هذه الكتلة المختلطة عالماً فتاناً ، ولكن الكون رحيب وهذا مشروع ليس بالهين فاستنجد (النور) و (النهار) بولدهما ايروس اي (الحب) لعله يعينهما على اصلاح كل هذا الاعوجاج في المادة . وقد كان ذلك ، فكان ثمرة جهدهم خروج جايا اي (الارض) وبونتوس اي (البحر) .

من هـذا الوجود المضطرب ، و كانت الارض في ذلك قرصا جافا ، و كانت جرداء سمراء ، لا همس فيها ولا نفس ، فعز على (الحب) ذلك واخترق احشاءها بسهمه فاذا هي خضـراء وارفة الاغصان ، زينت باجمل الاصباغ ، وانتعشت فيها الحياة فطارت في ايكها عصافير الجنان ، وتناغت على حشائشها ضروب الحيوان ، وسبحت في انهارها الصافية الاسماك ، فما ان احست (الارض) بما فعله (الحب) بها حتى رأت ان هذا الثوب القشيب الذي لبسته يحتمل مزيداً من التبرج فاستكملت زينتها بخلـق (السماء) فصاغت القبة اللالاءة ودعتها اورانوس .

تم زواج (الارض) و (السماء) وحكما العـالم معا من قمة جبل الاولمب في بلاد اليونان ، ثم اعقبا اثني عشـر مارداً جباراً عرفوا بالتياتين ، نصفهم ذكور ونصفهم اناث بلغ من بأسهـم ان اباهم اورانوس خشي شرهم ، فقذف بهم في هاوية مظلمة تدعى ترتاروس واوثقهم فيها باغلال لاتحل . ثم كثر ضيفان الهاوية لان اورانوس كان كلما انجب ولداً القى به في قاعها ، فضجت (الارض) من فعال السماء ، وطلبت جايا من اورانوس اطلاق سراح ابنائها فلم يكترث لسؤالها . وهكذا بدأت الحرب بين الارض والسماء ، نزلت جايا الى الهاوية واستنهضت التياتين ليثوروا على ابيهم ويسقطوه من عرشه ، ولكن خوف التياتين من بطش اورانوس اقعدهم جميعا عن العصيان ما خلا واحـداً هو كرونوس اي (الزمن) او ما يسميه الرومان ساتورن ويسميه العرب زحل . وجد كرونوس في نفسه الشجاعة الكافيـة للقيام بهذه المغامرة . ففكت جايا اصفاده وزودته بمنجل وزودته بنصح

ثمين . وسعى كرونوس الى اورانوس وباغته بمنجله فهزمه شر هزيمة . وبذا سقطت السماء واعتلى الزمن عرش العالم . ولكن اورانوس لم ينس ان يصب اللعنة على ولده المغتصب ويتنبأ له بمصير شبيه بمصيره .
حل كرونوس وثاق التياتين ذكورهم واناثهم واصطفى منهم تيتانة هى ريا لتشاركه ملك الكون ووزع على اخوته واخواته ملك الافلاك . حكم هايبزيون وفيبي الشمس والقمر وحكم اوقيانوس وفيبي المحيطات والانهار . كذلك خص الباقين بانصبة فى ادارة الوجود .

انجب كرونوس ولداً وتذكر نبوءة ابيه فابتلعه . وانجب آخر وثالثا ورابعا فلم يبق على احد منهم ، فغضبت ريا ايما غضب وعولت على مناهضة زوجها . فما ان وضعت اصغر بنيها حتى اخفته عن زوجها القاسي . وكان هذا الولد هو جوبتر اي المشتري الذي قدر له ان يفعل بابيه كرونوس ما فعله كرونوس بابيه اورانوس .

دارت العجلة دورتها وسقط الزمن على الارض ، وقال فرجيل : انه سقط في روما فكتب لها الخلود . نزل زحل وصعد المشتري .

نزل كرونوس وصعد زوس بلغة اليونان . اما الرومان فقالوا : نزل ساتوران . وصعد جوبتر . وهنا تبدأ الرواية .

صار الى جوبتر ملك الكون . غير ان هذا الوضع لم يكن شرعيا لان جوبتر كان مغتصبا ولم يكن وارثا . وكيف يفعل التياتين ؟ سكت منهم ضعفاء القلوب وثار منهم الاقوياء . لكن جوبتر نكل بالثائرين وقذف بهم في الهاوية المعهودة . وهكذا نفض يده من اعمامه جميعاً . فمن لم يدن له بالولاء كان نصيبه العالم السفلى . وبقى هو مملكاً في الكون بغير شريك .

واخوته الذين ابتلعهم الزمن واحداً بعد واحد ماذا كان مصيرهم؟ ارغم جوبتر اباه كرونوس اثر هزيمته ان يلفظهم واحداً بعد واحد، واستخدمهم هو في ادارة أملاكه الواسعة.

كان لجوبتر ابن عم يدعى بروميثيوس اي (الفكر المتقدم) وابن عم آخر يدعى ابيميثيوس اي (الفكر المتأخر). وهما ولدا احد التياتين. فلما ثار جوبتر على ابيه انضما اليه وعاوناه على تأسيس دولة فكافأهما جوبتر على ذلك بان عهد اليهما بايجاد الاحياء على الارض. اشتغل ابيميثيوس الساذج بخلق الاسماك والطيور وسائر فصائل الحيوان، اما بروميثيوس الاريب فقد اشتغل بخلق كائن جديد يفوق كل هذه الكائنات مقاماً، فسوى الانسان من صلصال وجعله يسير منتصب القامة. وقد رفع بصره الى النجوم.

وبالغ ابيميثيوس فى تزيين طيوره بالالوان الجميلة وحيوانه بشتى المحاسن فاجاب بروميثيوس على ذلك بان زود الانسان بالنار. صعد بروميثيوس الى السماء واوقد مشعله من الشمس سراج السماء وهبط بالنار الى الارض واعطى الانسان الشرارة الاولى فاستطارت على مر الزمان نوراً فى العقول ونوراً فى الحياة. وكانت بها المعرفة والحضارة والفنون والصناعات. وكان هذا هو العصر الذهبي للانسانية. فكل الناس سعداء، والسلام يخيم على الارض والخطيئة شيء لا يعرفه احد. وكانت ايام البشر كلها ربيعاً متصلاً ولم يكن فى الارض بعد نساء. واغنت خيرات الارض عن العمل.

لا ريب ان هذه الحياة العدنية كانت مملة بعض الشيء. ولكن ملل الانسان ما لبث ان انقطع حين قسم جوبيتر السنة الى فصول.

تبدلت الحال وتغير خلق البشر - لفحهم الحر وقرسهم البرد واعتصموا بالكهوف من الامطار . وتعودوا العمل لينالوا خبزهم اليومي ، وانصرفوا عن الصلاة للالهة. وظهرت عليهم علائم السخط والتحدي.

وكان هذا هو العصر الفضي للانسانية . وحين نشب خلاف بين جوبتر والبشر في شأن القرابين انضم بروميثيوس الى صفوف البشر وغش كبير الالهة في شيء من نصيبه ، فامر جوبتر بحرمان البشر من النار . فرفعت عنهم النار . ولكن بروميثيوس صعد الى الشمس مرة أخرى وعاد بالشعلة الى مخلوقاته ، فلما انتهى الى علم جوبتر ان بروميثيوس سرق النار الالهية وردها الى البشر غير مبال باوامره قيده الى صخرة شاهقة بجبال القوقاز وجرد عليه نسراً ضارياً ينهش كبده كل نهار . فان جن الليل نبت له كبد جديد لينهشه النسر حين يأتي النهار .

وفي اسخيلوس ان المارد العظيم تحمل هذا العذاب ثلاثين الف سنة حتى فتك هرقل بالنسر وفك عن بروميثيوس ، اصطفاده . لكن جوبتر لم يكتف بعقاب بروميثيوس بل كاد للبشر فصنع لهم بوحي من الالهة مخلوقا جديداً هو المرأة دعاه باندورا ، اي هدية جميع الالهة. ونزلت باندورا من السماء الى الارض تحمل صندوقا مغلقا ، فلما وصلت شك بروميثيوس الذكي في امرها واعرض عنها . اما ابيمثيوس الساذج فظن فيها خيراً واستبقاها .

لم تكن باندورا تعرف ما بداخل الصندوق فلعب الفضول برأسها وفتحته فاذا به يحتوي كل ما يحصيه العقل وما لا يحصيه من العلل والاوصاب والخطايا والشرور . كل هذه خرجت من صندوق باندورا

وانتشرت في الافاق. ولكن شيئا واحداً ذهبي اللون بقى في الصندوق ذلك هو الامل. لقد اشفق الالهة على الانسان من هذا الجحيم الكبير فلم يبخلوا عليه بالامل.

ساء مسلك الانسان بعد ذلك وفسد البشر رويداً رويداً وتخلى الالهة الاخيار عنهم واحداً بعد الاخر، ولقد زعموا ان آخر من انصرف عن الانسان كان استرايا ربة البراءة وثميس ربة العدالة، فلما قتل الشر الخير في الارض وايقن جوبتر ان الانسانية قد ضلت سواء السبيل امر اربابه ان يغرقوا الارض بطوفان عظيم ليهلك من فيها فنفخ بوزايدون في امواجه فاهلكت جميع البشر وغمرت كل شيء الا قمة جبل باراناس جبل الشعر في بلاد اليونان.

وعلى قمة جبل باراناس وقف ديو كاليون وزوجه بيرا يشهدان الكارثة بعيون دامعة، وكان ديو كاليون ولد بروميثيوس الصالح. وكانت بيرا بنت ابيمثيوس الصالحة ممن ذكر جوبتر طهارتها فانقذهما من الموت. ثم انحسرت المياه فاستقبل الحياة الجديدة. ثم انجب ديو كاليون وبيرا ولدا يدعى هيلين وبمولد هيلين ولدت هيلاس ولد الاغريق.

النقد الادبي عند اليونان

كان النقد الادبي عند اليونان قبل افلاطون وارسطو نقدا عاما لا يرتبط بمنهج[1] وليس له ضابط يرسي قواعده ويعين معالمه. بل كان احكاما خالية من كل تحليل أو تعليل. وكان يصدرها حكام تختارهم حكومة اثينا عن طريق الاقتراع تأتي بهم في المسابقات العامة التي

(١) عن الجزء الاول من كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان باختصار ص ١٦.

كانت تجريها في المواسم . وكانت الحكومة تطلب الى هؤلاء المحكمين ان يمنحوا الجوائز للشعراء والممثلين الذين ينشدون اشعارهم او يمثلون مسرحياتهم في الميادين الاولمبية . وكثيرا ما كانت الجوائز تمنح للذين يريد اصحاب النفوذ والسلطان فوزهم في تلك المباريات[٢] .

وبعد زمن تجلت اولى محاولات النقد الادبي الجدية عند شاعر مسرحية الملهاة ارستوفانيس في مسرحيته الضفادع التي سخر بها من مسرحية المأساة التي الفها يوربيدس الذي كان قد توفى قبل تمثيل مسرحيته بعام . وفي ملهاة ارستوفانيس نرى رحلة ديونيموس اله المسرح الى الآخرة هاديس ليعيد يوربيدس الى الحياة بعيد موته ، واثناء عبوره نهر العالم الآخر ستيكس وكانت جوقة موسيقية من الضفادع تصحب اصوات المجاديف في الماء باغنية من اعذب الاغاني .

وفي ذلك العالم تقوم مناظرة ادبية بين الشاعرين اليونانيين يوربيدس واسخيلوس وفي هذه المناظرة ذات الطابع الهزلي يتراءى مضمون جدي يشف عن آراء جمالية وفنية تمثل ما كان رائجا منذ عهد بركليس (٤٩٩ ـ ٤٢٩ ق . م) عصر اثينا الذهبي . اذ نرى مسرحيات اسخيلوس موضع اعجاب الناس لأنه داعية الى الفضائل الدينية والتقاليد الاجتماعية في مسرحياته . ويهاجم ارستوفانيس في هذه المناظرة يوربيدس بأنه هدم المبادىء الدينية والخلقية والتقليدية بثقافته السوفسطائية . وصور في مسرحيته الالهة والابطال تصويراً لا يليق بمقامهم وجعلهم عرضة ونهبا للنقائص والعيوب التي يتعرض لها عامة الناس ، وبذلك قضى على قداستهم .

---

(١) المدخل في النقد الادبي الحديث للدكتور غنيمة ص (٣٢) .

ويظهر من هذا اقــرار المــؤلف لرسالة الشعر والمسرح الخلقية والاجتماعية . هذا الى ان في المناظـرة نفسها يعيب ارستوفانس على يوربيدس تكلفه في الاسلوب وحيله المسرحية التي يجافي بهـا طبيعة الفـن . وتنتهي مسرحيته الضفادع بهزيمـة يوربيدس للعيوب الفنية والخلقية في مسرحياته ، واخيرا يقتنع ديونيسوس بأن اسخيلوس خير منه فيعيده الى الارض ليرشد بمسرحيته الاثنيين الضالين .

وتمثل هذه المسرحية اتجاها عاما ساد النقد اليوناني وهو ان البحث في الادب ومسائله ارتبط اوثق ارتباط بالنظر في الانسان ومشاكله الخلقية والاجتماعية ممـا أثر تأثيرا جليـا واضحا في فلسفة افلاطون (٤٢٩ ـ ٣٤٧ ق . م) .

النقد عند افلاطون

كتب افلاطون محاورة عنوانها ايون في عشر السنين الاولى من القرن الرابع قبل الميلاد اى بعد موت استاذه سقراط ببضع سنين . وهي محاورة على شكل درامي يشبه محاورة مسرحية الضفادع لارستوفانس وتدور هذه المحاورة بين سقراط والمنشد ايون وفيهـا يتناول افلاطون مسألتين هامتين هما من صميم النقد الادبي .

اولهما : ما مصدر الشعر لدى الشاعر ؟ . الفن ام الالهام ؟ .

ثانيتهما : ما الفرق بين حكم الشاعر والناقد الادبي على الشيء من جهة وبين حكم العقل والعلم على نفس الشيء من جهة اخرى ؟

وفيما يخص المسألة الاولى يستدرج سقراط في هذه المحاورة ايون حتى يقر له بانــه لا يهتم الا بشعر هوميروس وانشاده دون سائر

الشعراء » وانه في هذا الشرح والانشاد لا يصدر عن قواعد فنية معينة » ولا عن مبادىء عقلية خاصة » بل عن نوع من النشوة الفنية يغيب فيها عن شعوره . وهو ما يدعوه افلاطون الالهام ومصدره الهى محض . ويستنتج سقراط اذن من ايون ان الناقد والشاعر لا يصدران عن العقل بل عن الالهام الالهى غير ان الشاعر يصدر عن ذلك اصالة ثم ينتقل الالهام الى المنشد والناقد كما ينتقل الجذب من الحديد الممغنط الى قطع الحديد الاخرى فتصبح بدورها مغناطيسية تجتذب ما يمسها .

فالشاعر كائن اثيري مقدس ذو جناحين لا يمكن ان يبتكر قبل ان يلهم ويفقد في هذا الالهام احساسه وعقله . واذا لم يصل الى هذه الحالة فانه يظل غير قادر على نظم الشعر او استجلاء الغيب . وما دام الشعراء لا ينظمون او ينشدون القصائد الكثيرة الجميلة عن فن . ولكن عن موهبة الهية لذلك لا يستطيع احد منهم ان يتقن الا ما تلهمه اياه ربة الشعر . . . . لذلك يفقدهم الاله شعورهم ليتخذهم وسطاء كالانبياء والعرافين الملهمين حتى ندرك نحن السامعين ان هؤلاء لا يستطيعون ان ينطقوا بهذا الشعر الرائع الا غير شاعرين بانفسهم . وان الاله هو الذي يحدثنا بالسنتهم .

وهناك امر آخر شغل افلاطون نفسه به وهو يتلخص في ان افلاطون اراد ان يميز بين موقف الشعر وموقف العلم والعقل من الاشياء اذ جعل سقراط في محاورته هذه ان يستدرج ايون الى ان في هوميروس مواقف خاصة بصنعة الطب او الملاحة او فن قيادة

العربات او صيد السمك لا يجيد شرحها المنشد وانما يجيده الطبيب والملاح وسائق العربة وصائد السمك . لان هؤلاء يتكلمون عن قواعد وفن . اما المنشد فهو كالشاعر لا يصدر الا عن موهبة الهية. وكان افلاطون يقصد بهذا الى بيان ان مقدرة الشاعر على تأليف شعر في شيء غير مقدرة المرء على شرح نفس الشيء شرحاً عقليا ،وان الشعر ليس هدفه الشروح العلمية .

ولافلاطون محاورة اخرى عنوانها (مينون) وموضوعها البحث في طبيعة الفضيلة ، وهل يمكن ان تلقن ؟

والمحاورة تدور بين سقراط والامير مينون . ويتجه سقراط فيها الى ان الفضيلة تهتدي اليها الروح بتذكرها لما سبق ان كانت على علم به في عالم الارواح قبل ان تهبط الى هذه الارض وتحل في الجسم .

فالفضيلة ليست سوى الهام. وهي من نصيب الملهمين من الحكام والعرافين والكهنة والشعراء . ولا يمكن لهؤلاء ان يلقنوها غيرهم كما لا يمكن للشعراء ان يلقنوا الآخرين عبقريتهم[1] .

ثم يتحدث افلاطون عن الالهام الشعري الصادر عن النشوة الالهية . فيقول حين يظفر ذلك الالهام بروح ساذجة طاهرة فانه يوقظها ويسمو بها فتمجد باناشيد أو بأية اشعار اخرى مآثر الاجداد فتربي الاجيال . اما ذلك الذي حرم النشوة الصادرة عن آلهة الفنون ثم يجرؤ على الاقتراب من ابواب الشعر واهما ان الصنعة تكفي لخلق الشاعر فانه لن يكون سوى شاعر ناقص . لأن شعر المرء البارد

---

١) المدخل الى النقد الادبي الحديث ص ٣٥ للدكتور محمد غنيمي هلال .

العاطفة يظل دائما لا اشراق فيه اذا قورن بشعر الملهم .

وجوهر فلسفة افلاطون فيما يخص الشعر يتجلى في نعيه على شعراء عصره الذين كانوا ينخدعون بالرذيلة ويتملقون الجماهير ، وفي قوله : ان مؤلفي المآسي المسرحية كانوا يتملقون نوعين من الطغيان، طغيان الجماهير وطغيان الحاكم المستبد . ولهذا ظل يرحب في جمهوريته بالاناشيد والمدائح التي تمجد رجال الخير وتحث على القدوة الصالحة .

نظرية المحاكاة عند افلاطون :

يتوسع افلاطون في المحاكاة ويفسر بها حقائق الوجود .وعنده ان الحقيقة وهي موضوع العلم ليست في الظاهرات الخاصة العابرة ولكنها في المثل أو الصور الخالصة لكل انواع الوجود ، وهذه المثل لها وجود مستقل عن المحسوسات وهو الوجود الحقيقي ولكننا لا ندرك اشكالها المحسوسة التي هي في الواقع ليست سوى خيالات لعالم المثل . وفي الكتاب السابع من الجمهورية يذكر افلاطون تشبيهه الرمزي المشهور لمدى ادراكنا للاشياء بسرداب فيه جماعة على مقعد وظهورهم لفتحة ضيقة منه وامام الفتحة نار عالية اللهب فهم يرون على ضوئها مناظر اشباح تتحرك منعكسة على الحائط امامهم . وهذا مبلغ ادراكنا لما نفكر انه حقيقة الاشياء . فما نراه في هذا العالم ليس سوى انعكاس لعالم الصور الخالصة كانعكاس الاشباح على حائط ذلك السرداب . وعالم الصور الخالصة هو عالم الحق والخير والجمال التي هي مقاييس لما يجري في منطقة الحس وجميع ما في عالم الحس محاكاة لتلك الصور . وكذلك النظم الانسانية بدورها محاكاة .

فكل الحكومات محاكاة للحكومة المثالية في عالم الصور او الافكار . والقوانين نفسها وهي الاسس للحكومات تقليد لخصائص الحقيقة كما دونها الناس في حدود ما استطاعوا[1] .

ارسطو ونقد الشعر

ارسطو تلميذ افلاطون أخذ المعرفة عنه وتأثر به . فمن الطبيعي ان تكون افكاره منسجمة في بعض الامور مع افكار استاذه في الشعر والنقد . لذلك كانت نظرية المحاكاة التي قال بها افلاطون هي نظرية ارسطو في الشعر خاصة .

نشأة الشعر عند ارسطو :

يرى ارسطو ان الشعر نشأ اصلا عن غريزة المحاكاة التي تظهر في الانسان منذ الطفولة . وبها يكتسب معارفه الاولية . وهذه الغريزة هي التي تدفعه الى حب الاستطلاع والرغبة في الاستزادة من المعرفة .

والمحاكاة عند ارسطو ليست وقوفا عند حدود التقليد للمظاهر الخارجية ولكنها محاكاة لحياة الانسان وطبيعته واخلاقه ومقومات هذه الاخلاق . بحيث تتجلى فيها حالات الانسان النفسية ومشاكله المدنية واعماله ودوافعها بصفة عامة وعن طريق التصور الصادق لمواقف الانسان تعمل المحاكاة عملها ويرتب الشاعر هذه المواقف في حكايته .

---

(١) المدخل الى النقد الادبي الحديث . الدكتور محمد غنيمي هلال .

ولهذا ينصح ارسطو الشعراء ان يتركوا الوقائع تبين بنفسها عن نتائجها موضوعيا دون تدخل منهم . ومنطق الحوادث هو الذي يبين عن القضايا العامة التي يريد الشاعر ان يسوقها . وعلى قدر براعة الشاعر في الابانة عن قضاياه العامة بواسطة ترتيب الاحداث وتصويرها تكون جودة شعره ويجيز ارسطو للشاعر ان يبتعد عن الواقع في حدود معينة ولكن لا يجيز له ان يسوق وقائع غير معقولة أو غير ممكنة .

الفصل الخامس

نماذج من النقد الادبي

في العصر الجاهلي

كانت الاسواق التي تقيمها العرب في مختلف بقاع الجزيرة ملتقى جماهير الناس، وكانت تلك الاسواق حافلة بالشعراء والخطباء واولي اللسن يتنافسون ويتبارون في فنون الكلام، وكانوا يحتكمون في ذلك الى رجال يرضونهم حكاما لهم. يحكمون بينهم ويفضلون بعضهم على بعض. وها نحن نذكر بعض هاتيكم المجالس الادبية للتمثيل، لا، للاستقصاء. من ذلك.

ذكروا ان الاعشى وحسان والخنساء انشدوا النابغة الذبياني شيئا من اشعارهم فأعجب بقصيدة الخنساء التي رثت بها اخاها صخرا والتي منها :

وان صخرا لتأتم الهداة به   كأنه علم في رأسه نار

فقال النابغة لها لولا أن ابا بصير - يعني الاعشى - انشدني لقلت : انك اشعر الجن والانس.

وقالوا ان علقة بن عبدة قدم على قريش فانشدها قصيدته التي يقول فيها :

هل ماعلمت وما استودعت مكتوم

ام حبلها اذ نأتك اليوم مصروم

فقالوا هذه سمط الدهر. ثم عاد اليهم في العام المقبل فانشدهم :

طحا بك قلب في الحسان طروب

بُعيد الشباب عصر حان مشيب

فقالوا : هاتان سمطا الدهر .

ويروى عن ابي عمر الشيباني الكوفي ان عمرو بن الحارث الاعرج الغساني فضّل حسانا على النابغة وعلى علقمة بن عبدة وكانا حاضرين معه واثنى على لامية حسان التي منها :

لله در عصابة نادمتهم   يوما بجلق في الزمان الاول

ودعاها البتّارة التي بترت المدائح .

كثيرا ما كانت العرب تلقب الشعراء، وتلقب القصائد تنويها بها واعظاما لها وايمانا منهم بانها جيدة فريدة ، لقبوا النمر بن تولب بالكيس لحسن شعره ، وسموا طفيل الغنوي طفيل الخيل لشدة وصفه اياها . وسموا قصيدة سويد بن ابي كاهل :

بسطت رابعة الحبل لنا   فوصلنا الحبل منها ما اتسع

باليتيمة .

ذكروا أن طرفة بن العبد وهو فتى يافع لما سمع المتلمس ينشد بيته :

وقد اتناسى الهم عند احتضاره   بناج عليه الصعرية مكدم

قال : لقد استنوق الجمل . ذلك لأن الصعرية علامة تكون في عنق الناقة ، لا في عنق الجمل .

جاء في كتاب الموشح للمرزباني[1] ان امرأ القيس تنازع مع علقمة

---

(١) صحيفة ٢٩ .

بن عبدة في الشعر ايها اشعر فقال كل واحد منهما لصاحبه انه اشعر منه فقال علقمة الفحل قد رضيت بامرأتك ام جندب حكما بيني وبينك فحكماها ، فقالت ام جندب لهما قـولا شعرا تصفان فيه فرسيكما على قافية واحدة وروي واحد فقال امرؤ القيس :

خليـلي مرا بي عـلى ام جـندب
نقضّي لبانـات الفـؤاد المعـذب

وقال علقمة :

ذهبت من الهجران في غير مذهب
ولم يك حقـا طول هـذا التجنب

فانشداها القصيدتين ، فقالت لامرىء القيس : علقمـة أشعر منك ، لأنك قلت في وصف فرسك :

فللسوط الهوب وللساق درة   وللزجر منه وقع اخرج مهذب

فأجهدت فرسك بسوطك ومريته بساقك ، وقال علقمة :

فادركهن ثانيا من عنانه   يمر كمر الرائـح المتحلب

فأدرك فرسه الصـيد ثانيا من عنانه دون ان يحتاج الى ضـربه بالسوط واجهاده بالساق .

نخرج من ذلك الى ان زوجة امرىء القيس كانت ترى ان تفضيل قصيدة على قصيدة لايتم الا باتحاد القصيدتين موضوعا وقافية ورويا . ثم انهـا فضلت القصيدة الثانية على الاولى باعتبار ان صفة امرىء القيس للفرس لاتدل على انها من كرائم الخيل لأن امرأ القيس ذكر الالهاب بالسوط والتحريك بالساق والزجر بالصوت وذلك دليل

على ضعف الفرس و كسلها . كما انها رأت ان صفة علقمة لفرسه تدل على كرم اصلها وخفة حركتها وانها لا تحتاج الى سوط وزجر وانما تدرك الغرض وتمر مر الفرس الراكضة في حلبة السباق بالرغم من ثنيه وقبضه لزمامها .

ورووا ان الخنساء سمعت في عكاظ حسان بن ثابت ينشد :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
واسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرق
فاكرم بنا خالا واكرم بنا عما

فنقدته الخنساء وقالت له : ضعّفت افتخارك وانزرته في ثمانية مواضع ، قال لها حسان : وكيف ؟ قالت :

قلت لنا الجفنات والجفنات ما دون العشر فقللت العدد ولو قلت الجفان لكان اكثر . وقلت الغر ، والغر جمع غرة والغرة البياض في الجبهة ، ولو قلت البيض لكان اكثر اتساعا . وقلت يلمعن واللمع شيء يأتي بعد الشيء (أي يظهر ويختفي) ولو قلت يشرق لكان اكثر لأن الاشراق ادوم من اللمعان . وقلت بالضحى ولو قلت بالعشية لكان ابلغ في المديح لأن الضيف بالليل اكثر طروقا . وقلت اسيافنا والاسياف دون العشرة ولو قلت سيوفنا لكان اكثر . وقلت يقطرن فدللت على قلة القتال ولو قلت يجرين لكان اكثر لانصباب الدم . وقلت دما والدماء اكثر من الدم وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك .

وقالوا ان النابغة الذبياني دخل يثرب فعابه اهلها لاقوائه في الشعر فلم يعبأ بهم . فتعمدوا ان يحتفلوا به في ليلة سمر فاحضروا له

جارية تغنيه في تلك الليلة وقالوا لها اذا صرت الى القافية فرتلي وأشبعي الترتيل وليكن غناؤك بقصيدة النابغة التي مطلعها :

من آل مية رائح أو مغتدى ... عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح ان رحلتنا غدا ... وبذاك خبرنا الغراب الاسود
سقط النصيف ولم ترد اسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليد
بمخضب رخص كأن بنانه ... عنم يكاد من اللطافة يعقد

فلما قالت وغير مزود والغراب الاسود واتقتنا باليد ومن اللطافة يعقد . أحس النابغة بعيبه فاصلحه وقال دخلت يثرب وفي شعري هنة ورحلت عنها وانا اشعر الناس .

وذكروا ان رهطا من شعراء تميم قد اجتمعوا فى مجلس شراب وهم الزبرقان ابن بدر والمخبل السعدي وعبدة بن الطيب وعمرو بن الاهتم . اجتمعوا قبل أن يسلموا وبعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، قال بعضهم لو ان قوما طاروا من جودة اشعارهم لطرنا . ثم تخاصموا فيما بينهم على الاولوية ورضوا ان يحكم بينهم اول من يطلع عليهم . فطلع عليهم ربيعة بن حذار الاسدي وقالوا أينا اشعر؟ فقال أما عمرو فشعره برود يمنية تطوى وتنشر واما أنت يازبرقان فشعرك كلحم لم ينضج فيؤكل ولا ترك نيئا فينتفع به واما أنت يا مخبل فشعرك شهب من الله يلقيها على من يشاء من عباده . واما انت ياعبدة فشعرك كمزادة احكم خرزها فليس يقطر شيء منها .

ان هذه النماذج شواهد على ان العرب تنبهت الى النقد الادبي منذ القدم وعرفته معرفة حسنة غير انها لم تتجاوز في نقدها الصور الادبية المعروفة في بيئتهم فجاءت احكامهم في النقد احكاما عامة

دون تعمق وتوغل في بيان فنون القول وعناصر الجمال من حرارة العاطفة وقوة الخيال وطرافة الابتكار والابداع بالشكل الذي عرفناه في زماننا هذا .

هكذا كان النقد الادبي في بدايته في العصر الجاهلي مبنيا على الاحكام الذاتية التي اساسها الذوق الخاص دون تحليل أو تعليل معتمدا على الفطرة والسليقة . فاذا نقد احدهم الشعر نقده نقدا مجملا من غير شرح أو تفصيل .

قال المرحوم الاستاذ طه ابراهيم :- وجد النقد الادبي في الجاهلية ولكنه وجد هينا يسيرا ملائما لروح العصر ملائما للشعر العربي نفسه. فالشعر الجاهلي احساس محض والنقد كذلك ، كلاهما قائم على الانفعال والتأثر ، فالشاعر مهتاج بما حوله من الاشياء والحوادث ، والناقد مهتاج بوقع الكلام في نفسه . وكل نقد في نشأته لا بد ان يكون قائما على الانفعال بأثر الكلام ، والنقد العربي لا يشذ عن تلك القاعدة ، بل هو من اصدق الامثلة لها . فالعربي حساس رقيق الحس تنال الكلم من نفسه ويهتاج لها اهتياجا ، فاذا حكم على الادب حكم عليه تبعا لتأثره بـه ، وبمقدار ذلك التأثر . . يحكم على الادب ببلاغة الادب ، ويحكم عليه بالنظرة العجلى التي تحول بين النقد وبين ان تكون له اسس أو اصول مقررة . فما كان النقد الجاهلي اكثر من مآخذ يفطن اليها الشعراء في الشعر وما كان لـه من اصل الا سليقتهم ومـا طبعوا عليه ، ولم يقم الا على الذوق العربي السليم[1] .

---

(١) كتاب تاريخ النقد الادبي عند العرب ص (٢٤) لطه ابراهيم .

الفصل السادس

اثر القرآن الكريم في تطوير

الحياة العقلية والادبية

احتل القـرآن الكريم الصدارة في فن القول وامتاز باسلوبه البديع على سائر الاساليب المعتبرة عند العرب ، وبلغ المرتبة العليا في الكشف عن اسرار هذه الحياة وانحنت له رقاب اهل اللسن في قريش. لذلك كان اثره بليغا في تطوير الحياة العربية من جميع نواحيها ولا سيما الناحية البيانية فانـه قد صهر جميع لهجاتها وجعلها في لهجة واحدة هي لهجة قريش ، كما انه صانها من الخلل وحفظها من الضياع وجعلها لغة خالدة الى الابد يستحيل تغييرها وتبديلها ما دام القرآن يتلى على العالمين .

رُوِي ان الوليد بن المغيرة جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له وسحر به فبلغ ذلك ابا جهل فأتاه فقال له يا عم ان قومك يريدون ان يجمعوا لك مالا ليعطوكه ، لئلا تأتي محمداً وتسمع ما يقرأ لك . فرد عليه الوليد قائلا (قد علمت قريش انى من اكثرها مالا . قال فقل فيه قولا يبلغ قومك انك كاره له ، قال وماذا اقول ؟ فوالله ما فيكم رجل اعلم مني بالشعر لا برجزه ولا بقصيده ولا باشعار الجن ، والله ما يشبه الذي نقوله شيئاً من هذا ، ووالله ان لقوله لحلاوة وان عليه لطلاوة وانه لمثمر اعلاه مغدق اسفله ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه ، وانه ليحطم ما تحته . قال لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال فدعني حتى افكر . فلما فكر قال:

هذا سحر يأثره عن غيره) . حقا انـه لسحر يأثره عن غيره ويأتيه من وحي السماء .

لم لا ؟ فان اياته لايات بينات متميزات على جميع اساليب التعبير، ومعانيه معان لا مثيل لها في تاريخ الفكر . لذلك صار اعظم وسيلة لدى نقاد الادب واقوى حجة عند فصحاء اللغـة وبلغائها ، واصدق مقياس في ميزان النقد . فهو كتاب عربي مبين ، أحكمت اياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، انه مصدر ايحاء ، ومرجع احكام ، وحصن لغة ، ومبعث عقيدة ، ودستور امـة ، فلا عجب ان يكون النقد والاصلاح بعض غاياته ، والحكمة والهداية شيئاً من اهدافه ، وبفضل هذا القرآن العظيم خلدت اللغة العربية وتطورت وفاقت سائر اللغات بفصاحة الفاظها وجمال صورها ودقة معانيها وشمول اغراضها وحكمة تشريعها وسمو قصصها . هذا فضلا عمـا انتجته من علوم وفنون واخبار لا نهاية لها .

نعم لقد كانت لغـة العرب قبل عصر القـرآن تمتاز بادابها على الشكل الذي عرفناه في شعر شعرائها ونثر كهانها ، ولما نزل عليهم القرآن وجدوا فيه اساليب من البيان فاقت اساليبهم وخلبت البابهم وبهرت ادباءهم باياتـه الباهرة وموسيقاه العذبـة ومعانيه المبتكرة وامثاله السائرة . اساليب اذا اشتدت فامواج البحار الزاخرة ، واذا هي لانت فانفاس الورود العطرة . فعباراته اذا جـرت على اسلوب السجع جاءت بما يعجز عنه اكابر الخطباء، وتقف دونه همم البلغاء . قال تعالى :

والنجم اذا هوى مـا ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن

الهوى ، ان هو الا وحي يوحى . علّمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالافق الاعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين او ادنى ، فاوحى الى عبده ما اوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، افتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة اخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، اذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى . أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الاخرى ، الكم الذكر وله الانثى ، تلك اذاً قسمة ضيزى .

هذا نمط من السجع البالغ ارفع درجات الكلام المسجوع لا تجد فيه تكلفاً ولا زخرفة ولا غموضا مع كثرة الايات وتوالي السجعات .

وكذلك شأن القرآن في اسلوب الترسل . فاذا جرى فيه اتاك بالعجب العجاب (مما تقف عنده حدود الطبيعة الانسانية في البلاغة والبيان) . قال تعالى :

واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لي ان اقول ما ليس بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك ، انك انت علام الغيوب ، ما قلت لهم الا ما امرتني به ، ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمتُ فيهم ، فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم ، وانت على كل شيء شهيد ، ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم .

من هنا نعلم ان البيان القرآني نسق خاص به لا يشاركه بيان ولا يدنو منه تعبير انسان .

وكل ما يعمله الادباء والنقاد في الاستفادة منه انهم جعلوه قدوة لهم يحذون حذوه ويقتبسون منه على قدر حظوظهم من الاستعداد الفطري وبمقدار ما رزقوا من قوة العقل ورفاهة الحس وسمو الذوق وسلامة الوجدان ، ولهذه الامور كلها كان القرآن الكريم اقوى دعائم النقد الادبي واعظم مثال للحسن والجمال. وحجتنا في ذلك هو تمكنه في مدة وجيزة ليست شيئاً في حساب النهضات العالمية من تطوير امة العرب تطويراً سريعاً مهد لنشر الرسالة في اداني الارض واقاصيها باسلوبه الفذ وحقائقه الخالدة قال تعالى :

قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها اذى والله غني حليم ، يا ايها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذي ينفق امواله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الاخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فاصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ، ومثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضاته وتثبيتاً من انفسهم كمثل جنة بربوة اصابها وابل فآتت اكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير .

وقال : اتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون .

وقال : ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا .

وقال : ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم .

وقال : ولا تمش في الارض مرحاً انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا .

وقال : فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

وقال: ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

وقال : ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً .

وقال : فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض . كذلك يضرب الله الامثال .

وقال : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون .

وقال : واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا .

وقال : وتحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى .

وقال : كل حزب بما لديهم فرحون .

بهذا التوجيه الرباني والنقد البناء توانت العرب عن مدارسة الشعر بعض التواني وانشغلت بايات القرآن الكريم والجهاد في سبيل نشره . ولم يعد اهتمامها بالشعر كما كان من قبل. اذ وجدت في التنزيل الحكيم والحديث الشريف ما يغنيها عن الشعر ودواعيه واصبحت مجالس العرب مهتمة بهذا البنا العظيم ، ومن هنا اخذ الصراع يشتد بين الايمان والشرك ويتفاقم بين الحق والباطل .

وكلما حاول المشركون الذين اخذتهم العزة بالاثم ان يصدوا الناس عن مبادىء القرآن حاولوا عبثا . وفي نهاية هذا الصراع انتصر القرآن ووجد سبيلا رحبة الى قلوب الناس وعقولهم .

وبهذه الامور مجتمعة تحول النقد الادبي نحو مدارسة القرآن الكريم واحكامه الجديدة متجها نحو مفاهيمه الشرعية واللغوية والفكرية مقتبساً منها ومقتديا بها ومتوخيا في كل ذلك الهداية الى الحق والخير والجمال . منهاجه في النقد قوله تعالى :

(ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن) ومعنى ذلك . ايها النبي انقد الحياة نقداً بناء تستحسنه العقول السليمة وتألفه الطباع المستقيمة فتهدي المنقودين الى ما هو احق واجمل . ولستَ بالغاً قصدك ما لم تهيء النفوس للحق والعقول للجميل وتدلهم على مواضع الخطا ومواطن الصواب .

واذا صادفت قوماً غلبتهم شقوتهم وغلظت طباعهم وركبهم الجهل والعناد فاتخذ احسن الطرق والاساليب التي توصلك الى مبتغاك وتصل بك الى ما تحب من الخير والعدل دون ان يضيق صدرك وتهتاج عواطفك وتركن الى الغضب والعنف والاصطدام .

وقال تعالى

(قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا اسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم)

ذلك ان فريقاً من الاعراب جاءوا الى النبي فقالوا له آمنا بالله ربا وبك رسولاً وهم لم يؤمنوا بالله ورسوله حق ايمانهم ، وانما قالوا ذلك مضطرين لظروف الجأتهم الى هذا القول . لان الايمان بالله والرسول تصديق واذعان وامتلاء القلب بنور اليقين ، ولذلك قال الله تعالى : قل لهم يا محمد : انكم لم تؤمنوا . اي ما كان يصح منكم ان تقولوا

آمنا ، ولكن قولوا اسلمنا ، اي جئناك طائعين مستسلمين مخافة ان نتعرض الى الاسر والقتل .

انه نقد في غاية الحسن والجمال ، اذ نبه سبحانه وتعالى الاعراب الى ما هو اصدق واصح في التعبير عن حقيقة امرهم فقال لهم قولوا اسلمنا ولا تقولوا امنا لان الايمان لم يدخل قلوبهم ولم يتغلغل في نفوسهم بعد . فلا يكون المسلم مؤمناً حقاً حتى يكون الله ورسوله احب اليه من نفسه وذويه وابناء عصبيته من عمومته وخؤلته وعشيرته .

وقال تعالى :

(ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما في قلبه وهو الد الخصام) .

المعنى ان بعض الناس يروقك قوله ويعجبك طلاقة لسانه وقوة بيانه في الحياة الدنيا مع انه لا يتكلم الا ليحظى بشيء من عرض الدنيا .

نبه سبحانه وتعالى في هذه الاية الكريمة الى امر خطير في ميزان النقد اذ نبه ان الكلام المزخرف ينبغي ان لا يروق ولا يعظم في القلوب ما لم يكن تعبيراً عن حقيقة ما انطوت عليه نفس صاحبه وهادفاً الى معنى يحق حقاً ويدحض باطلاً مما ينفع الناس وتسمو به الحياة . فزخرفة الالفاظ وحدها غير مجدية وليست ذات قيمة . في ميزان النقد حتى يتوفر فيه عنصر الصدق والحق والعدل مما ينفع الناس وترقى به الحياة .

الفصل السابع

نماذج من النقد الادبي

في العصر الاسلامي

قالت الرواة ان الشاعر النجاشي قال شعرا في بني العجلان فاستعدوا عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقالوا له هجانا . قال عمر وما قال فيكم فانشدوه قوله :

اذا الله عادى أهل لؤم ورقة
فعادى بني العجلان رهط بن مقبل

فقال عمر ان الله لا يعادي مسلما . قالوا فقد قال :

قبيلته لا يغدرون بذمة
ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال وددت ان آل الخطاب كانوا كذلك . قالوا فقد قال :

ولا يردون الماء الا عشية
اذا صدر الورّاد عن كل منهل

فقال ذلك اصفى للماء وأقل للزحام . قالوا فقد قال :

وما سمي العجلان الا لقولهم
خذ القعب واحلب ايها العبد واعجل

فقال عمر سيد القوم خادمهم .

وكان عمر رضي الله عنه اعلم بما في هذا الشعر ولكنه درأ الحدود بالشبهات .

وسأل عمر رجلا عن شيء. فقال الرجل الله اعلم . قال عمر لقد شقينا ان كنا لا نعلم ان الله يعلم . اذا سئل احدكم عن شيء. فليقل لا علم لي به ان كان لا يعلم عنه شيئاً .

* * *

كان قد ذكر بحضرة ابن عتيق شعر عمر بن ابي ربيعة والحارث بن خالد المخزوميين . فقال رجل من ولد خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة صاحبنا الحارث أشعر من عمر بن ابي ربيعة. فقال ابن ابي عتيق:

دع قولك يا ابن اخي فلشعر عمر بن ابي ربيعة لوطة بالقلب[1] وعلق بالنفس ودرك للحاجة ليس لشعر الحارث . وما عصى الله بشعر قط اكثر مما عصى بشعر ابن ابي ربيعة فخذ عني ما أصف لك :

أشعر قريش من رق معناه ولطف مدخله وسهل مخرجه وتعطفت حواشيه واثارت معانيه وأعرب شعره عن صاحبه .

فقال الذي من ولد خالد بن العاص صاحبنا الذي يقول :

اني وما نحروا غداة مني ... عند الجمار تؤدها العُقل[2]
لو بُدلت اعلى منازلها ... سفلا واصبح سفلها يعلو
فيكاد يعرفها الخبير بها ... فيردها الاقواء والمحل
لعرفت مغناها بما احتملت ... مني الضلوع لاهلها قبل

فقال ابن ابي عتيق يا ابن اخي استر على صاحبك ولا تشاهد المحاضر بمثل هذا . اما تطير الحارث عليها حين قلب ربعها فجعل عاليه سافله . ما بقى الا ان يسأل الله حجارة من سجيل .

---

(١) لوعة بالقلب : علوق به .
(٢) العقل : جمع عقال .

ان ابن ابي ربيعة كان احسن الناس للربع مخاطبة واجمل مصاحبة اذ يقول :

سائلا الربـع بالبُـلى وقـولا
هجت شوقا لي الغداة طويـلا
اين اهل حلوك اذ انت مسرو
ر بهـم آهـل اراك جميـلا
قال سـاروا وامعنوا واستقلوا
وبكرهي لو استطيع سبيـلا
سئمونا ومـا سئمنـا مقامـا
واستحبوا دماثـة وسـهولا[1]

* * *

أنشد عبدالملك بن مروان قول نصيب :

اهيم بدعد ما حييت فان امت
فوا حزنا من ذا يهيم بها بعدي

فقال بعض الحاضرين اساء القول يا امير المؤمنين ايحزن لمن يهيم بها بعده ؟

قال عبدالملك لو كنت قائلا فماذا تقول ؟ قال اقول :

اهيم بدعد ما حييت فان امت
اوكل بدعد من يهيم بها بعدي

فقال عبدالملك انت اسوأ قولا . ثم قال الوجه ان يقال :

---

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٢٨٥ والمرشح للمرزباني ص ٢١ .

اهيم بدعد ما حييت فان امت

فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

* * *

قال محمد بن عمار بن ياسر ان عبدالملك بن مروان قال لو قال كثير بيته:

فقلت لهـا يا عز كل مصيبة

اذا وطنت يوما لها النفس ذلت

في حرب لكان اشعر الناس.

وقال لو ان القطامى قال بيتــه الذي وصف فيه مشية الابل:

يمشين رهوا فلا الاعجاز خاذلة

ولا الصدور على الاعجاز تتكل

وصف فيه مشية النساء لكان اشعر الناس.

* * *

وقالوا تعلق بعض النقاد على كثيّر بقوله لعبد العزيز بن مروان:

وما زالت رقاك تسل ضغني وتخرج من مكامنها ضبابي

ويرقيني لك الراقون حتى اجابك حية تحت الحجاب

* * *

قال يونس أنشد كثير عبدالملك مدحته التي يقول فيها:

على ابن ابي العاص دلاص حصينة

اجاد المسدى سردها واذا لهـا

ينوء ضعيف القوم حمل قتيرها

ويستضلع القرم الاشم احتمالها

فقال له عبدالملك قول الاعشى لقيس بن معدي كرب أحب الي من قولك:

واذا تجيء كتيبة ململومة ... خرساء يخشى الذائدون نهالها
كنت المقدم غير لابس جُنة ... بالسيف تضرب معلما ابطالها

فقال كثيّر يا امير المؤمنين وصف الاعشى صاحبه بالطيش والخرق والتغرير ووصفتك بالحزم والعزم . فأرضاه .

قال الشيخ المرزباني رحمه الله تعالى : رأيت اهل العلم بالشعر يفضلون قول الاعشى في هذا المعنى على قول كثير لأن المبالغة احسن عندهم من الاقتصار على الامر الاوسط ، والاعشى بالغ في وصف الشجاعة حتى جعل الشجاع شديد الاقدام بغير جُنة على انه وان كان لبس الجُنة اولى بالحزم وأحق بالصواب . فني وصف الاعشى دليل قوي على شدة شجاعة صاحبه لأن الصواب له لا لغيره .

* * *

عرضت امرأة لكثيّر فقالت له انت القائل :[1]

فما روضة بالحزن طيبة الثرى ... يمج الندى جثجاثها وعرارها
با طيب من اردان عزة موهنا ... وقد اوقدت بالمندل الرطب نارها

لو ان امــرأة كريهة الرائحة طبيعة بخرت اردانها بمندل رطب اما كانت تطيب ؟ الا قلت كما قال امرؤ القيس

الم ترأني كلما جئت طارقا ... وجدت بها طيبا وان لم تطيب

* * *

قال صالح بن حسان كانت احدى عقيلات العرب تجلس للناس فبينما هي جالسة اذ قيل لها العذري بالباب فقالت ائذنوا له فدخل فقالت له انت القائل :

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ٤١٥ .

فلو تركت عقلي معي ما بكيتها

ولكن طلابيها لما فات من عقلي

انما تطلبها عند ذهاب عقلك ؟ لولا ابيات بلغتني عنك ما اذنت لك ، وهي :

علقت الهوى منها وليدا فلم يزل

الى اليوم ينمي حبها ويزيد

فلا انا مرجوع بما جئت طالبا

ولا حبها فيما يبيد يبيد

يموت الهوى مني اذا ما لقيتها

ويحيا اذا فارقتها فيعود

* * *

قال عمارة بن عقيل لما بلغ الوليد قول جرير :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة

لو شئت ساقكم الى قطينا

قال الوليد اما والله لوقال لو شاء ساقكم الي قطينا لفعلت ذلك ولكنه قال لو شئتُ فجعلني شرطيا له .

قال كثير عزة :

وددت وبيت الله انك بكرة[1]

هجان[2] واني مصعب[2] ثم نهرب

---

(١) الحزن ماغلظ من الارض والجثجاث نوع من النبات والعرار بهار البر .

(٢) الاردان : جمع ردن وهو الكم . والموهن من اول الال الى نحو نصفه . المندل : عود طيب الرائحة .

(٣) بكرة : صغيرة السن .　　(٤) هجان سوية الخلق

(٥) مصعب : فحل لم يركب لصعوبته .

كلانا بـه عرٌ فمن يرنا يقل
على حسنها جرباء تعدي واجرب
نكون لذى مال كثير مغفّل
فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب
اذا ما وردنا منهلا صاح اهـله
علينا فلا ننفك نُرمى ونُضرب

ويروى ان عزة نقدته فقالت له لقد اردت بناء الشقاء الطويل اما وجدت امنية اوطأ من هذه ، قال النقاد ان هذه الامنية الشقية لا تجول بخاطر محب يتمنى ان تسعد حبيبته بحياة هانئة مشرقة .

وشبيه بهذا ما يروى من ان جميلا لقى بثينه بعد تهاجر كان بينهما طالت مدتـه فتعاتبا طويلا فقالت له ويحك يا جميل تزعم انـك تهواني وانت الذي تقول :

رمي الله في عيني بثينة بالقذى
وفي الغرّ من انيابها بالقوادح[1]

فأطرق قليلا يبكي ثم قال بل انا القائل :

الا ليتني اعمى اصم تقودني بثينة لا يخفى عليّ كلامها

فقالت له ويحك ما حملك على هذه المنى ؟ اوليس في سعة العافية ما كفانا جميعا . وعابو على جميـل هذا البيت فقيل : هذا محـال ان يكون اصم ثم لا يخفى عليه كلامها اللهم الا ان يعطى آية في خفـاء كلام الناس عليه وسماعه لكلامها[2]

(١) القوادح : جم قادحة ، وهي الدودة التي تفسد الاسنان .
(٢) للوشح ، ص ٢٠٠

وقيل ان احسن ماقيل في تمني الشعراء لقاء الاحبة مع البلاء قول ابن الاحنف :

الا ليتني اعمى اذا حيل دونها
وتنشأ لنا ابصارنا حين نلتقي
اضن على الدنيا بطرفي وطرفها
فهل بعد هذا من فعال بمشفق

* * *

قال ابو عمر بن العلاء قال رؤبة ما رأيت افخر من قول امرىء القيس .

فلو انما اسعى لأدني معيشة
كفاني ولم اطلب قليل من المال
ولكنما اسعى لمجد مؤثل
وقد يدرك المجد المؤثل امثالي

ولا انذل من قوله .

لنا غنم نسوّقها[1] غزار كأن قرون جلّتها[2] العصي
فتملأ بيتنا إقطا وسمنا وحسبك من غنى شبع وريّ

لأن قوله هذا يشبه قول اعرابي متلفع في شملته لاتجاوز همته ما حوته خيمته .

* * *

ومن الامثلة الجامعة للنقد ما رواه المبرد ان عمر بن ابي ربيعة

(١) نسوقها : نحثها على السير .
(٢) جلها : معظمها .

والاحوص ونُصيبا صاروا الى كثيّر فاقبل كثير على عمر فقال له احسنت في كثير من شعرك ولكن اخبرني عن قولك :

قالت لها اختها تعاتبها لتفسدن الطواف في عمر
قومي تصدي له ليبصرنا ثم اغمزيه يا اخت في خفر
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرّت[1] تشتد في اثري

والله لو قلت هذا في حرة اهلك كنت قد اسأت صفتها انك اردت ان تنسب بها فنسبت بنفسك . اهكذا يقال للمرأة ؟ فالمرأة انما توصف بالخفر وانها توصف بانها مطلوبة ممتنعة هلا قلت كما قال هذا وضرب بيده على كتف الاحوص :

ادور ولولا ان ارى ام جعفر بابياتكم ما درت حيث ادور
وما كنت زوّارا ولكن ذا الهوى اذا لم يُزر لا بد ان سيزور
لقد منعت معروفها ام جعفر واني الى معروفها لفقير

فامتلأ الاحوص سرورا ثم اقبل عليه فقال يا احوص خبرني عن قولك :

فان تصلي اصلك وان تعودي لهجر بعد وصلك لا ابالي

اما والله لو كنت من فحول الشعراء لباليت هلا قلت كما قال هذا وضرب بيده على جنب نصيب :

بزينب الم قبل ان يضعن الركب وقل ان تملينا فما ملك القلب

فانتفخ نُصيب ثم اقبل عليه فقال له ، ولكن اخبرني عن قولك يا اسود :

---

(١) اسبطرت : اسرعت .

اهيم بدعد ماحييت فان امت فوا حزنا من ذا يهيم بها بعدي

كأنك اغتممت وحزنت الا يتزوجها احد من بعدك .

فقـال بعضهم لبعض قوموا نذهب فان الذهاب افضل لنـا من البقاء[1] .

* * *

قال كثيّر عزة :

أريد لانسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيلي

فنقدوه بانه ان كان يحبها حقا فلماذا يريد ان ينسى ذكرها ؟

الا قال كما قال الآخر :

فلا خفف الرحمن ما بي من الهوى

ولا قطع الرحمـن عن حبها حبي

فما سرّني اني خلى من الهوى

ولو ان لي ما بين شرق الى غرب

الفصل الثامن

بحث السرقات الشعرية

البحث في السرقات الشعرية هو من صميم ابحـاث النقد الادبي لذلك تحريت ما قاله علماء البيان في موضوع السرقات ودونت ما هو جوهري منها وتركت الزيادات للراغبين في طلب المزيد. وهي مبثوثة في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة والكامل للمبرد والوساطة بين المتنبي وخصومـه لعلي بن عبدالعزيز الجرجاني . والموشح للمرزباني وكتاب الصناعتين لابي هلال العسكري والمثل السائر لابن الاثير والصبح المنبي عن حيثية المتنبي ليوسف البديعي وغيرها من كتب الادب .ولا اذيع سرا ان قلت ان الامثلة التي وردت في هذه الكتب هي مدونة في جميعها غير انها تتفاوت في ايرادها الامثلة كثرة وقلة .

ومن المفيد ايضا ان الخّص ما قاله ابن الاثير في كتابه المثل السائر في مقدمـة بحث السرقات . اذ يرى ان البحث في موضوع السرقة يعلمنا اين نضع ايدينا في أخذ المعاني اذ لا يستغني الآخر عن الاستعارة من الاول ولكنه في الوقت نفسه لا يتفق مع القائلين بان الشعراء الاقدمين استأثروا بجميع المعاني ولم يتركوا للمتأخرين شيئاً يبتدعونه فهذا قـول لا يلتفت اليه ابن الاثير لان الشعر عنده من الامور المتناقلة والذي تواردت عليه الاخبار بان العرب كانت تنظم المقاطيع من الابيات فيما يعنّ لها من الحاجات . ولم يزل الحال على هذه الصورة الى عهد امرىء القيس .ولو لم يكن له معنى اختص به سوى انه اول من قصد القصيد لكان في ذلك كفاية . وأي فضيلة اكبر

من هذه الفضيلة . ثم تتابع المقصدون واختير من القصائد التي علقت على البيت وانفتح للشعراء هذا الباب للتقصيد و كثرت المعاني المقولة بسببه ولم يزل الامر ينمى ويزيد ويؤتى بالمعاني الغريبة واستمر ذلك الى عهد الدولة العباسية وما بعدها الى الدولة الحمدانيـة فعظم الشعر و كثرت اساليبه وتشعبت طرقه. وكان ختامه على الثلاثة المتأخرين وهم ابو تمـام حبيب بن اوس وابو عبـادة الوليد بن عبيد البحتري وابو الطيب المتنبي ،فاذاقيل ان المعاني المبتدعة سبق اليها ولم يبق معنى مبتدع فهذا القول عند ابن الاثير غير مقبول . والصحيح عنده ان باب الابتداع للمعاني مفتوح الى يوم القيامة . ومن الذي يحجز على الخواطر وهي قاذفة بمـا لا نهاية له ؟ الا ان من المعاني ما يتساوى الشعراء فيه ولا يطلق عليه اسـم الابتداع لأول قبل آخـر لان الخواطر تأتي به من غير حاجة الى اتباع الآخر الاول كقولهم في الغزل:

عفت الديار ومـا عفت آثارهـن مـن القـلوب

ثم يقول والذي عندي في السرقات انـه متى اورد الآخر شيئا من الفاظ الاول في معنى من المعاني ولو لفظة واحدة فان ذلـك من ادل الدليل على سرقته .

اقسام السرقات

وعنده ايضا ان السرقات تتمثل في ثلاثة اقسام نسخا وسلخا ومسخا.

والنسخ في رأيه اخذ اللفظ والمعنى برمتـه من غير زيادة عليـه مأخوذا ذلك من نسخ الكتاب .

واما السلخ فهو اخذ بعض المعنى مأخوذا من سلخ الجلد الذي هو بعض الجسم المسلوخ .

واما المسخ فهو احالة المعنى الى ما دونه مأخوذا من مسخ الادميين الى قردة . ثم قال وكل قسم من هذه الاقسام يتنوع ويتفرع وتخرج به القسمة الى مسالك دقيقة .

ومن المعلوم ان السرقات الشعرية لا يمكن الوقوف عليها الا بحفظ الاشعار الكثيرة التي لا يحصرها عدد . فمن رام الاخذ بنواصيها والاشتمال على قواصيها بان يتصفح الاشعار تصفحا ويقتنع بتأملها ناظرا فانه لا يظفر منها الا بالحواشي والاطراف .

وعلى ذلك فان الناقد الادبي لا يكون ناقدا حاذقا حتى يضم طرائف الادب الى صدره وتكون تلك الطرائف ماثلة في قلبه وفكره وقديما قالوا :

ليس بعلم ما حوى القِمطْر　　　ما العلم الا ما حواه الصدر

ومن المتفق عليه ان من السرقات الشعرية ما هو محمود ، ومنها ما هو مذموم وهي على خمسة عشر ضربا :

١ ـ ان يأخذ الثاني من الاول المعنى واللفظ ويخالفه في لفظة واحدة وهذا الضرب مذموم والمتأخر ملوم كقول الفرزدق :

اتعدل احسابا لئاما حماتها　　　باحسابنا اني الى الله راجع

وكقول جرير :

اتعدل احسابا كراما حماتها　　　باحسابكم اني الى الله راجع

وكقول ابي نواس الحكمي :

دارت على فتية ذل الزمان لهم　　　فما اصابهم الا بما شاؤا

الذي اخذه من معبد في قوله :

لهفي عـلى فتية ذل الزمان لهم　　فما اصابهـم الا بما شاؤا

٢ ـ ان يأخذ المعنى واكثر اللفظ وهذا الضرب ينقسم قسمين. مذموم ومحمود ، فالمحمود كقول ابي تمام :

محاسن اصناف المغنين خمسة　　وماقصبات السبق الا لمعبد

اخذه من بعض المتقدمين يمدح معبدا صاحب الغناء :

اجاد طُويس والشريحي بعده　　وماقصبات السبق الا لمعبد

والمذموم كقول ابي الطيب :

أأحبه وأحب فيـه ملامـة　　ان الملامة فيه من اعدائـه

الذي اخذه من قول ابي الشيص :

أجد الملامة في هواك لذيذة　　حبا لذكرك فليلمني اللوم

وتسمية هذا مبتدعا اولى من تسميته سرقة . وهذان الضـربان يسميان نسخا .

٣ـ أن يأخذ المعنى ويستخرج منه مايشبهه وهذا من ادقها مذهبا واحسنها صورة ، فمن ذلك قول الحماسي :

لقد زادني حبا لنفسـي انني　　بغيض الي الجاهل المتعارف

اخذه المتنبي واستخرج منه معنى شبيها به ، فقال :

واذا اتتك مذمتي من ناقص　　فهي الشهـادة لي باني كامل

٤ـ ان يأخذ المعنى مجردا من اللفظ وهذا لا يكاد يأتي الا قليلا ومنه قول جرير :

ولا يمنعك من ارب لحاهم　　سواء ذو العمامـة والخمـار

اخذه المتنبي فقال :

ومن في كفه منهم قناة كمن في كفه منهم خضاب

٥- ان يأخذ المعنى ويسيرا من اللفظ وذلك من اقبح السرقات واظهرها شناعة على السارق فمن ذلك قول البحتري :

جاد حتى افنى السؤال فلما باد منا السؤال جاد ابتداء

اخذه من قول علي بن جبلة :

اعطيت حتى لم تدع لك سائلا وبدأت اذ قطع العفاة سؤالها

و كذلك قول ابي تمام :

ولم امدحك تفخيما بشعرى ولكني مدحت بك المديحا

اخذه من قول حسان :

ما ان مدحت محمدا بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمحمد

٦- ان يأخذ المعنى فيقلبه ، وذلك محمود . ويخرجه حسنه عن حد السرقة فمما جاء منه قول ابي تمام :

كريم متى امدحه امدحه والورى

معي ، واذا ما لمته لمته وحدي

اخذه من تأخر عنه فقال :

مدحتهم وحدي فلما هجوتهم هجوتهم والناس كلهم معي .

٧- ان يأخذ بعض المعنى وهذا الضرب محمود فمن ذلك قول امية بن ابي الصلت .

عطاؤك زين لامرىء ان حبوته

ببذل وما كل العطاء يزين

وليس بشيء لامرى بذل وجهه

اليك كما بعض السؤال يشين

اخذه ابو تمام فقال :

تدعى عطاياه وفرا وهي ان شهرت

كانت فخارا لمن يعفوه مؤتنفا

ما زلت منتظرا اعجوبة زمنا

حتى رايت سؤالا يجتني شرفا

٨ـ ان يأخذ المعنى فيزيد عليه معنى آخر وهذا الضرب لايكون الا حسنا كقول ابي نواس :

ليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

اخذه من قول جرير :

اذا غضبت عليك بنو تميم رايت الناس كلهم غضابا

وذلك ان جريرا جعل الناس كلهم في تميم وابا نواس جعل العالم كله في واحد وذلك ابلغ .

٩ـ ان يأخذ المعنى فيكسبه عبارة أحسن من الاولى وهذا هو المحمود الذي يخرجه حسنه عن باب السرقة وعليه قول ابي نواس :

يدل على مافي الضمير من الهوى

تقلب عينيه الى شخص من يهوى

اخذه المتنبي فاجاد حيث قال :

واذا خامر الهوى قلب صب فعليه لكل عين دليل

١٠ـ ان يأخذ المعنى ويسبكه سبكا موجزا وذلك من احسن

السرقات فمن ذلك قول بعض المتقدمين :

امـن خوف فقـر تعجلته واخرت انفـاق ما تجمـع
فصرت الفقير وانت الغـني وما كنت تعدو الذي تصنع

اخذه المتنبي ، فقال :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقر فالذي فعل الفقـر

وكذلك قول ابي تمام :

كانت مسائلة الركبان تخبرني
عن احمد بن سعيد أطيب الاثر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت
اذني باحسن مما قد راى بصري

اخذه ابو الطيب فقال :

واستكبر الاخبار قبل لقائه فلما التقينا صغّر الخبرَ الخُبْر

١١ـ ان يكون المعنى عاما فيجعله خاصا او بالعكس وهذا من السرقات التي يسامح فيها صاحبها ومنه قول الاخطل :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

أخذه ابو تمام فقال :

أألوم من بخلت يـداه واغتدى
للبخل تربـا ساء ذاك صنيعا

وكذلك قول ابي تمام :

ولو حاردت[1] شول عذرت لقاحها

ولكن منعت الدّر والضرع حافل

اخذه المتنبي فقال :

وما يؤلم الحرمان من كف حارم

كما يؤلم الحرمان من كف رازق

١٢ ـ ان يزيد المعنى بيانا مع المساواة في اصله .
ومنه قول ابي تمام :

هو الصنع ان يعجل فنفع وان يرث

فللريث في بعض المواطن انفع

اخذه المتنبي فاوضحه بمثال فقال :

ومن الخير بطء سيبك عنى

اسرع السحب في المسير الجهام

١٣ ـ وهو اتحاد الطريق واختلاف المقصد فمن ذلك قول بعضهم :

كأنه غنّى لشمس الضحى فنقّطته طربا بالنجوم

اخذه الشاهين فاحسن غاية الاحسان :

وقائلة والشمس عنى وقد رأت

قروحا على خد يفوق على الورد

اما تنتدى تهدى لحبك عودة

فقلت وهل تغني الرقا من اخ الوجد

---

(١) حاردت الناقة : قل لبنها .

فجاءتـه ولمى والنجوم تمـائم

فادهشها حتى نُثرن على الخـد

وعلماء البيان يسمون هذا الضرب سلخا .

١٤ ـ قلب الصورة الحسنة الى صورة قبيحة وهذا الضرب يسمى مسخا فمما ورد منه قول ديك الجن :

نحن نعزيك ومنك الهدى مُستخرج والصبر مستقبَل

نقول بالعقل وانت الذى نأوي اليـه وبـه نعقل

اذا عفا عنك واردى بنا الدهر فذاك المحسن المجمل

اخذه المتنبي فقال :

ان يكن صبر ذى الرزية فضلا

تكن الافضلَ الاعز الاجـلا

انت يافوق ان تعزّى عن الاحـ

ـباب فوق الذى يعزّيك عقلا

وبالفاظك اهتدى فاذا عـزّ

اك قال الـذى لـه قلت قبـلا

١٥ـ قلب الصورة القبيحة الى صورة حسنة ولا يسمي هـذا الضرب مسخا لانه محمود والمسخ مذموم . قال ابو نواس في ارجوزة يصف فيها اللعب بالكرة والصولجان :

جن على جن وان كانوا بشر كأنما خيطوا عليها بالابر

ثم جاء المتنبي فقال :

فكأنها نتجت قياما تحتهـم وكأنهم ولدوا على صهواتها

الفصل التاسع

المدارس العربية والاسلامية ورجالاتها

في مكة والبصرة والكوفة وبغداد

المدرسة بعامة هي كل محل تناول الانسان فيه غذاءه العقلي والروحي. سواء أكان هذا المحل أعد اعدادا خاصا كمدرسة ام اتخذ في وقت ما ولعامل خاص موضعا للعلم والمعرفة. وبهذا الاعتبار نجد امتنا العربية اهتمت اهتماما كبيرا بمثل هاتيك المحال وجعلتها اداة ثقافية عامة تحتفل بها عند كل مجتمع وفي كل مرتع. تنصب لها الخيام وتهيء لها الحكام وتدعوا اليها اولي اللسن فيأتونها من كل فج عميق. يقصدها الشعراء والخطباء والزعماء فيتناشدون الاشعار ويتبادلون الخطب وتجري بينهم المناظرة والمفاخرة والمنافرة والمناقضة امام اولئك الحكام يقضون بينهم بالعدل وعلى اساس من العلم السائد يوم ذاك بينهم ويصدرون الاحكام على ما هم فيه مختلفون.

والباحث المدقق في نشأة الاسواق العربية وفي الطابع الغالب عليها يجد ويجزم بأن اهم ما كان يدور فيها هو العمل على توحيد لهجات العرب وان تلك الاسواق كانت بمثابة معاهد لغوية وثقافية تصقل السنتهم وتهذب عقولهم وتربي عواطفهم. وهي اسواق كثيرة كانوا يقيمونها في اشهر السنة وينتقلون بها في ارجاء الجزيرة. فكانوا ينزلون دومة الجندل. ثم ينتقلون الى هجر بالبحرين ثم يرتحلون الى عُمان ثم ينزلون بسوق المشقر، ثم سوق صحار، ثم ينزلون بالشجر وهو ساحل بين عمان وعدن ثم ينزلون في عدن ابين ثم حضر موت ثم ينزلون صنعاء.

ولهم اسواق اخرى كسوق ذي المجاز بناحية وادي عرفة وسوق مجنة وسوق حباشة وسوق عكاظ وهي اعظم اسواقهم .

ولقد ذكر الجاحظ في الحيوان سوق الابلة وسوق لقة وسوق الانبار وسوق الحيرة .

وعكاظ واد بين نخلة والطائف فكانت تحضره قبائل العرب كلها لانها في طريقهم الى الحج الاكبر فيجتمعون فيه فيتناشدون الاشعار ويتحاجون في خصوماتهم وكانوا لذلك العهد يتعلقون بالكلم الطيب لا يعدلون بذلك شيئاً لما رُكب في طباعهم من الفخر وحب المحمدة وما انصرفوا اليه من المباهاة بالفصاحة وقوة العارضة وقرب ما بين اللسان والقلب .

وفي هذه السوق كان الشاعر الفحل يلقي بقصيدته والخطيب المصقع بكلمته كما فعل عمرو بن كلثوم بطويلته وقس بن ساعدة الايادي بخطبته. وفيها ضربت للنابغة الذبياني قبة من أدم ليتحاكم اليه الشعراء في ايهم اشعر ، وقد انشده الاعشى والخنساء وحسّان فى قصة مشهورة مدونة فى النماذج النقدية من هذا الكتاب . ان هذه العناية الفائقة في الانشاد والتحكيم تدل دلاله صادقة على ان العرب كانت في حالة من الارهاص الشديد والرغبة الحادة للانتقال من حالتهم القبلية الى وحدة شاملة تجمع قبائلها وتصهر لهجاتها في لهجة واحدة هي لهجة قريش التي نزل بها القرآن الكريم . ولا يخفى ان في هذا التوحيد الاجتماعي واللغوى امرا عظيما وتمهيدا قويا لظهور الدين الاسلامي الهادف الى وحدة عالمية لا سيد فيها ولا مسود الا بمقدار ما في الانسان من علم وفضل وخلق كما عبّر عنه القرآن الكريم (ان اكرمكم عند

الله اتقاكم ان الله عليم خبير) .

ولما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ دار الارقم بن اسد المخزومي في مكة المكرمة معهدا يلقن فيه اصحابه اصول الدعوة ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . فكان من اخص اصحابه في هذه الفترة زوجته السيدة خديجة بنت خويلد وعلي بن ابي طالب وابو بكر الصديق وعبدالله بن عثمان وزيد بن حارثة الكلبي وسعد بن ابي وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله وعثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف وابو عبيدة عامر بن الجراح وبلال الحبشي وعبدالله بن مسعود وعمّار بن ياسر والارقم بن اسد المخزومي ، وهناك رجال آخرون يطول عدّهم واحصاؤهم تخرجوا في مدرسة النبي صلى الله عليه وسلم ، وظل هؤلاء المسلمون يتدارسون القرآن والحديث حتى قوى ايمانهم ورسخت فيهم روح التضحية وتعلموا معاني الشؤون القيادية .

وفي ١٨ حزيران سنة ٦٢٢ ميلادية هاجر الرسول من مكه الى المدينة حتى بلغ قرية قباء بعد عشرة ايام من سفره ثم مكث فيها اربعة ايام أسس بها اول مسجد للاسلام ، ثم خرج يريد المدينة . ولما علم اهلها بقدومه هرعوا لاستقباله رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ينقرون بالدفوف وينشدون نشيدهم التاريخي المشهور :

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع
ايها المبعوث فينا   جئت بالامر المطاع

وبعد ان استقر في دار ابي ايوب الانصاري واستراح المهاجرون

من وعثاء السفر اشترى ارضا وصنع اللبن والآجر ودعا الى بنائها مسجدا ليكون داراً للحكومة ومجتمعا للصحابة ومدرسة للمسلمين. واشترك معه في اقامة بناء المسجد المهاجرون ، والانصار وكان صلى الله عليه وسلم يصنع اللبن ويرفع التراب بيديه الشريفتين . وبعد عدة معارك جرت بينه وبين المشركين حتى تغلب عليهم ، واستولى على بعض الاسرى في بعض المواقع فطلب منهم الفداء وجعل فديتهم تعليم ابناء المسلمين القراءة والكتابة ، وهكذا انتشرت العلم والمعرفة بين سكان المدينة المنورة .

وبذلك اصبحت المدينة المنورة من اعظم مراكز الثقافة العربية الاسلامية منذ الهجرة وكانت مقام كثير من الصحابة الذين تلقوا العلم عن النبي صلى الله عليه وسلم ورووا احاديثه . وقد اشتهرت المدينة بالعلوم الدينية من تفسير للقرآن ومدارسة للحديث واستنباط للاحكام . واشتهر من علمائها زيد بن ثابت وعلي بن ابي طالب وعبدالله بن عمر بن الخطاب من الصحابة ثم سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير بن العوام من التابعين ومن بعدهم الامام مالك بن انس صاحب المذهب المشهور . ولم تقتصر المدينة على الشهرة في المسائل الدينية بل نبغ فيها كثير من رجال التاريخ كمحمد بن اسحاق والواقدي وهما يعدان من اشهر المصادر الاولى ممن تروى عنهم السير والمغازى .

ولما فتح العرب الحيرة سنة ١٤ ﻫ أمر امير المؤمنين عمر بن الخطاب عقبة بن غزوان رضي الله عنهما بتأسيس البصرة فأسسها وصارت حاضرة العراق واستوطنتها قبائل عربية مختلفة الاصول والانساب تشابكت في علاقات متصلة مع سكان البلاد الاصليين واشتهر من علمائها ابو موسى الاشعري وانس بن مالك من الصحابة ثم الحسن البصري وابن سيرين من التابعين .

ويبدو ان الخلافات اللغوية بين لهجات القبائل بعضها مع بعض من جانب وبين لغة القرآن والشعر القديم من جانب آخر دعت المسلمين بادىء ذي بدء الى النظر في علوم اللغة[1] . والتي اولها علم النحو الذي اخذه ابو الاسود الدؤلي عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه حين رأى حاجة الناس اليه وحين سمع قارئا يقرأ « ان الله بريء من المشركين ورسوله » بكسر اللام من رسوله ! وكان من كبار رجال هذه المدرسة .

١ - عيسى بن عمر الثقفي المتوفي سنة ١٤٩ ﻫ والذي هو استاذ الخليل وسيبويه وهو معدود ايضا من مشاهير القراء وينسب اليه كتابان في النحو احدهما الجامع والآخر الاكمال (او المكمل) ويروى المبرد انه رأى بعض ورقات منهما ولم يعرف ابن النديم الا اسميهما . وقيل

(١) الجزء الثاني من كتاب تاريخ الادب العربي (كارل بروكلمان) صفحة ١٢٨ باختصار .

(٢) فهرست ابن النديم ص ٦٠ .

(٣) كتاب بروكلمان نفسه ص ١٢٩ .

ان سيبويه صنف كتابه على اساس كتاب الجامع .

٢ - ابو عمر بن العلاء المازني المولود بمكة المكرمة في حدود سنة ٧٠ هجرية وعاش في البصرة حيث كان فيها من مشاهير العلماء على عهد الفرزدق وكان وثيق الصلة بالحسن البصري .

رحل ابو عمر الى دمشق وافدا على واليها عبدالوهاب بن ابراهيم الامام فتوفى في طريق عودته من هذه الرحلة بالكوفة سنة ١٥٤ هـ وقيل سنة ١٥٩ هـ . وكان ابو عمر بن العلاء يجمع طوال حياته اشعار العرب القدماء ولا سيما اشعار الجاهلية ، كما كان يدأب على شرحها وتدوين الملاحظات اللغوية عليها ، وكان ورعا متعبدا لم يكن يقرأ بيتا من الشعر قط في رمضان ولم يشتغل الا بالقرآن وهو احد القراء السبعة المشهورين[1] .

٣ - يونس بن حبيب هو ابو عبدالرحمن كان تلميذ ابي عمر بن العلاء ولد في جبّل وهي قرية على دجلة بين بغداد وواسط . واشتغل يونس مثل استاذه بجمع النوادر واللغة والامثال وقيل انه صنف كتاب القياس في النحو ولد سنة اربع وتسعين وتوفى عن ثمان وثمانين سنة وذلك سنة ١٨٢ هـ[2] .

وكانت حلقته بالبصرة يرتادها طلاب العلم واهل الادب وفصحاء الاعراب ووفود البادية . ولم تكن له همة الا طلب العلم ومحادثة الرجال . له كتاب معاني القرآن و كتاب اللغات وكتاب النوادر

---

(١) الجزء الثاني من كتاب بروكلمان . ص ١٢٩ .
(٢) الجزء الثاني من كتاب بروكلمان . ص ١٣٠ .
(٣) فهرست ابن النديم ص ٦٣ .

الكبير و كتاب الامثال و كتاب النوادر الصغير[٢] .

٤ - الخليل بن احمد الفراهيدي هو ابو عبدالرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي من قبيلة أزد شنؤة تلميذ ابي عمرو ابن العلاء وهو اول من سمي باسم احمد في الاسلام . كان من الزهاد والمنقطعين الى العلم وكان شاعرا مقلا ولد سنة ١٠١ وتوفى بالبصرة سنة ١٧٥ هـ وعمره ٧٤ سنة .

والخليل اول من نهج مسالك جديدة في علم العربية والمؤسس الحقيق لعلم النحو الذي وضعه تلميذه سيبويه في كتابه المشهور بعد ان تلقاه عنه وتعلمه عليه ولا خلاف بين العلماء على ان الخليل مبتكر علم العروض ومحصن اشعار العرب كما انـه اول من شرع في جمع كنز اللغة العربية كلها في كتاب كبير ككتاب العين[١] .

و كان الخليل غاية في تصحيح القيـاس وتعليل النحو واستنباط مسائله و كان اكثر كتاب سيبويه منقولا عنه او مستمدا منه و كان على معرفة بالموسيقى حيث صنع اول كتاب فيها على غير علم بلغة اجنبية ولا علم بآلة موسيقية .

رووا ان ابنه دخل عليه مرة وهو مستغرق في تفكيره يوقع باصابعه ويحركها فظنه قد جُنَّ ، فقال له الخليل :

لو كنت تعلم ما اقول عذرتني

أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا

لكن جهلت مقالـتي فعذلتـني

وعلمت انك جاهـل فعذرتـكا

(١) الجزء الثاني من كتاب بروكلمان ص ١٣١ وفهرست ابن النديم ص ٦٤ .

وكان الخليل زاهدا لا يبالي بالدنيا . وذكروا ان سليمان بن علي وجه اليه من الاهواز رسولاً يستدعيه لتأديب ولده فأخرج الخليل الى رسول سليمان خبزا يابسا وقال له كل فما عندي غيره . وما دمت اجده فلا حاجة لي الى سليمان . فقال الرسول : فما ابلّغه ؟ فقال الخليل :

ابلــغ سليمان اني عنه في سعة
وفي غنى غير اني لست ذا مال
شحاً بنفسي اني لا ارى احدا
يموت هزلا ولا يبقى على حال
والفقر في النفس لافي المال تعرفه
ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال
فالرزق عن قدر لا العجز ينقصه
ولا يزيدك فيه حــول محتال

٥ ـ سيبويه هو ابو بشر عمــرو بن عثمان بن قنبر ولد في البيضاء قرب شيراز فقدم البصرة وهو غلام . ولما اكمل دراسته واتم كتابه بالبصرة وفد على بغــداد يطلب منزلتــه في دار الخلافــة . فناظره الكسائي مؤدب الامين بن هارون الرشيد في مسألة الزنبور وغلبه الكسائي .

وتفصيل المسألة ان سيبويه لما قدم بغداد عــزم يحيى بن خالد البرمكي على الجمع بينه وبين الكسائي وجعل لاجتماعهما يوما . فلمــا حضرا قال له الكسائي تسألني أم اسألك . فقال لــه سيبويه : سل انت ، فسأله عن قول العرب قدكنت اظن ان العقرب اشد لسعة

من الزنبور فاذا هو هي وقالوا ايضا فاذا هو اياها فانكر سيبويه على الكسائي قول العرب فاذا هو اياها ولم يجوز النصب وسأله عن امثال ذلك مثل خرجت فاذا عبدالله القائمُ أو القائمَ فقال لـه سيبويه كل ذلك بالرفع ، فقال الكسائي العرب ترفع كل ذلك وتنصبه فقال يحيى قد اختلفتما وانتما رئيسا بلديكما فمن يحكم بينكما . فقال الكسائي: هذه العرب ببابك فيحضرون ويسألون .فقال يحيى وجعفر انصفت فاحضروا ووافقوا الكسائي فاستكان سيبويه فأمر له يحيى بعشرة الاف درهم فخرج الى فارس فاقام بها ولم يعد الى البصرة ومات عن ٣٣ سنة وذلك في سنة ١٧٧ هـ.

* * *

٦ ـ الاصمعى هو ابو سعيد عبدالملك بن قُريب وأصمع جده الخامس وينتهي نسبه الى مضر بن نزار بن معد . ولد سنة ١٢٣ هـ في البصرة في بيت عربي عريق في الكتابة وأخذ العربية والحديث والقراءة من أئمتها ونقل عن فصحاء الاعراب الذين كانوا يفدون الى البصرة . قدم بغداد في خلافة هارون الرشيد ثم عاد الى البصرة . وكان يرحل الى البادية يساكن اهلها ويشافههم ويأخذ عنهم تعليم نقد الشعر ومعانيه ، وكان اماما في اللغة والغرائب والملح كثير الحفظ قوى الذاكرة . وقد الف نحو اربعين كتابا اغلبها في اللغة وعَمّر حتى ادرك زمن المأمون ، واراد ان يستقدمه اليه غير ان الاصمعي اعتذر محتجا بكبر سنه وضعف قوته فكان المأمون يجمع له المشكل من المسائل ويرسلها اليه ليجيب عنها . وله تسند رواية الاصمعيات التي بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين قصيدة موزعة

على (٧١) شاعرا منهم اربعون شاعراً جاهلياً على رأسهم امرؤ القيس والحارث بن عُباد ودريد بن الصِمّة وابو داود الايادي وذو الاصبع العدواني وسلامة بن جندل وطرفة بن العبد وعروة بن الورد وقيس بن الخطيم . واعاد نشرها الاستاذان عبدالسلام هارون واحمد شاكر عن نسخة الشنقيطي .

ومما يحكى عنه انه اجتمع مع ابي عبيدة عند الفضل بن الربيع وقد الف كل منهما كتابا في الخيل فسئل الاصمعي عن كتابه فقال هو مجلد واحد وسئل ابو عبيدة عن كتابه فقال خمسون مجلدا فقيل له قم الى هذا الفرس وامسك كل عضو وسمه فقال لست بيطارا وانما اخذت هذا عن العرب فقيل للاصمعي قم أنت وافعل فقام وجعل يضع يده على كل عضو ويسميه وينشد ماقالته العرب فيه . فلما فرغ اعطي الفرس. ويقال انه كان اذا اراد اذى ابي عبيدة اتى اليه راكبا الفرس وتوفي في البصرة سنة ٢١٦هـ .

محمد بن سلام الجمحي البصري [1]

وكتابه طبقات فحول الشعراء

هو ابو عبدالله محمد بن سلام الجمحي البصري كان من اعيان اهل الادب ولد بالبصرة سنة ١٥٠ وتوفي ببغداد سنة ٢٣٢هـ .

اخذ عن حماد بن سلمة ومبارك بن فضالة وجماعة ممن لهم علم وادب.

وروى عنه الامام احمد بن حنبل وابنه عبدالله وابو العباس ثعلب واحمد بن علي الآبّار .

(١) ترجم له في كتاب بغية الوعاة .

قال ابو خليفة ابيضت لحية محمد بن سلام و ابيض رأسه وله سبع وعشرون سنة . وقال محمد بن احمد بن شبّة حدثني جدي قال : كان محمد بن سلام له علم بالشعر والاخبار وهما من جملة علوم الادب .

وقال الحسين بن فهم قدم علينا محمد بن سلام سنة اثنتين وعشرين ومائتين فاعتلّ علة شديدة فما تخلف عنه احد . واهدى له الاجلاء اطباءهم فكان ابن ماسويه من جملة من أُهديَ اليه . فلما جسه ونظر اليه قال لا ارى بك من العلة ما ارى بك من الجزع . فقال : والله ماذاك على الدنيا مع اثنتين وسبعين سنة[1] ولكن الانسان في غفلة حتى يوقظ بعلة . فقال ابن ماسويه : لا تجزع فقد رأيت في عرقك من الحرارة الغريزية ما ان سلمت من العوارض[2] بلّغك عشر سنين . قال ابن فهم: فوافق كلامه قدراً . فعاش محمد بن سلام بعد ذلك عشر سنين . وتوفى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين . وكان ذلك في السنة التي مات فيها الواثق وبويع المتوكل بن المعتصم . وقال موسى بن هارون توفى سنة احدى وثلاثين ومائتين[4] .

مؤلفاته[5]

الف ابن سلام كتابا في طبقات الشعراء الجاهلين وطبقات الشعراء الاسلاميين وهو اقدم كتاب من كتب الطبقات وظل مرجع طلاب

(١) وفي طبقات الادباء اثنتين وثمانين .
(٢) العوارض جمع عارضة وهي التي تعرض للانسان في ايام حياته .
(٣) قدراً اي قضاء وفق ما في علم الله القديم .
(٤) معجم الادباء ج ١٨ ص ٢٠٤ .
(٥) تاريخ اداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ٢ ص ١٠٨ .

الشعر الى عهد غير بعيد . وقد ذكره صاحب الفهرست فجعله كتابين احدهما في الشعراء الجاهليين والآخر في الاسلاميين . ثم ذكر له كتاباً في بيوتات العرب . وآخر في ملح الاشعار . وتجد اخباره في الفهرست ص ١١٣ .

اما كتابه طبقات الشعراء فقد اقتصره رحمه الله على الشعراء المشهورين المعروفين من شعراء قبائل العرب .. لانه يرى ان من الصعوبة بمكان ان يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب . لذلك اقتصر كلامه على ما لا يجهله عالم ولا يستغني عن علمه ناظر في امر العرب . ويرى ابن سلام : ان هناك شعراً مفتعلاً لا خير فيه ، ولا حجة في عربيته فضلاً عن عدم الاستفادة منه .. وسبب ذلك ان رواته لم يأخذوه عن اهل البادية ولم يعرضوه على العلماء . وما كانوا يروونه عن صحفي[1] .

وكان قد تحدث في كتابه الطبقات ان للشعر صناعة وثقافة يعرفها اهل العلم كسائر اصناف العلوم والصناعات .

منها ما تثقفه العين ، ومنها ماتثقفه الاذن ، ومنها ماتثقفه اليد ، ومنها مايثقفه اللسان[2] .. من ذلك اللؤلؤ والياقوت لايعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره[3] .. ومن ذلك الجهبذة[4] بالدينار

(١) الصحفي الذي يأخذ عن صحيفة . ولم يعرضه على العلماء اي لم يتلق عنه بالرواية .

(٢) الصحفي الذي يأخذ عن صحيفة . ولم يعرضوه على العلماء . لم يتلق عنه بالرواية .

(٣) الثقافة الحذق والاتقان وضبط الاصول وسرعة الفهم للجيد والردىء .

(٤) من البصر وهو ادراك كنه الشي .

(٥) الجهبذة نقد الزائف من الدراهم والدنانير .

والدرهم لا تعرف جودتها بلون ولا مس ولا طراز[1] ولا وسم[2] ولا صفة ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها وزائفها[3] وستوقها[4] ومفرغها[5] .. ومنه البصر بغريب النخل والبصر بانواع المتاع وضروبه واختلاف بلاده مع تشابه لونه ومسه وذرعه حتى يضاف كل صنف الى بلده الذي خرج منه وكذلك البصر بالرقيق فتوصف الجارية فيقال ناصعة اللون جيدة الشطب نقية الثغر حسنة العين والانف جيدة النهود ظريفة اللسان واردة[6] الشعر فتكون في هذه الصفة بمائة دينار وتكون الاخرى بالف دينار واكثر . الى ان يقول :

ويقال للرجل والمرأة في القراءة والغناء : انه لندى الصوت والحلق طويل النفس مصيب اللحن ويوصف الاخر بهذه الصفة وبينهما بون بعيد .

يعرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع له بلا صفة ينتهي اليها ولا علم يوقف عليه وان كثرة المدارسة لتعدى[7] على العلم به فكذلك الشعر يعرفه اهل العلم .

ثم يتحدث ابن سلام في كتابه هذا عمن افسدوا الشعر وهجنوه

---

(١) الطراز صينة الدينار والدرهم .

(٢) الوسم ما يسك عليه من صورة او نقش او كتابة .

(٣) البهرج الردىء وكذلك الزائف .

(٤) الستوف اذا كان الشيء من ثلاث طبقات .

(٥) المفرغ المصبوب في قالب .

(٦) واردة الشعر يقال شعر مسترسل حسن النبت طويل يرد كفل المرأة .

(٧) اعداه على الشيء واداه قواه واعانه عليه .

مستدلا بقول ابي عمرو بن العلاء. (ما لسان حجر واقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا فكيف بها على عهد عاد وثمود مع تداعيه ووهيه فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن اسحاق ومثل ما رواه الصحفيون ما كانت اليه حاجة ولا فيه دليل على علم[1].

ويرى ان اول من استن العربية وفتح بابها وانهج سبيلها ووضع قياسها ابو الاسود الدولي على اثر سماعه اللحن من قبل بعض علية القوم. فيذكر ابياتا جاءت على خلاف ما تعارف عليه الناس من قواعد النحو كبيت الفرزدق.

(وعض زمان يا ابن مروان لم يدع
من المال الا مسحتا او مجرف)

فالافصح في نظر النقاد نصب مجرف لا رفعه. اذ نقده ابن ابي اسحاق فقال للفرزدق (بم رفعت مجرف فقال بما يسوؤك وينوؤك. علينا ان نقول وعليكم ان تتأولوا).

ثم يرجع الى ما هو بسبيله من الحديث عن شعراء الجاهلية والاسلام والمخضرمين فينزلهم منازلهم ويحتج لكل شاعر بما وجد له من حجة، وما قال فيه العلماء. فيقتصر على ذكر اربعين شاعرا موزعين على عشر طبقات. ثم يقول: كان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون واليه يصيرون وكان علمَ قوم لم يكن لهم علم اصح منه. حتى جاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت[2] عن الشعر وروايته. فلما كثر

---

(١) الكتاب نفسه ص ١١.

(٢) لها عن الشيء يلهو غفل عنه ونسي ذكره.

الاسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العـرب بالامصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا[1] الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب والفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا اقل ذلك وذهب عليهم منه كثير .

ويقول كان من الشعراء من يتأله[2] في الجاهليـة ويتعفف في شعره ولا يستبهر[3] بالفواحش ولا يتهكم في الهجاء . . . . ومنهم من كان يتعهر[4] ولا يبقى على نفسه ولا يتستر[5] كامرىء القيس والاعشى والفرزدق الذي هو اقول اهل الاسلام في هذا الفن .

ويستشد عليه بقوله :

هما دلتـاني من ثمـانين قامـة
كما انقض بازٌ اقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاي فى الارض نادتا
احيا يُرَجى ام قتيلا نحـا ذره
فقلت ارفعوا الاسباب لا يفطنوا بنا
ووليت فى اعجـاز ليـل اباذره
واصبحت فىالقوم الجلوس واصبحت
مغلقـةً دوني عليهـا دساكره[6]

(١) يؤولوا يرجعوا الى سجل .
(٢) يتأله يتنسك ويتعبد.
(٣) ولا يستبهر لا يتسجم ولا يقذف احدا بريب .
(٤) يتعهر يأتي بالمنكر .
(٥) لا يبقى على نفسه ولا يتستر بعرض نفسه للافات والظنون ولا يشفق عليها .
(٦) جمع دسكرة بناء كالقصر حوله منازل للخدم والحشم .

قالها وهو بالمدينة فانكرت ذلك عليه قريش وازعجه مروان بن الحكم وهو وال على المدينة فأجله ثلاثا .

وبعد ان يذكر ابن سلام اشعارا كثيرة من هذا النمط يقول :

فلما راجعت العرب رواية الشعر وذِكرَ ايامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعراء هم ومـا ذهب من ذِكر وقائعهم وقالوا شعرا على السن اولئك الشعراء . ثم زاد الرواة على ذلك ايضا ولكن تلك الزيادة لاتشكل على اهل العلم . ويذكر امثلة على ذلك الافتعال الذي افتعله ابن داود بن متمم بن نويره وحماد الراوية وغيرهم .

ثم يأخذ بتقسيم الشعراء الى طبقات مدعما رأيه بمـا قاله العلماء عنهم فيجعل فى الطبقة الاولى من فحول شعراء الجاهلية امرأ القيس بن حُجر الكندي ونابغـة بني ذبيان وزهير بن ابي سلمى والاعشى ميمون بن قيس ، مبينا اسباب تقديم هذه الطبقة على غيرها ، واسباب تقديم بعض افرادها على بعض .

اما الطبقة الثانية فيذكر الكتاب من افراد هذه الطبقة كعب بن زهير وكيف جاء متنكرا عائذاً برسول الله صلى الله عليه وسلم من غضب الانصار عليه . ولما أمنه الرسول قام فانشد مدحته التي يقول فيها .

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول[1]

متيّم إثرها لم يُفدَ مكبول

ثم يذكر الحطيئة ومتانة شعره وشرود قوافيه والتماسه كعبَ

---

(١) المتبول ـ الذي غلبه الحب حتى هيمه واسقمه .

بن زهير ان يثني عليه في شعره حتى ترتفـع منزلته بين الناس لان الناس اكثر رواية لاشعار ال زهير. فيذكره كعب وينصفه بابيات مدونة فى الكتاب نفسه. ثم يسترسل فى امر الحطيئة وما جرى له مع الزبرقان بن بدر.

الطبقة الثالثة

فمن الطبقة الثالثة نابغةبني جَعده حسانُ بنُ قيس ، وابوذؤيب الهذلي وهو خويلد بن خالد ، والشماخ بن خرار ولبيد بن ربيعة.

ثم يتكلم عنهم واحدا واحدا فيذكر مالهم وما عليهم فيقول عن النابغة الجعدي كان قديمـا شاعرا مفلقاً طويل البقا. فى الجاهليـة والاسلام وكان اكبر من النابغة الذبياني ويدل على ذلك قوله.

فمن يك سائلا عني فـاني   من الفتيان ايام الخنان[1]
أتت مئةٌ لعامٍ وُلِدت فيه   وعشرُ بعد ذاك وحجتان
وقدابقت خطوب الدهرمنى   كما تُبقى من السيف اليماني
تفلل وهو مأثور جـراز   اذا اجتمعت بقائمـه يدان

ويقول: وكان الجعدي مختلف الشعر مغلبا. فقال الفرزدق؟: مثله مثل صاحب الخلقان[2] يرى عنده ثوب عصب[3] وثوب خـز[4] والى جنبه سمل كساء[5]. وكان الاصمعى يمدحه بهذا وينسبه الى

(١) الخنان وقعة من وقائع العرب.
(٢) صاحب الخلقان هو الذي يبيع قديم الثياب.
(٣) العصب من اجود برود اليمن لان غزلها كان يجمع.
(٤) الخز الحرير.
(٥) السمل الخلق من الثياب.

قلة التكلف فيقول عنده خمار بواف[1] ومطرف بالاف .

واما رأيه فى ابي ذؤيب الهذلي فانه يرى فيه شاعرا فحلا لا غميزه[2] فيه ولا وهن . قال ابو عمر وبن العلاء : سئل حسان من اشعر الناس ؟ قال حيا او رجلا قال حيا قال اشعر الناس حيا هذيل واشعر هذيل غير مدافع ابو ذؤيب .

ولما تكلم عن الشماخ قال فيه : كان الشماخ شديد متون[3] الشعر اشد اسر[4] كلام من لبيد وفيه كزازه[5] ولبيد اسهل منه منطقا .

ثم يذكر اخا للشماخ اسمه جزء كان قدرثي عمر بن الخطاب بقوله:

جزى الله خيرا من امير وباركت
يد الله في ذاك الاديم الممزق
فمن يسع او يركب جناحي نعامة
ليدرك ما حاولت بالامر يسبق
قضيت امورا ثم غادرت بعدها
بوائق في اكمامها لم تفتق
وما كنت اخشى ان تكون وفاته
بكفى سبنتى ازرق العين مطرق

(١) الواف درهم وثلث الدرهم .
(٢) لا غميزة لا عيب فيه .
(٣) متون الشعر عباراته وصياغته .
(٤) اسر الكلام شدته .
(٥) الكزازة اليبس والتقبض .

وبعد هذا الحديث ينتقل الى ذكر لبيد بن ربيعة فيقول عنه انه كان ابو عقيل فارسا شاعرا شجاعا وكان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام وكان مسلما رجل صدق. ثم قال وكتب عمر الى عامله ان سل لبيدا ما احدث من الشعر في الاسلام فقال: قد ابدلني الله بالشعر سورة البقرة وال عمران فزاد عمر في عطائه فبلغ به الفين. وعمّر لبيد عمرا طويلا وكان في الجاهلية خير شاعر لقومه يمدحهم ويرثيهم ويعدد ايامهم ووقائعهم وفرسانهم وكان يطعم الطعام ما هبت الصبا. وكان المغيرة بن شعبة اذا هبت الصبا قال :

اعينوا ابا عقيل على مرؤته.

وعلى هذا النمط من البحث جرى ابن سلام في كتابه الذي نحن بصدده فيأخذ بالحديث عن الطبقة الرابعة والخامسة حتى يأتي الى الطبقة العاشرة. وبعد ذلك يعدد شعراء المراثي وطبقة شعراء القرى العربية كشعراء المدينة ومكة والطائف والبحرين وشعراء يهود ثم يتحدث عن طبقات فحول الاسلام مثل جرير والفرزدق والاخطل والراعي الذين يؤلفون الطبقة الاولى والطبقة الثانية مثل البعيث المجاشعي والقطامي وكُثيّر وذى الرمة حتى يستوفيهم في عشر طبقات ايضا. وفي الطبقة العاشرة من فحول شعراء الاسلام يختم الكتاب.

فظهر مما تقدم ان مجمل خصائص بن سلام في كتابه هذا.

١ ـ ان يكون النقد منصبا على تحري الجودة، والجودة عنده ان يكون الشعر من حيث النسج والتصوير قائماً على قواعد من العلم يقرها ذوو الاختصاص من اصحاب النحو والبلاغة والعروض،

وصادراً عن مدارسة واسعة ، لان المدارسة تعدى على العلم وتعين الشاعر على الاجادة وتهدي الى الصواب حتى لايأتي شعره على خلاف ما تعارف عليه الناس من قواعد العربية ولا يقع في الخطـأ كما وقع الفرزدق في شعره الذي ذكرناه آنفاً :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع
من المـال الا مسحتاً او مجلـف

برفع مجلف . والصحيح النصب على مسحتاً . ثم ثناؤه على خلاد بن يزيد الباهلي لانه كان حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله . ثم روايته لمقالة خلف ورده على من قال له اذا سمعت انا بالشعر واستحسنته فما ابالي ما قلت فيه انت واصحابك . فقال لـه خلف اذا اخذت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف انه ردىء . هل ينفعك استحسانك .

٢ ـ للاسبقية في الزمن عند ابن سلام فضل في النقد الادبي . ولعل السبب في ذلك ان السابق في نظره مبتكر واللاحق يظن فيه معنى التقليد. كما ان لكثرة شعر الشاعر وطول نفسه في نسج الشعر مما يقدمه على غيره ولذلك قدم امـرأ القيس والنابغة وزهير والاعشي على غيرهم من الشعراء وهكذا صنع في باقي الطبقات من الشعراء .

ودليل آخر على فضل الاسبقية عند ابن سلام قبوله لاحتجاج بعضهم في تقديم امريء القيس. فقال : ليس تقديم امرىء القيس على غيره لانه قال ما لم يقولوا ولكنه سبق العرب الى اشياء ابتدعهـا فاستحسنتها العرب واتبعه فيها الشعراء منها استيقافه صحبه والبكاء على الديار ورقـة النسيب وقرب المـأخذ وتشبيهه النساء بالظباء والخيل بالعقبان .

٣ ـ استحسانه لبعض المفاهيم الفنية واهتمامه باقوال بعض نقدة الكلام ، فانه استشهد بقول عمر بن الخطاب حين قال لابن عباس : انشدني لاشعر شعرائكم قلت من هو يا امير المؤمنين قال : زهير ، فقد كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتتبع حوشيه ولا يمدح الرجل الا بما فيه .

وكذلك نقله لقول اهل النظر في زهير فقد قال : قالوا عنه : كان زهير احكمهم شعراً وابعدهم من سخف واجمعهم لكثير من المعنى وقليل من المنطق .

ظهر لنا مما تقدم ان ابن سلام كان له نظر في بعض النواحي الفنية وان لم يكشف عنها بصريح العبارة . ولو كشف عنها وشرحها لآتانا بشعر كثير . ولعل طبيعة العصر الذي عاشه ابن سلام لم تسمح باكثر مما جاء به في كتابه الطبقات .

ابن قتيبة وكتابه الشعر والشعراء

هو ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكوفي في مولده وانما سمي الدينوري لانه كان قاضي الدينور . كان عالما باللغة والنحو وغريب القرآن ومعاني الشعر والفقه كثير التصنيف والتأليف . ولي القضاء بدينور في المدائن ثم انتقل الى بغداد فظل يزاول التدريس والتعليم بها ولد سنة ٢١٣ وتوفى في اول رجب سنة ٢٧٦ ﻫ .

وكان غرض ابن قتيبة من اكثر مصنفاته ان يقدم الى الطبقة التي عظمت مكانتها واتسع نفوذها (وهي طبقة الكتاب واصحاب الدواوين الذين كانوا طليعة طبقة المنشئين) ما يسد حاجتها من

وسائل الثقافة الادبية والتاريخية . ولكنه تناول ايضا في اثنين من مصنفاته مسائل الخلاف الديني التي كانت سائدة في عصره فنصب من نفسه مدافعا عن القرآن والحديث تجاه أهل الشك والريب من المتفلسفين .

بقي من مصنفاته بعض الكتب نذكر اهمها مما له علاقة بابحاثنا النقدية .

١ – ادب الكاتب صنفه قبل كتاب عيون الاخبار .

٢ – عيون الاخبار ويشتمل على عشرة كتب في السلطان والحرب والشرف والاخلاق والعلم والفصاحة والاخوان والرجاء والطعام والنساء .

٣ – معاني الشعر وهو يشتمل على اثنى عشر كتاباً .

٤ – كتاب المعارف ويتحدث عن مبدأ الخلق وقصة الطوفان ثم يلي ذلك تاريخ الانبياء والرسل واخبار العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ثم انساب العرب بتوسع ثم سيرة الرسول وصحابته وسير الخلفاء من بعده .

٥ – كتاب الاشربة واختلاف الناس فيها .

٦ – كتاب الشعر والشعراء او طبقات الشعراء او ديوان الشعراء . والظاهر ان كل هذه العناوين لكتاب واحد اخبر فيه عن الشعراء وازمانهم واقدارهم وآبائهم وقبائلهم وعما يستحسن من شعرهم ، وما اخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في الفاظهم او معانيهم وماسبق اليه المتقدمون فاخذه عنهم المتأخرون .

ثم اخبر فيه عن اقسام الشعر وطبقات الشعراء. و كشف عن هدفه في تأليف هذا الكتاب فقال :

كان اكثر قصدي ان اترجم وا كتب عن المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل اهل الادب والذين يقع الاحتجاج باشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولابن قتيبة رأي حصيف في المتقدمين والمحدثين من الشعراء وذوي السن و كان يعيب العلماء الذين يستجيدون الشعر السخيف لتقدم قائله ويرذلون الشعر الرصين لتأخر قائله فيقول :

لم يقصر الله العلم و الشعر و البلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر فقد كان جرير والفرزدق والاخطل وامثالهم يعدون محدثين ، و كان ابو عمرو بن العلاء يقول لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى هممت بروايته . ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم . و كذلك يكون مَن بعدهم لمن بَعدنا كالخريمي والعتابي والحسن بن هاني واشباههم فكل من اتى بحسن ذكرنا له واثنينا به عليه ولم يضعه عندنا تأخر قائله او فاعله او حداثة سنه . كما ان الردىء اذا ورد علينا للمتقدم او الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه .

وهذا مبدأ سليم للنقاد الذين يتحرون الحقائق الادبية ويحكمون بحسب ما يقتضيه العدل والانصاف لان الحق احق ان يتبع واليق بمن ينصبون انفسهم حكاما بين الناس لان الظلم بغيض ، سواء اكان

الظلم واقعا على بنات افكار الناس ام في اغتصاب ما يملكون من مال ومتاع .

ثم ينتقل ابن قتيبة الى اقسام الشعر فيقول :

لقد تدبرت الشعر فوجدته اربعة اضرب .

١ - ضرب منه حسُن لفظه وجاد معناه كقول الحزين الكناني في بعض بني امية [1] :

في كفه خيزران ريحه عبق
من كف اروع في عرنينه شمم
يُغضِي حياء ويُغضَى من مهابته
فما يكلم الا حين يبتسم

لم يُقل في الهيبة شيء احسن منه . وينسب هذا الشعر للفرزدق في مدح زين العابدين وذلك ما رده ابو الفرج في الاغاني .

وكقول اوس بن حجر :

ايتها النفس اجملي جزعا   ان الذي تحذرين قد وقعا

لم يبتدىء احد مرثية باحسن من هذا .

وكقول ابي ذؤيب :

والنفس راغبة اذا رغبتها   واذا تُرد الى قليل تقنع

قال الاصمعي هذا ابدع بيت قالته العرب .

وكقول حميد بن ثور :

ارى بصرى قد رابني بعد صحة
وحسبك داء ان تصح وتسلما

ولم يُقل في الكبر شيء احسن منه .

وكقول النابغة :

كليني لهم يا اميمة ناصب

وليل اقاسيه بطيء الكواكب

لم يبتدىء احد من المتقدمين باحسن منه ولا اغرب .

٢ ـ وضرب منه حسن لفظه وحلا فاذا انت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى كقول القائل :

ولما قضينا من منى كل حاجة

ومسح بالاركان من هو ماسح

وشُدّت على حدب المهارى رحالنا

ولا ينظر الغادي الذي هو رائح

اخذنا باطراف الاحاديث بيننا

وسالت باعناق المطى الاباطح

هذه الالفاظ كما ترى احسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع ، وان نظرت الى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا ايام منى واستلمنا الاركان وعالينا ابلنا الانضاء ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ابتدانا في الحديث وسارت المطي في الابطح . وهذا الصنف في الشعر كثير . ونحوه قول المعلوط :

ان الذين غدوا بلبك غادروا

وشلا بعينك ما يزال معينا

غيضن من عبراتهن وقلن لي

ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا

ونحو قول جرير :

يا اخت ناجية السلام عليكم
قبل الرحيل وقبل لوم العذل
لو كنتُ اعلم ان اخر عهدكم
يوم الرحيل فعلت ما لم افعل

وقوله :

بان الخليط ولو طوعت ما بانا
وقطعوا من حبال الوصل اقرانا
ان العيون التي في طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن اضعف خلق الله انسانا

وانا لنرى ان ابن قتيبة غير موفق في نقده لابيات جرير على الاقل فان فيها من المعاني والصور ما لم يوفق الى مثلها غيره .

٣ ـ وضرب منه جاد معناه وقصرت الفاظه عنه كقول لبيد بن ربيعة :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

هذا وان كان جيد المعنى والسبك فانه قليل الماء والرونق .

وكقول النابغة للنعمان :

خطا طيف ُحجن في حبال متينة
ُتمد بها ايد اليك نوازع

قال ابو محمد رأيت علماءنا يستجيدون معناه ولست ارى الفاظه جيادا ولا مبينة لمعناه لانه اراد انت في قدرتك عليّ كخطاطيف ُعقف يمد بها وانا كدلو تمد بتلك الخطاطيف وعلى اني ايضا لست ارى المعنى جيدا.

وكقول الفرزدق:

والشيب ينهض في الشباب كأنه
ليل يصيح بجانبيه نهار

٤ - وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه كقول الاعشى في امرأة:

وفوها كأقاحيّ غذاه دائم الهطل
كما شِيب براح با رد من عسل النحل

وكقول الخليل بن احمد العروض:

ان الخليط تصدع فطر بدائك أوقع
لولا جَوار حسان حور المدامع اربع
ام البنين واسما ء والرباب وبوزع
لقلت للراحل ارحل اذا بدا لك اودع

وهذا الشعر بيّن المتكلف رديء الصنعة. وكذلك اشعار العلماء ليس فيها شيء عن اسماح وسهولة كشعر الاصمعي وشعر بن المقفع وشعر الخليل خلا خلف الاحمر فانه كان اجودهم طبعا واكثرهم شعراً. ولو لم يكن في هذا الشعر الا ام البنين وبوزع لكفاء رداءة.

فقد كان جرير انشد بعض خلفاء بني امية قصيدته التي اولها :

بان الخليط برامتين فودعوا او كلما جدوا البين تجزع
كيف العزاء ولم اجد مذبنتم قلبا يقر ولا شرابا ينقع

والخليفة يتحفز ويزحف استحسانا للقصيدة حتى اذا بلغ الى قوله:

وتقول بوزع قد دببت على العصا
هلا هزئتِ بغيرنا يا بوزع

قال له افسدت شعرك بهذا الاسم .

وقال ابن قتيبة وقد يقدح في الحسن قبحُ اسمه كما ينفع القبيحَ حسنُ اسمه، ويستشهد بأن رجلين ترافعا في خصومة الى شُريح القاضي. فقال احدهما ادع ابا الكويفر ليشهد فتقدم شيخ فردّه شريح ولم يسأل عنه وقال له لو كنت عدلا لم ترض بهذه الكنية . وسأل عمر رجلا اراد ان يستعين به على امر فسأله عن اسمه واسم ابيه فقال ظالم بن سراق فقال تظلم انت ويسرق ابوك . ولم يستعن به . ومن هذا الضرب قول الاعشى :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعني
شاو مِشَلٌّ شلول شلشل شولِ

وهذه الالفاظ الاربعة في معنى واحد وكان قد يستغني باحدها.

و كقول ابي الاسد وهو من المتأخرين :

ولائمة لامتك يا فيض في الندى
فقلت لها لن يقدح اللوم في البحر

ارادت لتثني الفيض عن عادة الندى
ومن ذا الذي يثني السحاب عن القطر

مواقع جود الفيض في كل بلدة
مواقع ماء المزن في البلد القفر

كأن وفود الفيض حين تحملوا
الى الفيض وافوا عنده ليلة القدر

وقال ومن هذا الضرب ايضا قول المرقش :

هل بالديار تجيب صمم   لو ان حيا ناطقا كلم
يأبى الشباب الاقورين ولا   تغبط اخاك ان يقال حكم[1]

ثم يقول ابن قتيبة . والعجب عندي من الاصمعي اذ ادخله في متخيره وهو شعر ليس بصحيح الوزن ولا حسن الروى ولا متخير اللفظ ولا لطيف المعنى ولا اعلم شيئا يستحسن منه ألا قوله :

النشر مسك والوجوه دنا   نير واطراف الاكف عنم

* * *

ثم ينتقل ابن قتيبة للبحث في عيوب الشعر فيبدأ في بحث الاقواء والاكفاء ويرى ان الاقواء هو اختلاف الاعراب في القوافي وذلك بأن تكون قافية مرفوعة واخرى مخفوضة كقول النابغة :

قالت بنو عامر خالوا بني اسد   يابؤس للجهل ضرارا لاقوام

وقال فيها :

تبدو كواكبه والشمس طالعة   لا النور نور ولا الاظلام اظلام

---

(١) الاقورين الدواهي . حكم اصبح محكما في الامور وذلك في الشيخوخة والهرم.

وهكذا يسترسل ابن قتيبة فى ايراد الامثلة الدالة على الاقواء، والاكفاء والسناد، والايطاء، والاجازة. حتى يأتي الى نهاية هذه الابحاث.

ثم يستأنف البحثَ فى عيوب الإعراب فيورد ابياتاً يسكنُ فيها ما كان ينبغى له ان يُحركه. وابياتاً اخرى يجوّز فيها قصرَ الممدود، ولا يجوّز مدَّ المقصور، كما انه يجوّز صرف غير المصروف للاضطرار، ويقبح عدم صرف الاسم المصروف.

وبعد ايراد الامثلة على كل ذلك يقول:

وليس للمُحدَثِ ان يتبع المتقدم فى استعمال وحشى الكلام الذي لم يكثر، واستعمال اللغة القليلة التداول كأبدالهم الجيم من الياء كقول القائل (يارب ان كنتَ قبلتَ حجتج) يريد حجتي، (وعلج) يريدون علي ويختم هذه الابحاث بقوله:

وهذا يكثر، وفيما ذكرت منه ما دلّك على ما اردتُ من اختيارك احسن الروى، واسهلَ الالفاظ، وابعدَها من التعقّد والاستكراه، واقربها من أفهام العوام. وكذلك اختارُ للخطيب اذا خطب، والكاتب اذا كتب، فانه يُقال: أسيرُ الشعر والكلام المطمعُ، يراد الذي يَطمعُ فى مثله من سَمعه، وهو مكانُ النجم من يد المتناول.

ابن المعتز وكتابه البديع (1)

هو ابو العباس عبدالله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي امير النسب و الادب ... ولد في الثالث والعشرين من شعبان عام ٢٤٩ هـ . واحد دهره في الادب والشعر ، و كان يقصد فصحاء الاعراب ويأخذ عنهم ، ولقي العلماء من النحويين و الاخباريين ، كثير السماع غزير الرواية ، وامره اشهر من ان يُستقصى ، اخذ الادب وعلوم العرب عن ابي العباس محمد بن يزيد المبرَد وعن ابي العباس ثعلب فنشأ شاعرا مطبوعا مقتدرا على الشعر قريب المأخذ سهل اللفظ جيد القريحة ، ومن مزاياه الابداع للمعاني .

و كان قد اشتهر بابداع التشبيه او تصوير الخيال ، لان شعره يمثل الصور الذهنية بما يقربها من الصور الحسية ولذلك لقبه المتأدبون بأمير التشبيه الخيالي او التمثيل الشعري ، و كان يقول اذا قلت كأن ولم آت بتشبيه بعدها فض الله فمي .

الف كتبا كثيرة منها كتاب البديع و كتاب الزهر و الرياض و كتاب السرقات و كتاب اشعار الملوك و كتاب طبقات الشعراء اما كتابه البديع فقد جعله في عدة ابواب .

الباب الاول في الاستعارة . وضرب لها الامثال من القرآن الكريم ومن احاديث النبي صلى الله عليه وسلم ومن اقوال صحابته ومن جاء بعدهم من الكتاب والشعراء وفصحاء العرب . فمن القرآن

---

(1) كتاب الفهرست لابن النديم ص (١٦٨) وكتاب تاريخ اداب اللغة العربية لجرجي زيدان ص (١٦١) .

الكريم قوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة)[1] ومن الحديث قوله صلى الله عليه وسلم (داء الامم الحسد والبغضاء) ومن شعر العرب قولهم :

فاقسمت انسى الداعيات الى الصبا
وقد فاجأتها العين والسرّ واقع
فغطت بايديها ثمار نحورها
كأيدي الاسارى اثقلتها الجوامع

وكقول الاخر :

شربنا من فؤاد الدَن حتى تركنا الدن ليس له فؤاد

* * *

واما الباب الثاني فخاص بالتجنيس وهو ان تجيء الكلمات متجانسة في بيت شعر او في عبارة نثر . وقد يكون تجانس الكلمات في تأليف حروفها ومعانيها وما يشتق منها او في تأليف الحروف دون المعنى . فمن الاول (يوم خلجت على الخليج نفوسهم) . وخلج بمعنى انتزع . ومن الثاني قوله تعالى (واسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (الظلم ظلمات) وقال البحتري :

ورمى بثغرته الثغور فسدها طلقَ اليدين مؤملا مرهوبا

* * *

(١) شبه الذل بطائر واستعير لفظ المشبه به وهو الطائر للمشبه وهو الذل ثم حذف الطائر ورمز اليه بشيء من لوازمه وهو الجناح .

الباب الثالث خاص بالمطابقة وهي الجمع بين معنيين متقابلين .

قال الله تعالى (ولكم في القصاص حياة يا اولي الالباب) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للانصار (انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع) وقال سيدنا الحسن رضي الله عنه وقد انكر عليه الافراط في تخويف الناس (ان من خوفك حتى تبلغ الامن خير ممن امنك حتى تبلغ الخوف ، وقال الطائي :

وضل بك المرتاد من حيث يهتدى
وضرت بك الايام من حيث تنفع
وقد كان يدعى لا بس الصبر حازما
فاصبح يدعى حازما حين يجزع

وقال اعرابي لرجل : ان فلانا وان ضحك لك فانه يضحك منك فان لم تتخذه عدوا في علانيتك فلا تجعله صديقا في سريرتك . وشتم رجل الشعبي فقال له الشعبي ان كنتَ كاذبا فغفر الله لك وان كنتَ صادقا فغفر الله لي .

* * *

الباب الرابع وهو رد اعجاز الكلام على ماتقدمها . وهذا الباب ينقسم الى ثلاثة اقسام : فمنه ما يوافق اخرُ كلمة فيه اخرَ كلمة في نصفه الاول مثل قول الشاعر :

تلقّى اذا ما الامر كان عرمرما
وفي جيش رأى لا يُفلّ عرمرم

ومنه ما يوافق اخرُ كلمة منه اولَ كلمة في نصفه الاول كقوله :

سريع الى ابن العم يشتم عرضه

وليس الى داعي الندى بسريع

ومنه ما يوافق اخرُ كلمة فيه بعض ما فيه فقال تعالى (ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) ؟.

الباب الخامس ، وهو مذهب سماه الجاحظ المذهب الكلامي [١] مثل قول ابي الدرداء ان اخوف ما اخاف عليكم ان يقال علمت فماذا عملت .. وقال عمر لعبدالله بن عباس رضي الله عنهما: من ترى ان نوليه على حمص قال رجلا صحيحا منك صحيحا لك قال كن انت ذلك الرجل قال لا ينتفع بي مع سوء ظني في سوء ظنك .

وقال ابراهيم بن العباس :

وعلمتني كيف الهوى وجهلته

وعلمكم صبري على ظلمكم ظلمي

واعلم ما لي عندكم فيميل بي

هواى الى جهلي فاعرض عن حلمي

وكتب الحسن بن وهب الى صديق له استزاره :

لما اذن الله في النهوض اليك احدث القدر ما لم اكن احتسبه من شغل يغم قلبي فلا اجد بقية تتذوقك فكرهت ان اتيك على هذه الحال فيكون نظري اليك حسرة يلجلجها الضمير اذ كان الشغل حاجباً عن استقصائك بكنهك .

---

(١) المذهب الكلامي : هو ان يأتي البليغ على صحة دعواه وابطال دعوى خصمه بحجة قاطعة عقلية مسلم بها .

ثم يشرع كتاب البديع بضم فنون اخرى على الفنون الخمسة المذكورة كالالتفات والاعتراض والرجوع وحسن الخروج من معنى الى معنى وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف وهزل يراد به الجد كقولهم .

ارقيك ارقيك باسم الله ارقيكا
من بخل نفس لعل الله يشفيكا

وحسن التضمين والتعريض بالكتابة والافراط في الصفة وحسن التشبيه وحسن الابتداء ، وحسن الختام وما الى ذلك مما لا يخفى على اوساط المتعلمين والباحثين في قواعد اداب اللغة العربية .

هو قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب البغدادي المتوفى سنة ٣١٠هـ. كان ابوه نصرانيا وأسلم في ايام المكتفي وتولى منصبا كبيرا في الدولة العباسية، وكان اديبا شاعرا ألف كتبا كثيرة لم يصلنا منها الا :

١- كتاب نقد الشعر وهو اول كتاب مستقل في هذا الموضوع، بيّن فيه حد الشعر وشروط نظمه من حيث اللفظ والمعنى وأئتلافهما في ابواب النظم المعروفة في عصره وشروط المجاز والتشبيه، وغير ذلك.

٢- كتاب نقد النثر، ويعرف بكتاب البيان، نسخة منه خطية في الاسكوريال ولم تصح نسبته اليه.

٣- كتاب الخراج وصنعة الكتابة لم يصلنا منه الا نحو مائة صفحة في ديوان البريد والسكك والطرق الى نواحي المشرق والمغرب والمسافات بين البلاد فضلا عن مقادير الجباية، توفى سنة (٣١٠)هـ[٢]

كتاب نقد الشعر

اما كتابه نقد الشعر فهو اول كتاب تحدث عن حد الشعر وشروط نظمه وعن صلة الالفاظ بالمعاني وائتلافهما في ابواب النظم المعروفة في عصره وشروط المجاز والتشبيه وغير ذلك.

وقد قسم قدامة العلم بالشعر اقساما متعددة فقال : قسم ينسب الى علم عروضه ووزنه .. وقسم ينسب الى علم قوافيه ومقاطعه .. وقسم ينسب الى علم غريبة ولغته .. وقسم ينسب الى علم معانيه ومقاصده .. وقسم ينسب الى علم جيده ورديئه.

ثم قال : قد عُني الناس بوضع الكتب في اقسام علم الشعر فاستقصوا امر العروض والوزن وامر القوافي والمقاطع وامر الغريب والنحو وتكلموا في المعاني الدال عليها الشعر وما الذي يريد به الشاعر..

ولم اجد احـدا وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتابا .. وكان الكلام عندي في هذا القسم اولى بالشعر من سائر الاقسام المعدودة[1] لان علم الغريب والنحو واغراض المعاني يحتاج اليه في اصل الكلام للشعر والنثر وليس هو باحدهما اولى بالاخر .

وعلما الوزن والقوافي وان خصا الشعر وحده فليست الضرورة داعية اليهما لسهولة وجودهما في طباع اكثر الناس من غير تعلم .

ومما يدل على ذلك ان جميع الشعر الجيد المستشهد به انما هو لمن كان قبل وضع الكتب في العروض والقوافي. ولو كانت الضرورة داعية الى ذلك لكان جميع هذا الشعر فاسدا او اكثره، ثم ما نرى ايضا عن استغناء الناس عن هذا العلم بعد واضعيه الى هذا الوقت ، فان من يعلمه ومن لا يعلمه ليس يعول في شعر اذا اراد قوله الا على ذوقه دون الرجوع اليه فلا يتوكد عند الذي يعلمه صحة ذوق ما تزاحف منه بان يعرضه عليه فكان هذا العلم مما يقال فيه ان الجهل به غير ضائر وما كانت هذه حاله فليست تدعو اليه ضرورة .

فاما علم جيد الشعر من رديئه فان الناس يخبطون في ذلك منذ تفقهوا في العلوم فقليلا ما يصيبون .

ثم يقول : ولما وجدت الامر على ذلك وتبينت ان الكلام في

---

(١) كتاب نقد الشعر نفسه ص ٢ .

هذا الامر اخص بالشعر من سائر الاسباب الاخرى وان الناس قد قصروا في وضع كتاب فيه رأيت ان اتكلم في ذلك بما يبلغه الوسع.

ثم يتطرق الى تعريف الشعر فيصفه بعبارة مختصرة يعتقد انه لم يجد ابلغ ولا اوجز منها مع تمام دلالتها فيقول : (الشعر قول موزون مقفى يدل على معنى) ، ثم يشرع بشرح معنى القول ومعنى كونه موزونا مقفى دالا على معنى . وبعد شرحه معاني تلك الالفاظ يقول: ولما كانت للشعر صناعة وكان الغرض في كل صناعة اجراء ما يصنع ويعمل بها على غاية الجودة والكمال . اذ كان جميع ما يؤلف ويصنع على سبيل الصناعات والمهن فله طرفان احدهما غاية الجودة والاخر غاية الرداءة وحدود بينهما تسمى الوسائط وكان كل قاصد لشيء من ذلك فانما يقصد الطرف الاجود فان كان معه من القوة في الصناعة ما يبلغه اياه سمى حاذقا تمام الحـذق فان قصر عن ذلك نزل لـه اسم بحسب الموضع الذي يبلغه في القرب من تلك الغاية والبعد عنها اذ كان الشعر ايضا جاريا على سبيل سائر الصناعات مقصودا فيه وفيما يحاك ويؤلف منه الى غاية التجويد وكان العاجز عن هذه الغاية من الشعراء انما هو من ضعفت صناعته .

ويجمل قوله في هذا الصدد ان الشعر الذي اجتمعت فيه الاوصاف المحمودة كلها وخلا من الخلال المذمومة باسرها يسمى شعرا في غاية الجودة وما يوجد بضد هذه الحال يسمى شعرا في غايه الرداءة ومـا يجتمع فيه من الحالين اسباب ينزل له اسم بحسب قربه من الجيد او الرديء او وقوعه في الوسط الذي يقال فيه صالح او متوسط اولا

جيد ولا ردى، فان سبيل الاوساط فى كل ماله ذلك ان تحد بسلب الطرفين كما يقال مثلا فى الفاتر الذي هو وسط بين الحـار والبارد انه لا حار ولا بارد والمز الذي هو وسط بين الحلو والحامض انه لا حلو ولا حامض.

* * *

ثم تعرض قدامة الى قضية فنية جد خطيرة ما زالت موضع اخذ ورد في عالم النقد. فيقول:

ومما يجب تقدمته وتوطيده قبل ان اتكلم فيه ان المعـاني كلها معرضة للشاعر، وله ان يتكلم فيما احب وآثر من غير ان يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه، اذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة والشعر فيها كالصورة كما يوجد في كل صناعة من انـه لا بد فيها من شـيء موضوع يقبل تأثير الصور منها مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة وعلى الشاعر اذا شرع في اي معنى كان من الرفعة والضعة والرفث والنزاهة والبذخ والقناعة والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة ان يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك الى الغاية المطلوبة.

مما تقدم نعلم ان الصورة الشعرية عند قدامة لها المحل الاول وما عداها فله المحل الثاني. ولعل الصورة التي ارادها قدامـة هي ذلك المظهر الجميل واللحن الساحر الناشيء من موأمـة الصياغة لموضوع القصيدة اقصد الموأمة بين الفكرة والموسيقى بين المعاني والالفاظ بين العواطف والخيال بين الجسد والروح.

ثم يقول قدامة: ومما يجب تقديمه ايضا ان مناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين او كلمتين بان يصف شيئا وصفا حسنا ثم يذمه بعد ذلك

ذما حسنا بينا غير منكر عليه ولا معيب من فعله اذا احسن المدح والذم بل ذلك عندي يدل على قوة الشاعر في صناعته واقتداره عليها.

الظاهر من كلام قدامة ان نظرية بعض النقاد المحدثين القائلين بنظرية الفن للفن وليس الفن للحياة ليست نظرية حديثة وانما قال بها ادباء العرب من زمن بعيد.

ذلك ان قدامة يرى ان شعر امرىء القيس في ادبه المكشوف لاعيب فيه وان فحاشة بعض اشعاره لا تزيل عنه الجودة كما لايعيب جودة النجارة في الخشب الردىء في ذاته. كما انه لا يرى اية مناقضة فى قول امرىء القيس.

فلو ان ما اسعى لادنى معيشة
كفاني ولم اطلب قليل من المال
ولكنما اسعى لمجد مؤثل
وقد يدرك المجد المؤثل امثالي

وقوله فى موضع آخر:

لنا غنم نسوقها غزار كأن قرون جلتها العصى
فتملأ بيتنا اقطا وسمنا وحسبك من غنى شبع وري

ان قدامة لم يرتناقضا بين المعنيين بل يرى العكس فعنده ان المعنيين فى الشعرين متفقان الا انه زاد فى احدهما زيادة لا تنقض ما فى الاخر. اذليس احد ممنوعاً من الاتساع فى المعاني التي لاتتناقض وذلك انه قال فى احد المعنيين.

فلو ان ما اسعى لادنى معيشة كفاني ولم اطلب قليل من المال

وهذا موافق لقوله (حسبك من غنى شبع ودى) ولكن في المعنى الاول زيادة ليست بناقضة لشيء. وهو قوله لكنني لست اسعى لما يكفيني ولكن لمجد مؤثل. فالمعنيان اللذان ينبئان عن اكتفاء الانسان باليسير متوافقان في الشعرين . والزيادة في الشعر الاول التي دل بها على بعد همته ليست تنقض واحدا منها ولا تنسخه . وارى ان الذي يعيبه يظن ان امرأ القيس قال في احد الشعرين ان القليل يكفيه وفي الأخر انه لا يكفيه . فالشاعر لم يقل شيئا من ذلك ، ولو قاله فانه غير مخطىء في نظر قدامـة لان الشاعر عنده لا يوصف بان يكون صادقا بل يراد منه اذا اخذ في معنى من المعاني كائنا ما كان ان يجيده في وقته الحاضر لا ان ينسخ ما قاله في وقت آخر[1] .

وبعد هذه النظريات الشيقة الدقيقة يأخذ بذكر اوصاف الجودة وهي ائتلاف اللفظ مع المعنى وائتلاف اللفظ مع الوزن وائتلاف المعنى مع الوزن وائتلاف المعنى مع القافية. هذه امور اربعة يلحقها قدامة بالأربعة التي ذكرها في حد الشعر الذي قال عنه انه قول موزون مقفى دال على معنى. فتصبح اجناس الشعر الجيد ثمانية فاذا اجتمعت للشعر كان في نهاية الجودة واذا لم يكن فيه شيء منها كان في نهاية الرداءة لا محالة .

اذ كان هذان الطرفان مشتملين على جميع النعوت او العيوب التي يمكن على ضوئها ان ينصب النقد على الشعر .

ولما لم يكن كل شعر جامعا جميع النعوت او العيوب وجب ان تكون الوسائط التي بين المدح والذم تشتمل على صفات محمودة

(١) كتاب نقد الشعر ص ٦ .

وصفات مذمومة ، فما كان فيه من النعوت المحمودة اكثر كان الى الجودة اميل وما كان فيه من الصفات المعيبة اكثر كان الى الرداءة اقرب وما تكافأت فيه النعوت والعيوب كان وسطا بين المدح والذم وتنزيل ذلك (اذا حضر ما في الطرفين من النعوت والعيوب) لا يبعد على من اعمل الفكر واحسن سبر الشعر .

جودة اللفظ

ومن هذا المنطلق يبدأ قدامة ببيان صفات اللفظ الجيد فيقول ان يكون سمحا سهل مخارج الحروف من مواضعها . وان يكون عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة .

ثم يأتي بامثلة كثيرة نقتطف من كل قصيدة ابياتا لضيق المقام فيعرض قطعة من قصيدة الحادرة الذبياني وهي :

بكرت سمية بكرة فتمتع   وغدت غدوّ مفارق لم يربع
وتزودت عيني غداة لقيتها   بلوى البنينة نظرة لم تُقلع
وتصدفت حتى استبتك بواضح   صلت كمنتصب الغزال الاتلع
وبمقلتي حوراء، تحسب طرفها   وسنان حرة مستهل الادمع
واذا تنازعك الحديث رايتها   حسنا تبسمها لذيذ المكرع

جودة الوزن

ان يكون الوزن سهل العروض (اي تعشقه الاذن ويجري خفيفا على اللسان) ويمثل لذلك بابيات من قصيدة المنخل اليشكري.

ولقد دخلت على الفتاة   الخدر في اليوم المطير

الكاعب الحسناء تـرفل في الدمقس وفي الحرير
فـدفعتهـا فتدافعـت مشى القطاة الى الغدير
ولـثمتهـا فتنفسـت كتنفس الظبي الغرير

جودة القوافى

ان تكون القافية عذبة الحرف سلسة المخرج وان تقصد لجعل مقطع المصراع الاول في البيت الاول من القصيدة مثل قافيتها ذلك لان الفحول من الشعراء القدماء والمحدثين يتوخون التصريع ولا يكادون يعدلون عنه وربما صرعوا ابياتا اخرى من القصيدة .وا كثر من كان يستعمل ذلك امرؤ القيس لمحله من الشعر كقوله :

افاطم مهلا بعض هـذا التدلل
وان كنت قد ازمعت هجري فاجملى
الا ايها الليل الطويل الا انجل
بصبح وما الاصباح منك بامثل

و كقول حسان بن ثابت :

ابَى رسم دار الحي ان يتكلما
اينطق بالمعروف من كان ابكما

باب المعانى الدال عليها الشعر

لقد اسهب قدامة في الكلام عن هذا الباب كما اسهب في ضرب الامثلة له .

ولطرافة هذا الموضوع وعمقه وجمال شواهده وجدت ان من

عظم الفائدة وتمامها ان انقل منه ما يتسع المقام له . يقول قدامة : جماع الوصف لهذا الباب ان يكون المعنى مواجها للغرض المقصود . غير عادل عن الامر المطلوب .

ولما كانت اقسام المعاني التي تحتاج الى ان تكون على هذه الصفة مما لا نهاية لعدده ولم يمكن ان يؤتى على تعديد جميع ذلك ولا ان يبلغ اخره . لذلك رأي قدامة ان يقصر كلامه على المديح والهجاء والنسيب والمراثي والوصف والتشبيه . ثم يقول :

رايت الناس مختلفين في مذهبين من مذاهب الشعر وهما الغلوّ في المعنى اذا شرع فيه والاقتصار على الحد الاوسط فيما يقال منه .. وقد شهدت قوما يقولون ان قول مهلهل بن ربيعة .

(فلولا الريح اسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور)

خطأ من اجل انه كان افرط في المبالغة اذ كان بين موضع الرّقة التي ذكرها وبين حجر مسافة عشرة ايام . وكذلك في قول ابي نواس .

واخفت اهل الشرك حتى انه لتخافك النطف التي لم تخلق

ثم يقول رايت هؤلاء باعيانهم في وقت اخر يستحسنون مايرون من طعن النابغة على حسان بن ثابت رضي الله عنه في قوله .

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
واسيافنا يقطرن من نجدة دما

وبعد ان يذكر قدامة نقد الناقدين للغلوّ في الابيات التي اوردها ومناقضتهم لانفسهم في بيت حسان . يقول : (ان الغلو عندي اجود المذهبين وهو ما ذهب اليه اهل الفهم بالشعر والشعراء قديما) . ثم

يقول (وقد بلغني عن بعضهم انه قال احسن الشعر اكذبه . و كذا نرى فلاسفة اليونانين في الشعر على مذهب لغتهم ومن انكر على مهلهل و ابي نواس اقوالهم فهو مخطئ، لانهم وغيرهم ممن ذهب الى الغلو انما ارادوا به المبالغة والغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل في باب المعدوم فانما يريد به المثل وبلوغ النهاية في النعت وهذا احسن من المذهب الاخر .

ثم يرجع قدامة الى البحث في اغراض الشعراء التي ذكر معانيها الستة فيبدا بنعت المديح فيقول ما معناه .. ان الفضائل التي يصح مدح الانسان بها انما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة، وقد يجوز ان ينعت الشاعر ممدوحه ببعضها دون البعض الاخر مثل ان يصف الشاعر انسانا بالجود الذي هو احد اقسام العدل وحده فيغرق فيه ويتفنن في معانيه او بالنجدة فقط فيعمل فيها مثل ذلك او بهما او يقتصر عليها دون غيرها فلا يسمى مخطأ لاصابته في مدح الانسان ببعض فضائله . لكن يسمى مقصرا عن استعمال جميع المدح فقد وجب ان يكون على هذا القياس المصيب من الشعراء من مدح الرجال بهذه الخلال لا بغيرها والبالغ في التجويد الى اقصى حدوده من استوعبها ولم يقتصر على بعضها وذلك كما قال زهير ابن ابي سلمى في قصيدته .

اخو ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

فوصفه في هذا البيت بالعفة لقلة امعانه في اللذات وانه لا ينفد ماله فيها ووصفه بالسخاء لاهلاكه ماله في النوال وانحرافه الى ذلك عن اللذات وذلك هو العدل ثم قال :

تراه اذا ما جئته متهللا   كانك تعطيه الذي انت سائله

فزاد في وصف السخاء بان جعله يهش له ولا يلحقه مضض لفعله ثم قال :

فمن مثل حصن في الحروب ومثله
لانكار ضيم او لخصم يجادله

فاتى في هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل فاستوعب زهير في ابياته هذا المديح بالاربع الخصال التي هي فضائل الانسان على الحقيقة وزاد في ذلك وصفه بالوفاء بقوله اخي ثقة والوفاء داخل في الفضائل المذكورة آنفا .

ثم يقول : ان من اقسام العقل ثقابة المعرفة والحياء والبيان والسياسية والكفاية والصدع بالحجة والعلم والحلم عن سفاهة الجهلة وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى. كما ان من اقسام العفة القناعة وقلة الشره وطهارة الازار وغير ذلك مما يجرى مجراه . ومن اقسام الشجاعة الحماية والدفاع والاخذ بالثأر والنكاية في العدو والمهابة وقتل الاقران والسير في المهامه الموحشة وما اشبه ذلك . ومن اقسام العدل السماحة ومراد فها التغابن والانظلام والتبرع بالنائل واجابة السائل وقرى الاضياف وما جانس ذلك . ثم يقول :

فاما تركيب بعضها مع بعض فيحدث عنه ستة اقسام .

اما ما يحدث عن تركيب العقل مع الشجاعة فالصبر على الملمات ونوازل الخطوب والوفاء بالايعاد . وعن تركيب العقل مع السخاء فانجاز الوعد وما اشبه ذلك . وعن تركب العقل والعفة فالرغبة عن

المسألة والاقتصار على ادنى معيشة وما اشبه ذلك . وعن تركب الشجاعة مع السخاء الاتلاف والاخلاف وما اشبه ذلك. وعن تركب الشجاعة مع العفة انكار الفواحش والغيرة على الحرم . وعن تركب السخاء مع العفة الاسعاف بالقوت والايثار على النفس وما شاكل ذلك .

وبعد هذه الاحاطة بعناصر الموضوع اخذ يضرب الامثلة الشعرية لكثير من الشعراء الجاهليين والاسلاميين . مما لا يتسع المقام لذكرها جميعا . لذلك نعمل بحسب القول المأثور اخذ القليل خير من ترك الجميع فنقول :

قال محمد بن زياد الحارثي :

تخالهم للحلم صماً عن الخنا
وخُرسا عن الفحشاء عند التهاجر
ومرضى اذا لاقوا حياء وعفة
وعند الحفاظ كالليوث الخوادر
لهم ذل انصاف وانس تواضع
ومن عزهم ذلت رقاب العشائر
كأن بهم وصماً يخافون عاره
وليس بهم الا اتقاء المعاير

نعت الهجاء

اذا كنا قد عرفنا وصف المديح واسبابه سهل علينا معنى الهجاء . لان الهجاء ضد المديح فكلما كثرت اضداد المديح في الشعر كان

اهجى له ثم تنزل الطبقات على مقدار قلة الاهاجي فيها و كثرتها .فمن الهجاء المقذع ما انشده احمد بن يحيى :

كاثر بسعد ان سعدا كثيرة
ولا تبغ من سعد وفاء ولا نصرا
ولا تدع سعدا للقراع وخلها
اذا امنت من روعها البلد القفرا
يروعك من سعد بن عمرو جسومها
وتزهد فيها حين تقتلها خبرا

فمن اصابة المعنى في هذا الهجاء انهذا الشاعر سلم لهؤلاء القوم بامرين يظن انهافضيلتان وليستا من الفضائل . وهما كثرة العدد وعظم الجسوم .وغزا بذلك مغازى دلت على حذقه بالشعر. فمنها ان ادخل هجاء لهم في باب الاقوال الصادقة لاعطائه اياهم شيئا ومنعه عنهم شيئا آخر . وقصده بذلك ان يظن ان قوله فيهم انما هو على سبيل الصدق وذكره اياهم بما فيهم من جيد وردى..

ومنها ما بان من معرفته بالفضائل حتى يميز صحيحها من باطلها فسلم بالباطلة ومنع الصحيحة .

ومنها انه قطع عن هؤلاء القوم ما يعتذر به الكرام من قلة العدد فان الكرام ابدا فيهم قلة كما قال السموأل .

تعيرنا انا قليل عديدنا فقلت لها ان الكرام قليل

نعت المراثى

يقول قدامة ليس بين المرثية والمدحة فصل الا ان يذكر في

اللفظ ما يدل على انه هالك مثل كان وتولى وقضى نحبه وما شابه ذلك . وهذا ليس يزيد في المعنى ولا ينقص منه . لان تأبين الميت انما هو بمثل ما كان يمدح به في حياته . وقد يفعل في التأبين شيء ينفصل به لفظه عن لفظ المدح بغير كان وما جرى مجراها وهو ان يكون الحي مثلا يوصف بالجود فلا يقال كان جوادا ولكن يقال ذهب الجود او فمن للجود بعده وما اشبه هذه الاشياء . كقول كعب ابن سعد الغنوي .

لعمري لئن كانت اصابت مصيبة
اخي والمنايا للرجال شعوب
لقد كان اما حلمه فمروح
علينا واما جهله فعزيب
اخي ما اخي لا فاحش عند بيته
ولا ورع عند اللقاء هيوب
حليم اذا ما الجهل زين لاهله
مع الحلم في عين العدو مهيب
اذا ما تراءاه الرجال تحفظوا
فلم ينطقوا العوراء وهو قريب

وكقول اوس يرثي فضالة .

ايتها النفس اجملي جزعا ان الذى تحذرين قد وقعا
ان الذى جمع السماحة والنجـ ـدة والبأس والندى جمعا
الالمعى الذي يظن بك الظن كان قد رأى وقد سمعا

نعت التشبيه

ثم ينتقل الى نعت التشبيه فيقول : من الامور المعلومة ان الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات لان الشيئين اذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتة اتحدا فصار الاثنان واحدا فبقى ان يكون التشبيه انما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان يعمهما ويوصفان بها . وافتراق في اشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها . واذا كان الامر كذلك فاحسن التشبيه هو ما اوقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات اكثر من انفرادهما فيها حتى يدني الى حال الاتحاد .

ويمثل لذلك بامثلة كثيرة لا مجال لاستيفاءها ولكننا نأخذ مثلين فقط وندع الباقي للذين يريدون المزيد في مطالعتهم الكتاب .

قال

(وتعطو برخص غير شثن كانه اساريع ظبي او مساويك اسحل)

وقال

(فتى عيش في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا)

نعت الوصف

ثم ينتقل الى نعت الوصف فيقول : الوصف انما هو ذكر الشيء كما فيه من الاحوال والهيئات .... ولما كان اكثر وصف الشعراء انما يقع على الاشياء المركبة من ضروب المعاني كان احسنهم من اتى في شعره باكثر المعاني التي يتركب منها الموصوف ثم باظهرها فيه واولاها حتى يحكيه بشعره ويمثله للحس بنعته من ذلك قول عبدالرحمن بن عبدالله القس يصف اصفاع السامعين الى الغناء الحسن

اذا ما عج مزهرها اليها وعاجت نحوه اذن كرام
فاصغوا نحوها الاسماع حتى كأنهم وما ناموا نيام

وقال ذو الرمة :

ترى الخود يكرهن الرياح اذا جرت
وتمي بها لولا التحرج تفرح
اذا ضربتها الريح في المرط اشرفت
روادفها وانظم منها الموشح

نعت النسيب

ثم ينتقل الى نعت النسيب فيقول : ان كثيرا من الناس يحتاج الى ان يعلم اولا ما النسيب . ونحن نحده فنقول :

ان النسيب ذكر خَلْق النساء واخلاقهن وتصرف احوال الهوى به معهن. وقد يذهب على قوم ايضا موضع الفرق بين النسيب والغزل. والفرق بينهما ان الغزل هو المعنى الذي اذا اعتقده الانسان في الصبوة الى النساء نسب بهن من اجله فكانّ النسيب ذكر الغزل .. والغزل المعنى نفسه ... والغزل انما هو التصابي والاستهتار بمودات النساء .

ويقال في الانسان انه غزِل اذا كان متشكلا بالصورة التي تليق بالنساء وتجانس موافقاتهن لحاجته بالوجه الذي يجذبهن الى ان يملن اليه .والذي يملهن اليه هو الشمائل الحلوة والمعاطف الظريفة والحركات اللطيفة والكلام المستعذب والمزاح المستغرب .

ويقال لمن يتعاطى هذا المذهب من الرجال والنساء متشاج اي متشبه بمن قد شجاه الحب . لذلك وجب ان يكون النسيب الذي يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الادلة على التهالك في الصبابة وتظاهرت

فيه الشواهد على افراط الوجد واللوعـة وما كان فيه من التصابي والرقة اكثر مما يكون من الخشونة والجلادة . وما كان فيه من الخشوع والذلة اكثر مما يكون فيـه من الاباء والعز . وان يكون جماع الامر ما ضاد التحافظ والعزيمة ووافق الانحلال والرخاوه ... فاذا كان النسيب كذلك فقد تحقق الغرض .

وقد يدخل في النسيب التشوق والتذكر لمعاهد الاحبة بالرياح الهابة والبروق اللامعة والحمائم الهاتفة والخيالات الطائفة واثار الديار العافية واشخاص الاطلال الداثرة وجميع ذلك اذا ذكر احتيج ان تكون فيه ادلـة على عظيم الحسرة ومن مضّي الاسف والمنازعـة . كقول محمد بن عبيد الازدي .

فلم تدع الارواح والمـاء والبلى
من الدار الا ما يشوق ويشغف

فاما النسيب نفسه فان المحسن من الشعراء فيه هو الذي يصف من احوال ما يجده ما يعلم به كل ذي وجد حاضرا وداثر . فمن ذلك قول ابي صخر الهذلي .

اما والذي ابكى واضحك والذي
امات واحيا والذي امره الامر
لقد كنت آتيها وفي النفس هجرها
بتاتا لاخرى الدهر ما طلع الفجر
فما هو الا ان اراهـا فجـاءه
فابهت لا عرف لدى ولا نكر

وانسى الذي قد كنت فيه هجرتها

كما قد تنسّى لبّ شاربها الخمر

وفي هذه القصيدة ايضا موضع آخر دال على افراط المحبة مبين عن سجية في اهل الهوى عامة وهو قوله .

ويمنعني من بعد انكار ظلمها

اذا ظلمت يوما وان كان لي عذر

مخافة اني قد عرفت لان بدا

لي الهجر منها ما على هجرها صبر

واني لا ادرى اذا النفس اشرفت

على هجرها ما يفعلن بي الهجر

وكما قال الشاعر:

يود بان يمسى سقيما لعلها اذا سمعت عنه بشكوى تراسله

ويهتز للمعروف في طلب العلى لتحمد يوما عند ليلى شمائله

وهكذا يسترسل قدامة في تبيان موضوعات اخرى هي الصق بعلم المعاني والبديع كصحة التقسيم وصحة المقابله وصحة التفسير والتتميم والمبالغة والتكافوء والالتفات والمساواة والايجاز والاستعارة والكنانة والتمثيل وائتلاف المعنى والوزن والقافية . ثم يأتي في الفصل الثالث بكلام عن عيوب اللفظ والوزن والقوافي والمعاني وذكر عيوب الهجاء والمراثي والتشبيه والوصف والغزل . مما لو أمعنا فيه النظر لوجدناه داخلا في عموم ما اجملنا في هذه الخلاصة الموجزة. مما يضاد الابحاث التي فصلناها من النواحي الايجابية . والله الموفق.

هذا كتاب اختلف المؤرخون في امره فاكثرهم يضع الشك في نسبته الى قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ هـ موضع اليقين واقلهم يقول بنسبته اليه .... ونحن لا يهمنا امر نسبته الى من الفه بقدر ما يهمنا محتواه ومضمونه .

ومن الذين تشككوا في نسبته لقدامة الدكتور طه حسين . بل كاد يقطع جازما بانه لا يمكن ان تكون له . وقال انها في الغالب لكاتب شيعي ظاهر التشيع قد صنف كتبا عدة في الفقه وعلوم الدين .

اما الذي قال بصحة نسبة الكتاب الى قدامة فهو عبدالحميد العبادي على الرغم من انه لم يجد في فهرست ابن النديم ولا في كشف الظنون ولا في معجم الادباء ولا في اي مرجع اخر اشارة من قريب او بعيد تدل على ان قدامة قد صنف كتابا فى نقد النثر او في البيان. وبينما المحققون في حيرة من امر هذا الكتاب . واذا بعلي حسن عبدالقادر ينشر مقالاته في سنة (١٩٤٨) . بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق يقول فيه ان هذا الكتاب الذي طبع باسم نقد النثر ونسب خطأ الى قدامة انما هو جزء من كتاب (البرهان في وجوه البيان) لاسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب عثر عليه في بعض المكتبات الاوربية. وبذلك خرجت المسألة من باب الشك الى اليقين . فعنوان الكتاب ليس نقد النثر ومصنفه ليس قدامة[1] .

---

(١) كتاب البلاغة تطور وتاريخ لشوقي ضيف ص (٩٣) .

الفصل العاشر

تعريف اجمالي برجال مدرسة الكوفة

الكوفة حاضرة العراق الثانية وقاعدة حربية للجيوش الاسلامية. بناها سعد بن ابي وقاص باللبن بأمر من امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد ان احترقت بيوتها القصبية[1] فأسس فيها المسلمون دارا واسعة اتخذوا منها مسجدا للصلاة ودارا للحكومة ومعهداً لمدارسة التفسير والحديث والفقه والتاريخ . وبتوالي الايام تطورت هذه المدينة حتى اصبحت مركزا عظيما للعلوم الشرعية والعقلية والادبية . واخذ العلماء والادباء يقصدونها من بلاد بعيدة واشتدت المنافسة بين علماء البصرة وعلماء اهل الكوفة الذين منهم :

١ - ابو جعفر محمد بن ابي سارة الحسن

الرواسي اول من أسس مدرسة النحو في الكوفة كما ان خاله معاذ بن مسلم الهراء اول من صنع علم الصرف فيها. ولقد تخرج من هذه المدرسة علماء وادباء كبار .

٢ - الكسائي المتوفى سنة ١٨٩ ه

هو علي بن حمزة الكسائي الذي اخذ القراءات عن حمزة الشريان كما اخذ ايضا عن الخليل بن احمد الفراهيدي البصري الذي اشار اليه ان يذهب الى البادية ليقضي فيها سنين عددا فيحذق عن اعرابها اللغة الفصيحة . وبعد عودته اختار لنفسه طريقة خاصة في القراءات

(١) محاضرات تاريخ الامم الاسلامية للشيخ محمد الخضري ج ١ ص ٣٢٦ .

وعُدّ بها من القراء السبعة . وكان الكسائي معلما لهارون الرشيد ثم جعله مؤدبا لأبنيه الامين والمأمون . وكان قبل ذلك في زمن المهدى يقرأ القرآن في رمضان لأهل دار الخلافة . وقيل انسيبويه حاول ان يزعزع من مكانة الكسائي فلم يفلح وقيل توفى الكسائي في قرية انبوبة القريبة من الرى وكان في سفر مع هارون الرشيد وذلك سنة ١٧٩ هجرية[1] .

* * *

٣ - الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ

ابو زكريا يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور الملقب بالفرّاء . وكان الفراء اشهر تلامذة الكسائي. ولكنه اخذ ايضا عن يونس بن حبيب البصري معاني النحو في كتابه الحدود الذي صنفه بأمر المأمون وقد جعله مؤدبا لابنيه . فكان يعتزل في خلوة بدار الخلافة ليتوفر على تصنيفه حتى اكمله في بضع سنين ، وكان الفراء اول من قعد لدرس تفسير القرآن في بغداد كما كان يلقى غير ذلك من دروس اللغة والنحو . وقال ثعلب في الثناء عليه (لولا الفراء لما كانت اللغة . لانه خلصها وضبطها . ولولا الفراء لسقطت العربية . لانها كانت تُتنازع ويدعيها كل من اراد الكلام فيها ويتكلم الناس على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب) . وكان الناس يتشوقون الى كتب الفراء لاسيما كتاب المشكل وكتاب المعاني حتى كانوا يشرونها من الوراقين كل خمس اوراق بدرهم . فشكا الناس الى الفراء فجلس يملي كتاب المعاني

---

(١) كتاب تاريخ الادب العربي بالجزء الثاني ص ١٩٨ لبروكلمان .

اتم شرحا وابسط قولا من الذى املاه من قبل فنسخه الوراقون كل عشر اوراق بدرهم .

وتوفى الفراء في طريقه الى مكة سنة ٢٠٧ ه وقد بلغ ثلاثا وستين سنة[١] .

* * *

٤ - ابو عبدالرحمن المفضل الضبى

هو ابو عبدالرحمن المفضل الضبي ولد بالكوفة وخرج على المنصور مع ابراهيم بن عبدالله بن الحسن العلوى الملقب بالنفس الزكية فوقع في الاسر . ولكن الخليفة عفا عنه وجعله منادما للمهدى ولي العهد فجمع له المفضليات والاختيار من اشعار العرب . ولم يعن المفضل كثيرا بالنحو واللغة . بل كانت عنايته مقصورة على جمع الشعر ، وتوفى المفضل في حدود سنة ١٧٠ ه . وله كتب غير ما ذكرنا . منها كتاب الامثال ، وكتاب العروض ، وكتاب معاني الشعر ، وكتاب الالفاظ[٢] .

* * *

٥ - ابو عمرو الشيبانى (٩٦ - ٢٠٦)

هو عمرو اسحاق بن مرار الشيباني تلميذ المفضل الضبي ، ولد

---

(١) تاريخ الادب العربي (كارل بروكلمان) ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٢) تاريخ الادب العربي (كارل بروكلمان) ج ٢ ص ٢٠١ وكتاب الفهرست لابن النديم ص ١٠٢ .

بالكوفة وسار على غرار استاذه الضبي. فوجه عنايته الى الشعر القديم ويُروى انه جمع اشعار اكثر من ثمانين قبيلة من قبائل العرب ووضعها في مسجد الكوفة . ولكنه انصرف الى رواية الحديث فكان معدودا من ثقات رواته حتى اخذ عنه احمد بن حنبل كثيرا منه ، وله بنون وبنو بنين يروون عنه كتبه . وبلغ ابو عمرو الشيباني مائة سنة وعشر سنين ، ومات سنة ست ومائتين ، وقال يعقوب بن السكيت : كان ابو عمرو يكتب بيده الى ان مات ، وكان ربما استعار مني الكتاب وانا اذ ذاك صبي آخذ عنه واكتب من كتبه وله من الكتب غريب الحديث رواه عنه عبدالله بن احمد ابن حنبل و كتاب النوادر المعروف بحرف الجيم ، و كتاب النحلة ، و كتاب خلق الانسان ، و كتاب الحروف ، و كتاب شرح كتاب الفصيح .

* * *

٦ - ابن الاعرابي (١٥٠ - ٢٣١)

هو ابو عبدالله بن زياد ولد بالكوفة سنة ١٥٠ هـ . و كان ابوه عبدا من السند فاعتق وتزوجت امه بعد وفاة ابيه من المفضل الضبي فاخذ عنه العلم . وكان ابن الاعرابي احفظ الناس للغات والايام والانساب ، قال ابو العباس ثعلب شاهدت مجلس ابن الاعرابي وكان يحضره زهاء مائة انسان ، وكان يسأل ويقرأ عليه فيجيب من غير كتاب . ولقد أملى على الناس ما يحمل على اجمال لم ير احد في الشعر اغزر منه . وقال ثعلب سمعت ابن الاعرابي يقول ولدت في الليلة

التي مات فيها ابو حنيفة. وتوفي ابو عبدالله بسامراء سنة ٢٣١هـ وهو ابن احدى وثمانين سنة[1] .

* * *

٧ - ابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٣هـ

هو ابو يوسف يعقوب بن اسحاق بن السِكّيت ، كان ابوه معلم صبيان في قريـة دورق بناحية خوزستان ، وكان قد تأدب عـلى الكسائي والفراء ، اخذ العلم عن الفراء وابي عمرو الشيباني وغيرهما من الكوفيين ، كما اخـذ عن الاصمعي وابي عبيدة من البصريين ، وتعلم اللغة عند الاعراب واشتهر بمصنفاته ، وجعله الخليفة المتوكل مؤدبا لابنه المعتز . وكان ابو العباس ثعلب يقول : كان يعقوب بن السكيت متصرفا في انواع العلم وكان ابوه رجلا صالحا من اصحاب الكسائي حسن المعرفة بالعربية ،وكان يقول انا اعلم من ابي بالنحو وابي اعلم مني بالشعر واللغـة . ووجد مقتولا في يوم ٢٥ من رجب سنة ٢٤٣ .

* * *

---

(١) كتاب تاريخ الادب العربي لبروكلمان ج ٢ ص ٢٠٣ وكتاب الفهرست لابن النديم ص ١٠٣ .

الفصل الحادي عشر

وجوه الخلاف بين مذهبي البصريين والكوفيين [2]

كان البصريون لقربهم من العرب الخلّص يستطيعون الاستشهاد على كل مسألة من مسائل العلم ، فكانوا لذلك لا يجيزون رأيا الا اذا ايدوه بالشاهد من كلام العرب الفصحاء الذين صحت ملكاتهم واستقامت لغتهم . اما الكوفيون فقد كانوا اهل قياس لعدم استطاعتهم الاخذ عن فصحاء العرب واختلاطهم باهل السواد والنبط فكانوا لا يتحرجون في الاخذ عن اعراب لا يثق البصريون بفصاحة لغتهم .

وقد احتدم الجدال بين اهل المدرستين وتعددت مسائل الخلاف بينهما والف فيهم كثيرون اشهرهم كمال الدين الانبارى المتوفى سنة (٥٧٧) هـ الف كتاب (الانصاف فى مسائل الخلاف) وابو البقاء البكرى الف كتاب التبيين في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين) وقد لخص السيوطي هذه المسائل واتى بها في الجزء الثاني من كتابه (الاشباه والنظائر) وبلغ مجموع مسائل الخلاف مائة واحدى وعشرين مسألة .

وها نحن نعرض نماذج من مسائل ذلك الخلاف. منها ما نذكره مجملا ، ومنها ما نذكره مفصلا بعض التفصيل .

ومن اراد المزيد من تلكم المسائل فليرجع الى كتاب (الانصاف

---

(١) كتاب تاريخ الادب العربي (جرجي زيدان) .

(٢) كتاب تاريخ الادب العربي (سباعي بيومي) .

في مسائل الخلاف) فهو كتاب جدير بالدراسة لمن يريد التفقّه في قواعد النحو ، وَحرِيّ بالاطلاع على اراء عمداء النحاة .

اما المسائل المجملة فقد ذكرت لك منها خمسا وهي كالاتي :

١ - الفعل مشتق من المصدر عند البصريين . والمصدر مشتق من الفعل عند الكوفيين .

٢ - عند البصريين لا ينوب الظرف والجار والمجرور عن الفاعل مع وجود المفعول به ، ويجوز ذلك عند الكوفيين .

٣ - عند البصريين لايبنى فعل التعجب من الالوان الا بواسطة اشدّ واشدُدْ ونحوها ،ويجوز بناؤه من السواد والبياض بلا واسطة عند الكوفيين .

٤ - يجوز عند البصريين تقديم خبر ليس عليها ، ولا يجوز عند الكوفيين .

٥ - لا يقدم الاستثناء على المستثنى منه عند البصريين ، ويجوز تقديمه عند الكوفين[1] .

واما المسائل المفصلة بعض التفصيل فهي كالآتي :

المسألة الاولى

ذهب الكوفيون الى ان الاسم مشتق من الوَسْم . وذهب البصريون الى انه مشتق من السُموّ وهو العُلُوّ .

اما الكوفيون فاحتجوا بان قالوا انما قلنا : انه مشتق من الوسم

(١) تاريخ الادب العربي (لجرجي زيدان) الجزء الثاني ص ١٧٤ .

لان الوسم في اللغة العلامة ، والاسم وَسْم على المسمى ، وعلامة له يعرف به . الا ترى انك اذا قلتَ زيد او عمرو دلّ على المسمى فصار كالوَسْم عليه ؟ . فلهذا قلنا : انه مشتق من الوسم .

واما البصريون فاحتجوا بان قالوا : انما قلنا انه مشتق من السموّ لان السمو في اللغة هو العلو ، يقـال : سما يسمو سمواً ، اذا علا ، ومنه سميت السماء سماء لعلوها ، والاسم يعلو على المسمى ، ويدل على ما تحته من المعنى ، ولذلك قال ابو العباس محمـد بن يزيد المبرد : الاسم ما دل على مسمى تحته ، وهذا القول كافٍ في الاشتقاق . فلما سما الاسم على مسماه وعلا على ما تحته من معناه دل على انه مشتق من السمو لا من الوسم[1] .

* * *

المسألة الثانية

القول فى تعريف العدد المركب وتمييزه

ذهب الكوفيون الى انه يجوز ان يقال في خمسة عشر درهما . الخمسة العشر درهما . والخمسة العشر الدرهم .

وذهب البصريون الى انه لا يجوز ادخال الالف واللام في العشر ولا في الدرهم . واجمعوا على انه يجوز ان يقال الخمسة عشر درهما بادخال الالف واللام على الخمسة وحدها .

اما الكوفيون فاحتجوا بان قالوا : انما قلنا ذلك لانـه قد صح

(١) كـتاب الانصاف فى مسائل الخلاف الجزء الاول ص ٤ .

عن العرب ما يوافق مذهبنا . ولا خلاف في صحة ذلك عنهم . وقد حكى ذلك ابو عمرو عن الاخفش . واذا صح النقل وجب المصير اليه.

واما البصريون فاحتجوا بان قالوا انما قلنا انه لا يجوز دخول الالف واللام الا على الاسم الاول لان الاسمين لما ركب احدهما مع الآخر تنزلا منزلة اسم واحد، واذا تنزلا منزلة اسم واحد فينبغي ان لا يجمع فيه بين علامتي تعريف . وان يلحق الثاني الاسم الاول منهما لان الثاني يتنزل منزلة بعض حروفه . وكذلك عرّفت العرب الاسم المركب[1] .

* * *

المسألة الثالثة

هل تأتي - او - بمعنى الواو وبمعنى بل ؟

ذهب الكوفيون الى ان - او - تكون بمعنى الواو وبمعنى بل.

اما الكوفيون فاحتجوا بان قالوا انما قلنا ذلك لانه قد جاء ذلك كثيراً في كتاب الله تعالى وكلام العرب قال تعالى (وارسلناه الى مائة الف اويزيدون) فقيل في تفسير ذلك انها بمعنى بل اي بل يزيدون. وقيل : انها بمعنى الواو اي ويزيدون . ثم قال الشاعر

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى
وصورتِها او انتِ في العين املح

اراد (بل) .

واما البصريون فاحتجوا بان قالوا : الاصل في او - ان تكون

---

(١) كتاب الانصاف فى مسائل الخلاف الجزء الاول ص ١٧٦ .

لاحد الشيئين على الابهام . بخلاف الواو وبل ، لان الواو معناها الجمع بين الشيئين . وبل معناها الاضراب ، وكلاهما مخالف لمعنى او ،

والاصل في كل حرف ان لا يدل الا على ما وضع له . ولا يدل على معنى حرف آخر . فنحن تمسكنا بالاصل ، ومن تمسك بالاصل استغنى عن اقامة الدليل ، ومن عدل عن الاصل بقي مرتهنا باقامة الدليل ، ولا دليل لهم يدل على صحة ما ادعوه[1] .

* * *

المسألة الرابعة

اللام الداخلة على المبتدأ لام الابتداء او لام جواب القسم ؟

ذهب الكوفيون الى ان اللام في قولهم : لزيد افضل من عمرو ، جواب قسم مقدر ، والتقدير ، والله لزيد افضل من عمرو ، فاضمر اليمين اكتفاء باللام منها . وذهب البصريون الى ان اللام لام الابتداء .

اما الكوفيون فاحتجوا بان قالوا : الدليل على ان هذه اللام جواب القسم وليست لام الابتداء ، ان هذه اللام يجوز ان يليها المفعول الذي يجب له النصب ، وذلك نحو قولهم (لطعامَك زيد آكلٌ) فلو كانت هذه اللام لام الابتداء لكان يجب ان يكون ما بعدها مرفوعاً ، ولما كان يجوز ان يليها المفعول الذي يجب ان يكون منصوبا .

واما البصريون فاحتجوا بان قالوا : الدليل على انها لام الابتداء انها اذا دخلت على المنصوب بظننت اوجبت له الرفع وازالت عنه

(١) كتاب الانصاف في مسائل الخلاف الجزء الثاني ص ٣٢٠ .

عمل ظننت ، تقول : ظننت زيداً قائماً ، فاذا ادخلت على زيد لام الابتداء قلت : ظننت لزيدٌ قائمٌ فاوجبت له الرفع بالابتداء ، بعد ان كان منصوبا ، فدل على انها لام الابتداء[1] .

* * *

المسألة الخامسة

القول في علة بناء (الآن)

ذهب الكوفيون الى ان ـ الآن ـ مبنى . لان الالف واللام دخلتا على فعل ماضٍ . من قولهم آن يئين اي حان ، وبقيَ الفعل على فتحته . وذهب البصريون الى انه مبنى ، لانه شابه اسم الاشارة .

اما الكوفيون فاحتجوا بان قالوا : انما قلنا ذلك لان الالف واللام فيه بمعنى الذى . الا ترى انك اذا قلت (الان كان كذا) . كان المعنى الوقت الذي آن كان كذا . وقد تقام الالف واللام مقام الذي لكثرة الاستعمال طلبا للتخفيف . قال الفرزدق :

ما انت بالحكم التُرضى حكومته
ولا البليغ ولا ذي الرأي والجدل

واما البصريون فاحتجوا بان قالوا : انما قلنا ذلك لان سبيل الالف واللام ان يدخلا لتعريف الجنس كقوله تعالى (ان الانسان لفي خسر) او لتعريف العهد كقوله تعالى (كما ارسلنا الى فرعون رسولاً فعصى فرعونُ الرسولَ) . او يدخلا على شيء قد غلب عليه

---

(٢) كتاب الانصاف في مسائل الخلاف الجزء الثاني ص ٢٥٤ .

نعته، فعرف به كقولك (الحارث والعباس) . فلما دخلاها هنا على غير ما ذكر ودخلت على معنى الاشارة الى الوقت الحاضر صار بمعنى قولك الآن . كقولك هذا الوقت فشابـه اسم الاشارة ، واسم الاشارة مبنى فكذلك ما اشبهه[1] .

* * *

(١) كتاب الانصاف في مسائل الخلاف الجزء الثاني ص ٢٧٠ .

الفصل الثاني عشر

تعريف اجمالي برجال مدرسة بغداد

منذ القرن الثالث الهجري اخذت المدرستان المتنافستان في البصرة والكوفة تتقاربان وتندمجان احداهما في الاخرى باطراد وسرعان ما غدت بغداد حاضرة الخلافة اللامعة مركزا للحياة العقلية كافة وحجبت غيرها من مدن الاقاليم وراء ظلالها .

حقا بقي كثير من العلماء الذين اجتذبتهم عاصمة الخلافة اليها شديدي التمسك والتعصب لمأثورات مدارسهم الاصلية ، ولكن الجيل الذي تلاهم لم يُلقِ كبير اهتمام للخلافات القديمة ، بل عمد الى انتخاب مزايا كلتا المدرستين وتوحيد هذه المزايا في مذهب جديد مختار .

وطبيعي ان هذا المذهب المختار كان متدرج النمو والاكتمال حتى ان عددا من العلماء يمكن الشك في تحديد المدرسة التي ينتمون اليها لا سيما اذا كنا لا نستطيع ان نصدر حكما على آرائهم النحوية الا بمشقة وعسر[1] .

١- ابو حنيفة[2]

المتوفى سنة ٢٨٢هـ

ابو حنيفة احمد بن داود الدينوري وهو كابن قتيبة في تعداد

(١) كتاب تاريخ الادب العربي لبروكلمان ص ٢٢١ .

(٢) تاريخ الادب العربي لبروكلمان جـ٢ ص ٢٣٠ وكتاب الفهرست لابن النديم ص ١١٦

نواحي العلم واتساع دائرة المعارف وكثرة التصنيف . اهتم بعلوم الحساب والنجوم والجغرافية والتاريخ فوق علوم النحو والعربية فوسع بكل ذلك دائرة ثقافته وعلمه . وكان الجاحظ يشبهه في سعة العلوم والمعارف بأبي زيد سهل بن احمد البلخي ، بيد ان كتابه الكبير في النبات يبدو انه نشأ عن الدراسات اللغوية اكثر من الدراسات الطبيعية والتاريخية، فان النصوص الكثيرة التي ينقلها عنه صاحب خزانة الادب تدل على انه عنى خصوصا باسماء النباتات الواردة عند قدامى الشعراء ، وله كتب اخرى مثل كتاب الانواء و كتاب القبلة والزوال و كتاب الشعر والشعراء و كتاب مايلحن فيه العامة. وتوفى ابو حنيفة الدينورى لست وعشرين ليلة خلت من جمادي الاولى سنة ٢٨٢ ه .

له من الكتب كتاب الاخبار يفتتحه بنبذة موجزة في التاريخ القديم يبرز فيها تاريخ الاسكندر والفرس ثم يتحدث باسهاب عن تاريخ الساسانيين وينتقل من ذلك الى فتح العراق مع وصف نابض بالحياة لمعركة القادسية .

٢- ابو العباس المبرد [١]

٢١٠ ـ ٢٨٥

هو ابو العباس محمد بن يزيد من الازد يعرف بالمبرد ولد سنة ٢١٠ه في البصرة وانتقل الى بغداد وكان شيخ اهل النحو والعربية واليه انتهى علمها بعد طبقة عمر الجرمي وابي عثمان المازني اللذين اخذ علمه

(١) كتاب اداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ٢ ص ١٨٦ .

عنهما . كان ابو العباس قوى الذاكرة كثير الحفظ معاصرا لثعلب . وكان حسن العبارة فصيح اللسان كثير الامالي لطلبته ولمن يدوّنون عنه ، ذكر له صاحب الفهرست ٤٤ مؤلفا في الادب واللغة والنحو والعروض والبلاغة والقرآن وصلنا منها :

١ ـ الكامل ، وهو كتاب في الادب وصفه المبرد نفسه بقوله هذا كتاب الفناه يجمع ضروبا من الادب بين منثور ومنظوم وشعر ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار خطبة شريفة ورسالة بليغة فهو يعد من كتب اللغة الممهدة للمعاجم وفيه كثير من الفوائد التاريخية .

٣ـ ابن دريد [١]

٢٢٣ ـ ٣٢١

هو ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد ولد في البصرة سنة ٢٢٣ ونشأ وتعلم فيها واخذ النحو عن السجستاني والرياشي . وانتقل عند ظهور الزنج الى عمان اقام فيها ١٢ سنة وعاد الى البصرة ثم رحل الى نواحي فارس وصحب ابني ميكال وهما يومئذ على عمالة فارس وألّف لهما كتاب الجمهرة في اللغة وهو اهم مؤلفاته بالنظر الى اللغة لانها معجم مرتب على احرف الهجاء اتبع في ترتيبه ترتيب كتاب العين للخليل . فقلداه الديوان وكان لا يُنفّذ امر الا بعد توقيعه . ثم انتقل الى بغداد سنة ٣٠٨ هـ بعد عزل ابنى ميكال عن فارس فأجرى عليه الخليفة المقتدر خمسين دينارا في الشهر الى وفاته سنة ٣٢١ هـ .

وقد نبغ ابن دريد في اللغة وكان من اكابر علمائها وكان شاعرا

---

(١) كتاب اداب اللغة لجرجي زيدان ج ٢ ص ١٨٨ ،

وله المقصورة المشهورة التي مطلعها :

إمّا ترى رأسيَ حاكى لونُــه
طـرة صبح تحت اذيال الدجى
واشتعـال المبيض في مسـوده
مثل اشتعال النار في جزل الغضى

عدد ابياتها ٢٢٩ بيتا وفيهـا كثير من آداب العرب واخبارهم وحِكَمِهم وامثالهم وعارضهبها جماعة من الشعراء. وشرحها كثيرون، وله قصائد اخرى . وعُدَّ بين علماء اللغـة لان اكثر كتبه فيها حتى قالوا انـه قام مقام الخليل بن احمد وأورد في اللغة اشياء لم توجد في كتب المتقدمين . وذكر له صاحب الفهرست ١٩ مؤلفا منها كتاب الجمهرة المتقدم ذكره ومنها كتاب الاشتقاق في اسماء القبائل والعمائر وافخاذها وبطونها وساداتها وشعرائها وفرسانها على شكل المعاجم .

٤- الصولي

المتوفى سنة ٣٣٥ هـ

هو ابو بكر محمد بن يحيى الصولي الشطرنجي من الادباء الظرفاء الجماعين للكتب . كان جده صول تكين اميرا تركيا بجرجان قهـره يزيد بن المهلب فاسلم على يده ثم خرج معه على بني امية وقتل معه . كان ابو بكر هذا عالما بفنون الادب حسن المروءة حسن المعرفـة بآداب الملوك حاذقـا بتصنيف الكتب . وكان العبَ اهل زمانـه بالشطرنج . وكان ينادم بعض الخلفاء كالمكتفي والمقتدر . وكان المقتدر يحبه ويعظمه ويلعب معه الشطرنج ومن ثم سُمّى الشطرنجي.

وكان يؤدب الراضي الذي ولي الخلافة بعد ذلك ويؤدب أخاه هارون فأدناه الراضي حين ولي الخلافة . ولما توفي الراضي سنة ٣٢٩ هـ وولي بعده المتقي ابعد حاشية الراضي لعدم رغبته في الجلساء والندماء. فسافر الصولي الى بحكم التركي حاكم واسط فأكرمه وقربه . ولما مات المتقي سنة ٣٣٣ هـ عاد الصولي الى بغداد وصار يتظاهر بحب العلويين بدون مواربة فطرده الخليفة مرة اخرى من بغداد واختفى بالبصرة الى ان توفي بها سنة ٣٣٥ هـ .

الف في اخبار الخلفاء والشعراء كتابا سماه الاوراق في اخبار آل العباس واشعارهم. قال ابن النديم انه لم يتممه. وذكر[1]. ان في المكتبة الخديوية كتابا باسم الصولي هو من قبل اخبار الشعراء رتب اسماءهم على احرف الهجاء. واكثره في اخبار ابان اللاحقي شاعر البرامكة وابنائه كحمد بن ابان وابان بن حمدان. واخبار اشجع السلمي مرتبة في ابواب . واحمد بن يوسف وزير المأمون وابن صبيح كاتب دولة بني العباس . وجاء في آخر الكتاب انه شرع بترجمة اسحاق بن ابراهيم الموصلي وتوفى قبل ان يتمها .

وصنف ابو بكر من اشعار المحدثين على حروف المعجم شعر ابن الرومي وابي تمام والبحتري وابي نواس والعباس بن الاحنف وعلي بن الجهم وابن طباطبا وابراهيم بن العباس بن عُيينه بن شراعة الصولي .

---

(١) تاريخ اداب اللغة العربية للاستاذ جرجي زيدان ، الجزء الثاني ص ١٧٥ .

ابو الفرج الاصبهاني

٢٨٤ ـ ٣٥٦ هـ

هو ابو الفرج علي بن الحسين عربي الاصل اموي النسب اصبهاني المولد بغدادي النشأة ، وكان من اعيان ادبائها وافراد مصنفيها ، وقد روى عن كثير وطالع كثيرا من الكتب ، وكان قوى الحافظة واعيا في ذاكرته الوفا من الاشعار والاغاني والاخبار والاحاديث والانساب باسانيدها واسماء رواتها وقائليها فضلا عن توسعه في اللغة والنحو والسير والمغازى والعلوم .

ولم يقتصر من العلم على الحفظ والاختزان لكنه تدبر تلك المعارف واخرج منها كتبا نافعة اشهرها الاغاني وبه اشتهر وقد وقع الاتفاق على انه لم يعمل مثله في بابه ويقال انه اشتغل في جمعه وتأليفه نحو خمسين سنة وبلغ خبره الى الحكم بن الناصر صاحب قرطبة وهو اموي مثله فسأله ان يرسل الكتاب اليه قبل اخراجه لبنى العباس . ولما تم تأليفه حمله الى سيف الدولة فاعطاه الف دينار واعتذر اليه . ولم يبق احد من الامراء الا اقتناه ليستغني به عن سواه . حتى قالوا ان الصاحب بن عباد كان اذا سافر حمل كتبه على عشرات من الجمال فلما اقتنى كتاب الاغاني استغنى به عنها وقالوا لولا كتاب الاغاني لضاع كثير من اخبار الجاهلية والاسلام .

وهو اجزاء كثيرة وصل الينا منها (٢١) جزءا ، واسم الكتاب

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ٢ ص ٢٨١ . وتاريخ ادب اللغة العربية لاحمد حسن الزيات ص ٢٩٠ .

يدل على المراد بوضعه في الاصل الاغـاني فصدر بمائة صوت . كان الرشيد امر ابراهيم الموصلي مغنيه وغيره ان يختاروها له . واهمية هذا الكتاب قائمة بمـا فيها من الاخبار والاشعار ، لان المؤلف اذا ذكر ابياتا على لحن وعين نغمها ومن غناها استطرد الى ذكر ناظمها وترجمته والاحوال التي قيلت فيها من حرب او حب في الجاهلية او الاسلام ، فاحتوى الكتاب على اخبار مئات من الشعراء والادباء والمغنين والعشاق والخلفاء والامراء والقواد واكثر ايام العرب واخبار قبائلهم وأنسابهم وفيه ذخيرة اشعار الجاهلية والاسلام وآداب العرب في طعامهم وشرابهم واجتماعهم وحروبهم وزواجهم وطلاقهم وسائر احوالهم . ولد سنة ٢٨٤ وتوفي سنة ٣٥٦هـ .

ابو علي القالي

٢٨٨ ـ ٣٥٦

هو اسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان وكان جده سليمان مولى لعبدالملك بن مروان الاموي .

ولد ابو علي بمنازجرد من ديار بكر سـنة ٢٨٨هـ فنشأ بها ورحل منها الى العراق لطلب العلم والتحصيل . وسبب تسميته بالقالي يشرحها هو نفسه حيث قال :

« لما انحدرنا الى بغداد كنا في رفقة كان فيها اهل قالي قلا وهي قرية من قرى منازجرد وكانوا يكرمون لمكانهم من الثغر فلما دخلنا بغـداد نُسبت اليهـم لكوني معهم وثبت ذلك عليّ » ، واما تسميته بالبغدادي فلطول مكثه ودراسته في بغداد مدة خمسة وعشرين سنة

درس فيها علم الحديث واللغة والادب على كبار علمائها وجهابذة اللغة والرواية فيها .وعدّه المؤرخون اماما في علم اللغة ، متقدما فيها ،متقنا لها ، فاستفاد الناس منه وعولوا عليه واتخذوه حجة فيما نقله . وكانت كتبه في غاية التقيد والضبط والاتقان ، وقد ألف في علمه الـذى اختص به تآليف مشهورة تدل على سعة علمه وروايته .

ولما ذاع صيته وعمت شهرته استدعاه الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي رفـع شأن العلوم والفنون في الاندلس فكتب اليه يرّغبه في الوفود عليه للاستفادة من معارفه وعلومه. فلبى دعوته وعندقدومه الى الاندلس أستقبل استقبالا عظيما حتى كان وليُّ عهد الحكم ووزراءوالده ووجوه رعيته في مقدمة المستقبلين والمحتفين به،وحين وصل انزله الخليفة الناصر قرطبة معززا مكرما واختصه بتعليم ولي عهده الحكم فأورث أهل الاندلس علمه وافاد الحكم باحسن ماعنده.

وقضى ابو علي القالي بالاندلس عمره ، وهناك املى كتبه عن ظهر قلب ، وتوفي بقرطبة في شهر ربيع الآخر وقيل جمادي الاولى سنة ٣٥٦هـ ليلة السبت لست خلون من الشهر المذكور وصلى عليه عبدالله الحيرى ودفن بمقبرة متعة ظاهر قرطبة رحمه الله .

الفصل الثالث عشر

ابو الطيب المتنبي

٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ

ثقافته ، نفسيته ، ذكاؤه ، هجرته من الشام الى مصر ، هربه من مصر الى فارس ، عودته الى العراق ومقتله ، اتهامه بالنبوة . الحكمة في شعره ، سر العبقرية فيه .

هو احمد بن الحسين بن عبدالصمد المعروف بالمتنبي . ولد بالكوفة سنة ثلاث وثلثمائة في محلة كندة ودرس علوم العربية فيها . ثم سافر به ابوه الى البادية ليتخرج في آدابها وظل يتنقل به في احياء العرب حتى بلغ الشام فعكف على الدرس وحذق كثيرا من مفردات اللغة ورسائلها كما حفظ كثيرا من اشعار العرب واراجيزهم .

وقيل عنه انه في هذه الفترة طمع الى الحكم ودعا الناس الى بيعته بالخلافة اذ وجد نفسه أحق بها من هؤلاء الحكام الصعاليك ، وقيل انه فتن بعض لداته من الفتيان فادعى بينهم النبوة وتبعه منهم خلق كثير فخرج اليه لؤلؤ امير حمص نائب الاخشدية فاسره وحبسه ثم استتاب وأطلقه .

ثقافة المتنبي

كل ما عرف عن ثقافة المتنبي في صغره ان اباه ارسله الى كتّاب في الكوفة فتعلم فيه دروس العربية شعرا ولغة واعرابا [1] ، وبعد ان

---

(١) خزانة الادب ج ٢ ص ٣٠٣ .

نال درجة من العلم والادب خرج به ابوه الى البادية ليأخذ عن اهلها البيان مشافهة ولبث فيها سنين حتى نضج عقله واستقام لسانه ونشأ في نفسه ولع شديد بالمطالعة وحب البحث وصار لايفارق اسواق الوراقين .

رَوَى ابو الحسن العلوي ان وراقا كان يجلس اليه المتنبي . قال الوراق له يوما ما رأيت احفظ من هذا الفتى ابن عيدان . فقلت له وكيف ؟ قال كان اليوم عندي وقد احضر رجل كتابا من كتب الاصمعي فيه نحو ثلاثين ورقة لبيعه . قال فأخذه هذا الفتى وصار ينظر فيه طويلا فقال له صاحب الكتاب ياهذا اريد بيعه وقدقطعتني عن ذلك . فان كنت تريد حفظه في هذه المدة فبعيد . فقال له المتنبي ان كنت حفظته فمالي عليك ؟ قال صاحب الكتاب اهبه لك .قال: فاخذت الدفتر من يده فاقبل يتلوه عليّ الى آخره ثم استلبه فجعلهفي كمه . فقام وعلق به صاحبه وطالبه بالثمن فقال ما الى ذلك سبيل قد وهبتهلي .قال فمنعنا صاحبه منه . وقلناله انت شرطتعلى نفسك، هذا للغلام فتركه عليه .

ولقد حدث عنه البغدادي فقال : كان المتنبي في صغره قد وقع الى واحد من فلاسفة الكوفة يُكنَّى ابا الفضل فأخذ عنه ما عنده . ثم قال البغدادي ، نقلا عن ابي الحسن المعروف بالناشي، الاصغر انه قال : كنت بالكوفة سنة ٣٢٥وانا أُملي شعري في المسجد الجامع بها والناس يكتبون عني وكان المتنبي اذ ذاك يحضر معهم وهو بعد لم يُعرَف ولم يلقّب بالمتنبي .

وحدث عنه وكيل داره بحلب قال : كان المتنبي يقبل على دفاتره كل ليلة للدرس وقد لا يأوي الى فراشه الا بعد منتصف الليل[1] .

وقال عنه صاحب اليتيمة انه نادرة الفلك وواسطة العقد في صناعة الشعر ثم هو شاعر سيف الدولة المنسوب اليه المشهور به حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر وسافر كلامه في البدو والحضر وكادت الليالي تنشده والايام تحفظه فهو كما قال عن نفسه :

وما الدهر الا من رواة قصائدي
اذا قلت شعرا اصبح الدهر منشدا
فسار بـه من لا يسير مشمّرا
وغنّى بـه من لا يغنّي مغـردا

وكان المتنبي محيطا بغريب اللغة احاطة تامة .

ذكر ابن خلكان ان اباعلي الفارسي قال له يوما كم لنا من الجموع على وزن فِعلى فأجابه حِجلى وظِربى . قال ابو علي طالعت كتب اللغة ثلاث ليال على ان اجد لهذين الجمعين ثالثا فلم اعثر على شيء من هذه النصوص الثابتة .

نستدل على ان ثقافة المتنبي تكونت من شغفه بالقراءة ومجالسة العلماء والادباء وقرض الشعر وما في ذاتيته من استعداد .

نفسية المتنبي وذكاؤه

كان ابو الطيب منذ صباه قد بدت عليه مخايل الذكاء والنجابة وكان صاحب نفس طموحة وآمال واسعة وهمة عالية وكان جبار

---

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ٦١٥ ومعجم البلدان ج ٥ ص ٢٨ .

العقل ثبت الجنان قوي الحافظة سريع الادراك كثير الاعتداد بنفسه يرى مستواه فوق مستوى اهل زمانه .

ان اكن ُمعجَباً فعجب عجيب
لم يجد فوق نفسه من مزيد
انا ترب الندى ورب القوافي
وسمام العدى وغيظ الحسود
انا في امة تداركها الله
غريب كصالح في ثمود

لذلك رام أبعد مايرومه اقرانه ، وظلت هذه الروح العالية ملازمة له طول حياته حتى عرضته الى مخاطر وأهوال منذ نشأته الى يوم مقتله . والذي دعاه الى ذلك ذكاؤه وعبقريته الادبية التي تميز بها عن جمهرة كبيرة من الشعراء . ثم ان الزمن الذي عاشه المتنبي كان زمن انحلال الدولة العربية حتى صار كل والٍ من ولاتها يرى انه أحق من غيره بالملك مع ان اغلبهم من الموالي .

شاهد المتنبي جميع هذه الاحداث تمر امام عينيه وتتمثل على مسرح امته فعزّ عليه ان لا يكون أحد هؤلاء الحكام الذين هم في نظره ليسوا باعلى منه همة ونسبا وذكاء . فدعته نفسه ان يعمل كل ما وسعه لاشباع تلك الرغبة وتحقيق هذا الهدف فأخذ يجوب الامصار والبوادي وينشد :

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها
فمفترق جاران دارهما العمر

ولا تحسبنّ المجد زقا وقينة
فما المجد الاّ السيف والفتكة البِكر

وتضريب اعناق الملوك وان تُرى
لك الهبوات السود والعسكر المجر

وتركُك في الدنيا دوياً كأنما
تداولُ سمعَ المرء أنملُه العشر

اسباب هجرة المتنبي من الشام

جاء في كثير من الكتب التي تناولت حياة المتنبي ان مناقشة حادة جرت في مسائل لغوية بين ابي الطيب وأبي عبدالله بن خالويه النحوي بحضرة سيف الدولة. فقال المتنبي لمناظره اسكت ويحك فانت اعجمي فمالك وللعربية فأخرج ابن خالويه من كمه مفتاحا وضرب به وجه المتنبي فسال الدم على وجهه وثيابه ولم ينتصر له سيف الدولة فغضب المتنبي وفارقه وسار الى دمشق سنة ٣٤١ هـ.

ولما علم كافور الاخشيدي حاكم مصر وكانت دمشق حينذاك تحت حكمه استدعاه الى مصر فرحل اليه فاكرمه كافور ووضعه في صف الشرفاء والنبلاء وطالبه بمدحه كما كان يمدح سيف الدولة فمدحه لرعايته له ولطمعه في امارة احدى ولاياته من جهة ولاغاظة اعدائه من جهة اخرى قال فيه :

ولكن بالفسطاط بحرا أزرته
حياتي ونصحي والهوى والقوافيا

وُجردا مددنا بين آذانها القنـا

فَبِـتنَ خِفـافا يتبعن العواليـا

قـواصد كافور توارك غـيره

ومن قصد البحر استقل السواقيا

فجاءت بنـا انسان عين زمانـه

وخلّت بياضـا خلفهـا ومآقيـا

فتى ما سرينا في ظهور جدودنا

الى عصره الاّ نرجى التلاقيـا

ابا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقا

اليه وذا الوقت الذي كنت راجيا

اذا كسب الناس المعالي بالنـدى

فانك تعطى في نـداك المعاليـا

وغير كثير ان يزورك راجـل

فيرجـع مَلكاً للعراقين واليـا

ابا كل طيبٍ لا ابا المسك وحده

وكل سحاب لا أخصّ الغـواديا

يُـدِل بمعنىً واحدٍ كل فاخر

وقد جمع الرحـن فيك المعانيـا

وانت الـذي تغشى الاسنة اولا

وتأنف ان تغشـى الاسنة ثانيا

ولمـا طلب المتنبي منه ان يوليه على صيدا من بلاد الشام امتنع كافور عن اجابته مخافة ان يستقل بها ويخرج عليه فوقعت بينها الوحشة.

رحيل المتنبي عن مصر وذهابه الى فارس

واخيراً مقتله في دير العاقول

وهكذا ظل المتنبي يداهن كافور وكافور يمسكه ويبث حوله العيون ، وبدت القطيعة تأخذ مجراها الى قلبيهما وبدا المتنبي يقول في كافور شعرا له معنيان ظاهر وباطن :

اغالب فيك الشوق والشوق اغلب
واعجب من ذا الهجر والوصل اعجب
اذا ترك الانسان اهلا وراءه
ويمم كافورا فما يتغرب
ابا المسك هل في الكأس فضل اناله
فاني اغنّي منذ حين وتشرب

فانه في الشطر الاخير يحتمل ان جعله حيوانا لا يشرب الماء حتى يُغنَى له بالصفير . وكذلك قوله :

وما طربي لما رأيتك بدعة
لقد كنت ارجو ان اراك فاطرب

فقد قالوا عنه انه ما زاد الا ان جعله قردا يضحك الناس عليه حين يرونه .

وكقوله :

عدوك مذموم بكل لسان
ولو كان من اعدائك القمران

ولله سر في علاك وانما
كلام العدا ضرب من الهذيان

قال ابن جني[1] هذا المدح ينعكس هجاء فان معناه انت رذل ساقط والساقط لا يضاهيه الامثله . واذا كان معاديك مثلك فهو مذموم بكل لسان كما انك كذلك ولو عاداك القمران وهما الشمس والقمر . وما قيمة الانسان الذي يذمه القمران اللذان عم نفعهما وارتفعت منزلتهما على الكائنات .

اما البيت الثاني فقد قال عنه الواحدي وهذا الى الهجاء اقرب. لانه نسب علوه على الناس الى قَدَر جرى به من غير استحقاق . والقَدَر قد يوافق بعض الناس فيعلو ويرتفع على الاقران وان كان ساقطا باتفاق من القضاء .

* * *

ولما سنحت الفرصة لرحيل المتنبي عن مصر فرّ في ليلة عيد الى الكوفة ومن هناك الى شيراز في فارس . وكان الناس مشغولين بمراسيم العيد فلم يتنبهوا الى فراره الا ثاني يوم العيد .

اما كافور فقد ارتاع لهربه ولم يترك وسيلة تخطر بباله الا التمسها واستعان بها على رده فلم يفلح حتى قال الناس من فرط الحيرة والدهش لقد سلك طريقا تحت الارض .

ووقعت للمتنبي في هذه الرحلة حوادث تحدث عنها في شعره وذكرها صاحب يتيمة الدهر وصاحب كتاب الصبح المنبي عن حيثية المتنبي .

(١) الجزء الثاني من شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ص ٤٧٤ .

وبعد ان بلغ الكوفة سافر منها قاصدا عضد الدولة ولما وصل اليه اكرمه واغدق عليه العطاء. ولكنه مع ذلك فقد كان يحن الى سيف الدولة والى عطاياه. وقد ظهر ذلك عليه حين ارسل اليه عضد الدولة من يسأله اين عطاء عضد الدولة من عطاء سيف الدولة فقال له عطاء عضد الدولة أجزل الا انه متكلف. وسيف الدولة كان يعطي طبعا، فغضب عليه عضد الدولة وجفاه مما حمل المتنبي للقفول الى العراق. ولما بلغ ضيعة قريبة من دير العاقول في واسط طلع عليه رجل من بني أسد يقال له فاتك بن ابي جهل ومعه جماعة من قومه فقتلوا المتنبي وابنه وغلمانه في يوم السبت لثلاثَ عشرةَ ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ٣٥٤ هـ.

* * *

اتهام ابي الطيب بالنبوة

لم اجد اتهاماً اشنع من اتهام ابي الطيب بادعائه النبوة، بل ولا اسخف منه. ولكن، هكذا درج ذوو الطبائع المغرضة على خلق التلفيقات ولصقها باصحاب النفوس العالية، والمواهب النادرة، لاطفاء جذوة الحقد والحسد المتقدة في قلوبهم، متوهمين ان مثل هذه الاتهامات تَشفي ما في صدورهم من غِلّ، وما في طبائعهم من اعوجاج.

ان كل ما قيل في امر ادعاء المتنبي النبوة مبني على خبر آحاد لا يصح ان يكون مرجع حكم شرعي. نقله رجل يُدعَى (معاذ بن اسماعيل اللاذقي ويكنى بابي عبدالله قال[1]:

(١) الصبح المبنى عن حيثية المتنبي ص ٣٣.

قدم ابو الطيب المتنبي ، في سنة نيف وعشرين وثلثمائة ، وهو لا عِذار له، وله وفرةٌ الى شَحمتَي أذنيه فا كرمته وعظمته ، لما رأيت من فصاحته ، وحسن سمته .فلما تمكن الانس بيني وبينه ،وخلوت معه في المنزل اغتناماً لمشاهدته ،واقتباساً من ادبه . قلت : والله انك لشاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير .

فقال ويحك ، اتدري ما تقول : انا نبي مرسل ، فظننت انه يهزل ، ثم تذكرت اني لم اسمع منه كلمة هزلٍ منذ عرفته ، فقلت له: ما تقول ؟ فقال : انا نبي مرسل . فقلت له الى من مرسل ؟ . فقال: الى هذه الامة الضالة . فقلت : تفعل ماذا ؟ قال املأُ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً ، قلت: بماذا ؟قال بادرار الارزاق ،والثواب العاجل لمن اطاع وأتىَ . وبضرب الرقاب لمن عصى وأبى . فقلت له : ان هذا امر عظيم اخاف عليك منه ، وعذلته على ذلك . فقال بديهة :

ابا عبدالاله معاذ أنى
خفى عنك في الهيجا مقامي
ذكرت جسيم ُمطلبي واني
اخاطرُ فيه بالمهج الجسام
أمثلي تأخذ النكباتُ منه
ويجزع من ملاقات الحِمام
ولو برز الزمان إلى شخصاً
لخضب شعر َمفرقه حسامي
وما بلغت مشيئتها الليالي
ولا سارت وفي يدها زِمامي

اذا امتلأت عيون الخيل مني
فويلٌ في التيقظ والمنام

فقلت: ذكرت انك نبي مرسل الى هذه الامة. أفيوحى اليك؟ قال: نعم. قلت: فاتل على شيئاً مما أوحى اليك. فأتاني بكلام ما مر بسمعي احسن منه. فقلت: وكم أوحى اليك من هذا؟ فقال: مائة عبرة واربع عشرة عبرة. قلت: وكم العبرة؟ فأتى بمقدار اكبر من الآيات في كتاب الله تعالى، قلت في كم مدة اوحى اليك؟ قال: جملة واحدة قلت: اسمع في هذه العبرات ان لك طاعةً في السماء فما هي؟ قال: احبس المدرار لقطع ارزاق العصاة والفجار. قلت: اتحبس في السماء مطرها؟ قال: اي والذي فطرها. أما هي معجزة؟ قلت بلى والله. قال: فان حبست المطر عن مكان تنظر اليه ولاتشك فيه، هل تؤمن بي وتصدقني على ما أوتيت من ربي؟ قلت: اي والله قال: سأفعل، ولا تسلني عن شيء بعدها، حتى آتيك بهذه المعجزة، ولا تظهر شيئاً من هذا الامر حتى يظهر، وانتظر ما وُعدته من غير ان تسأله. ثم قال لي بعد ايام: اتحب ان تنظر المعجزة التي جرى ذكرها؟ قلت اي والله. فقال لي: اذا ارسلت لك هذا العبد فاركب معه ولا تتأخر، ولا تخرج معك احداً. فقلت: نعم. فلما كان بعد ايام تغيمت السماء في يوم من ايام الشتاء. واذا عبده قد اقبل فقال: يقول لك سيدي. اركب للموعد. فبادرتُ الى الركوب معه. وقلت: اين ركب مولاك؟ قال الى الصحراء، واشتد وقع المطر. فقال بادر بنا حتى نستتر من هذا المطر مع مولاي، فانه ينتظرنا باعلى تل لا يصيبه فيه المطر. قلت: وكيف عمل؟ قال اقبل الى السماء

اول ما بدأ السحاب الاسود وهو يتكلم بما لا افهم والمطر في اشد ما يكون ، ونظرتُ الى نحو مئتي ذراع في مثلها من ذلك التل ما فيه قطرة فسلمتُ عليه فرد علي السلام فقلت ابسط يدك اشهد انك رسول الله ، فبسط يده فبايعته بيعة الاقرار بنبوته . ثم قال .

أيّ محل ارتقى　　　أيّ عظيم اتقى
وكل ما قد خلق　　　الله وما لم يخلق
محتقرٌ في همتي　　　كشعرة في مفرقي

واخذتُ بيعته لاهلي، ثم صح بعدذلك انالبيعة عمت كلمدينة في الشام ، وذلك باصغر حيلة تعلمها من بعض العرب ، وهي صدحة المطر يصرفه بها عن اي مكان احب بعد ان يحوِي بعصا ، وينفث في الصدحة التي لهم .

قال الراوي ابو عبدالله . وقد رأيت كثيراً منهم بالسكون وحضر موت والسكاسك من اليمن يفعلون هذا ولا يتعاظمونه، حتى ان احدهم يصدح عن غنمه وإبله وعن القرية فلا يصيبها شيء من المطر ، وهو ضرب من السحر[1] . وسألت المتنبي بعد ذلك : هل دخلت السكون ؟ قال نعم ، اما سمعت قولي :

مُلث[2] القطر اعطشها ربوعا　　　والافاسقها السم النقيعا
امنسى السكون وحضرموتا　　　ووالدتي و كندة والسبيعا

فقلت : من ثم استفاد ما جوزه على طغام اهل الشام .

* * *

كان بودى ان اهمل ذكر هذه القصة ، لانها قصة جاء بها رجل

(١) هذه خرافة لا تصدق ،　　(٢) الملث : الدائم المقيم .

اعترف بانه آمن به ، وبايعه على اعتباره نبيا مرسلا ، كما انه اخذ البيعة له من اهل بيته ، فهو بهذا الايمان والمبايعة ، قد حكم على نفسه بالكفر والفسوق والردة ، واذا كان راوي القصة هذا شأنه ، فكيف نأخذ بروايته وكيف نصدق اتهام ابي الطيب بادعائه النبوة؟

ثم ان خبر هذا الرجل خبر آحاد فلا يصح ان يكون مرجع حكم شرعي ولا يجوز مطلقا ان نكفر به رجلا مسلما آمن بالله وبرسالة محمد بن عبدالله . في كل قصيدة من قصائده .

واذا صح ما نقله هذا الراوي فهو احد رجلين ، اما انه مغفل كان موضع تندر ابي الطيب يسخر منه ويستهزي به . واما انه ذكي يحقد على ابي الطيب فحمله حقده الى اختلاق هذه الفرية ، حتى ادخل نفسه في الكفر فلم يعد يعلم موقع خبره عند العقلاء .

انا لا نلوم ناقل هذا الخبر ، ولكن اللوم كل اللوم على الذين يصدقونه ، ويبنون احكامهم على الكذب . حتى اخذ بعض النقاد يفسر بعض ابيات ابي الطيب على هذا الاعتبار تفسيراً خاطئاً فيستنتج منه صحة ادعاء ابي الطيب النبوة كقوله :

ما مقامي بارض نخلة الا كمقام المسيح بين اليهود
انا في امة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

ومما يؤيد صحة ما ذهبنا اليه من ان ابا الطيب ما ادعى النبوة ، ولم يكن من السذاجة الى الحد الذي يقبل على نفسه هذا الادعاء . ما ذكره الدكتور طه حسين في كتابه مع المتنبي[1] حيث يقول :

(١) كتاب مع المتنبي ص ٩٩ . نخلة ـ بالخاء ـ راجع معجم البلدان لياقوت .

(وانا لا اتردد في رفض مايروى من أن اباالطيب ادعى النبوة، وأحدث المعجزات ، او زعم إحداثها ، وضلل فريقاً من خاصة الناس وعامتهم فبايعوه واتبعوه ، كما لا اتردد في رفض هذا! السخف الذي ينبئنا بان المتنبي زعم ان له قرآناً أُنزل عليه ، وبان بعض الناس قد حفظ هذا القرآن ، فقد قيل عن ابي العلاء ، ورُوى بعض قرآنه الموهوم ، وما ينبغي ان نجهل ان الرأي العام في اوساط الشام وفي حمص خاصة كان خصماً لابي الطيب حين سُجن ، وان ابا الطيب بعد خروجه من السجن كان لا يكاد يستقر في مكان ، حتى يثير حول نفسه الحسد والبغض والوان الخصومات) .

اما المرحوم عباس محمود العقاد فقد ذكر قصة هذا الافتراء ذكراً مجملاً ، فصدر كلامه فيها بقوله : قيل انه ربما آنس من نفسه قدرة يطمح بها الى دعوة النبوة ، وهو في نحو العشرين ... ولا يبعد ان يكون الرجل قد فعلها في دفعة من دفعات الصبا والغرور . لانه نشأ في عصر المغامرات في طلب الرياسة ديناً ، ودنيا . وشهد بعينه من الفتن الدينية على عهد القرامطة مايوسوس للطامع على غراره بتجربة حظه في احدى مغامراتها ، واختلطت في زمانه دعوة الباطنية بدعوة القرامطة ، وكان يزعم الزاعمون ان هؤلاء يدينون ـ بالمانوية ـ اى بالاصلين النور والظلمة . وهي النحلة القديمة التي ذكرها المتنبي في شعره بقوله :

وكم لظلام الليل عندك من يد
تُخبر ان المانوية تكذب

ولعله لقى اناساً من اتباعها من المجوس في الكوفة ، لقربها من البلاد الفارسية . وسمع من اسرار الفلسفة ما - هوسه - واضله كما قال بعض مؤرخيه ، ثم ذهبت صدمة التجارب بغواية هذه الهوسة الصبيانية ، وتركت بعدها - هوسته التي لم تفارقه بطلب الرياسة من طريق الولاية ... ولنذكر كذلك : ان افتراء هذه القصة غير بعيد على خصومه . وان العلامة ابن جنى ربما كان قد ذكر الصواب حين قال : انه لُقب بالمتنبي بقوله :

انا فى امـة تدار كها اللـّـ ـه غريب كصالح في ثمود
ما مقامي بارض نخلة الا كمقام المسيح بين اليهود[1]

الحكمة فى شعر المتنبى

الحكمة وضع الاشياء في مواضعها . أو هي معرفة افضل الاشياء بافضل العلوم ، أو هي الكلام الذي يقل لفظه ويجل معناه . او هي اتقان العمل وفق ما يقتضيه العلم . ثم ان الحكمة هبة من الله يؤتيها من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ومـا يذكر الا اولو الالباب .

ونحن اذا تصفحنا الكتب التي ألفت في المتنبي وجدناها تكاد تجمع على ان شعر هذا الشاعر العظيم حافل بالحكمة زاخر بجلائل الافكار معبر عن اهم تجارب الحياة موسوم بالعلم والاتقان . لذلك سار شعره مسير الشمس في رائعة النهار .

لقد رأى المتنبي بقوة بصيرته وكثرة تجاربه ان حياة الناس مليئة

(١) كتاب تراث الانسانية المجلد الاول ص ١٠ ،

بالمتناقضات . وان ملابساتها قد تضطر بعض الخيرين ان يتصرفوا خلاف ما تتطلبه الضمائر الحرة الأبية ورآهم في حالة حرجة يقدمون فيها رجلا ويؤخرون عنها اخرى فجاء المتنبي وقال قولته المشهورة:

ومن نكد الدنيا على الحران يرى

عـدواً له مـا من صداقته بـد

وبهذا وجد كرماء النفوس في شعر المتنبي متنفسا عن هذا العسر الذى ضاقت بـه صدورهم وتألمت منه ضمائرهم . ذلك لان المتنبي يرى ان الاحرار قدلا يجدون مندوحة في بعض الاحوال عن مصانعة اعدائهم ومداراتهم ليأمنوا شرهم ويدفعوا غائلتهم .

ثم نظر المتنبي الى طبيعة هذه الحياة فوجدها مجموعة من المفارقات ايضا اذ رأى ذوى الفضل العميم والـذكاء المفرط في مضطرب من الهموم بينما رأى البلداء في دعة وغفلة منها فهاله الامر وأخذ يتحرى الاسباب فوجد ان توقد الذهن يورث صاحبه الهم والقلق بينما رأى خلو الفطنة سبباً لفقدان الهم والالم . فقال لاصحاب الفضل والذكاء لا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم حقـا من ذوي الفطنة والفضل وممن يتفكرون في عواقب الامور . هذه هي سنة الحياة ، الذكاء شقاء الاذكياء والبلادة سعادة المغفلين .

افاضل الناس اغراض لذا الزمن

يخلو من الهم اخلاهم من الفطن

وهكذا ترى الحكمة مبثوثة في قصائده منظومة في قلائده .

ذو العقل يشقى في النعيم بعقلـه
واخو الجهالة في الشقاوة ينعـم
لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى
حتى يراق على جوانبـه الـدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عـفة فلعلـة لا يظـلم
ومن البلية عذل من لا يرعوى
عن جهله وخطاب من لا يفهم
والـذل يظهر في الذليل مـودة
وأود منـه لمـن يود الارقـم
ومن العـداوة ما ينالك نفعـه
ومن الصداقة مـا يضر ويـؤلم

وكقوله :

وحيد من الخلان في كل بـلدة
اذا عظم المطلوب قـل المساعد
بذا قضت الايام ما بين اهلهـا
مصائب قوم عند قـوم فوائـد

وكقوله :

واذا مـا خلا الجبـان بأرض
طلب الطعـن عندها والـنزالا

من اطاق التماس شيء غلابا
واغتصابا لم يلتمسه سؤالا
كل غاد لحاجة يتمنى
ان يكون الغضنفر الرئبالا

وكقوله :

اذا الجود لم يرزق خلاصاً من الاذى
فلا الحمد مكسوبا ولا المال باقيا
وللنفس اخلاق تدل على الفتى
اكان سخاء ما اتى أم تساخيا

سر العبقرية في المتنبي

العبقرية قوة خفية يتفوق بها بعض الناس في فن من فنون الحياة ويأتي بالعجائب التي تدهش العقول وتلعب بالعواطف والالباب .

وسر العبقرية في المتنبي هي انك تقرأ شعره فيتملكك العجب مما يأتيك به من جوامع الكلم واوابد الافكار مصورة باعذب الانغام والالحان . ثم انك تجد جميع معلوماتك ومشاعرك واحلامك وامانيك مرسومة فيه بأوضح مما هي في نفسك . وانه قد سبقك اليها بمدى واسع بعيد .

من هنا يأخذك العجب وتتمنى لو تعلم السر الذي لقنه هذا العلم وأمده بهذه المعرفة الشاملة بطبائع الناس وخلجات النفوس وأوحى اليه بهذه المعاني الرقيقة والالفاظ الفخمة فجعلك تقف مبهوتا مدهوشا

ممـا انت فيه من شدة الحيرة في تعليل هذا النوع . وتزداد عندك هذه الحيرة حين تعلم ان المتنبي ليس ممن اسعفهم الحظ واتيح له ان يدرس دراسات فنية عميقة واختبارات علمية واسعة . من هنـا جاز لنا ان نقول انه ليس للباحث في اسرار هذه العبقرية الا ان يؤمن بأن من الناس ناساً يُلهمون التفوق فيما اختصوا به الهاما ويكونون اوتارا للطبيعة تضرب عليها اغانيها الشجية والحانها الساحرة . وان المتنبي بدون شك كان اصدق هذه الاوتار .

لقد عاصر المتنبى شعراء كثيرين عاشوا معـه فى بيئة واحدة ومارسوا معه تجارب واحدة ولكنهم لم يبلغوا شأوه ولم يلحقوا بغباره ، وما ذلك الا للتفاوت البعيد بينه وبينهم فى الموهبة والعبقرية .

وانمـا نحن فى جيـل سواسية
شر على الحر من سقم على بدن
حولي بكل مكان منهم خَلَق
تخطى إذا جئت فى استفهامها بمن

الفصل الرابع عشر

المتنبي وطابعه الشعري

ينفرد المتنبي من بين شعراء العربية بطابع يميزه عن غيره ، بحيث يستطيع كل مشتغل بالشؤون الادبية ان يعرف طابعه الشعري بالبديهة ، دون ان يلاقي اي عناء .

ذلك لان المتنبي شاعر فذ ، اصيل الفكر ، مرهف الحس ، راجح العقل ، شجاع القلب ، ذرب اللسان ، في شعره غطرسة وانفة ، وفيه موعظة وحكمة ، وفيه سهولة ممتنعة ، وفيه طموح ومغامرة ، وفيه ابداع في الوصف والرثاء ، وفيه مبالغة في المدح والهجاء .

وعلى العموم ان المتنبي شاعر منقطع النظير ، لذلك صار مطمح انظار ، وموضع اكبار ، ممن يعرفون قيمة الادب ، واقدار الشعراء ، فاقبل الناس منذ زمانه حتى زماننا هذا على دراسة شعره اقبالاً شديداً ، فاخذوا يحفظونه بلهفة ، ويتمثلون به في كل ندوة ، ويقتبسون من الفاظه ومعانيه بكثرة .

ومما يدل على شيوع شعره ، وتعلق الناس به قصة ابن العميد التي قصها لبعض اصحابه .

ومجملها ان ابن العميد ، وهو اديب كبير له نفوذ وسلطان ، وله ولاية مرموقة في دولة بني بويه اضطلع باعباء الوزارة وقصده العلماء والادباء من كل مكان .

كان هذا الوزير ينقم على المتنبي بسبب ذيوع صيته ، وانتشار

شعره ، وكان يشكو ضعف حيلته فى اخماد ذكر المتنبي والغض من قدره .

قال صاحب ابن العميد : دخلت عليه يوماً فوجدته واجماً ، وكانت قد ماتت اخته عن قريب . فقلت له : لا يُحزن الله الوزير . ما الخبر؟ قال : انه ليغيظني امر هذا المتنبي ، واجتهادي في ان اخمل ذكره ، وقد ورد عليّ نيف وستون كتابا في التعزية ، ما منها الا وقد صُدر بقول المتنبي في رثاء اخت سيف الدولة :

طوى الجزيرة حتى جاءني نبأ
فزعت فيه بآمالي الى الكذب
حتى اذا لم يدع لي صدقه املا
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل الى اخمال ذكره ؟ .. قلت : ايها الوزير ، القدر لا يغالب ، والرجل ذو حظ عظيم من اشاعة الذكر ، واشتهار الاسم ، فالاولى الا تشغل فكرك بهذا الامر .

وجاء في كتاب الصبح المنبى عن حيثية المتنبي[1] (ان شعره امتاز على شعر معظم الشعراء لانه عرف الحياة ، وسبر روح الجماعات . فصورها احسن تصوير ، وعبر عن مرامى النفوس واهوائها ادق تعبير ، فامتلأ لذلك شعره بالحكم والامثال ، وغدت اقواله مرآة المجتمع والاحوال) .

من هنا نعلم لماذا عكف على دراسة شعره ، وشرح ديوانه جمهرة

---

(١) مقدمة الكتاب المذكور للاستاذ عز الدين التنوخي .

كبيرة من الادباء والعلماء حتى بلغ عددهم نيفاً وخمسين عالماً واديباً.

ويرى المرحوم عباس محمود العقاد[1] ، ان سببا واحداً كان لـه نصيب في شهرة ابي الطيب ، لم يكن لسبب آخر ، ذلك هو الطبع العربي الذي اعانه على تمثيل ابناء قومـه ، فانه عبر عن ذلك الطبع العربي اصدق تعبير ، في زمن التنبه والحساسية القوميه ، وجاء تعبيره عن عالمه حيث يشيع التعبير وتتجاوب اصداؤه في النفوس والخواطر قبل الالسنة والاقلام . لانه كان يعبر عن العبقرية العربية في معترك الحياة العملية ، وهو جانب من حياة الامة اقرب الى الحس ، وادعى الى السيرورة بين ابنائها من كل جانب تنطوي عليه عبقريتها .. وقد أعينت السليقة في المتنبي بمدد وافٍ من التعلم والصناعة ، فكان اوسع الشعراء فى زمانه معرفة باللغة وآدابها ، وبالثقافة الاجنبية التي انتقلت اليها .

وقيل انه كان يحفظ ديواني ابي تمام والبحتري ، وانه جمع شعر بن الرومى كله ، واضاف الى علمه باللغة علماً بالفلسفة واقوال المتكلمين كما يظهر من معانيها المتفرقة فى قصائده الكثيرة . ثم يعود العقاد فيقول : وندر من الشعراء من يحتفظ بطابعه فى مفرداته ومتفرقاته ، كما يحتفظ بها فى مطولاته ، او جملة الابيات من مقطوعاته . وابو الطيب من اوائل هؤلاء النوادر الذين يُعرفون بالبيت الواحد من اشعارهم . بل بالشطرة المنفردة من البيت . لانه قد عرف بابياته التي سارت مسير الامثال بين جمهرة من رواة الشعر لم تعرفه بغير تلك الابيات .

---

(١) كتاب تراث الانسانية المجلد الاول ص (٦ ـ ١٦) .

فشاعرية المتنبي تفرقت فيها الاراء ، وتنوعت فيها الحيثات ، ورزقت من الدراسات ما لم ترزق شاعرية احد من الشعراء ، ومع ذلك فقد يخيل الى ان شعر المتنبي لم يعط حقه من البحث والوصف بقدر ما كان يستحق من الثناء ، وما ذلك الا لعظم هذه الشخصية الفذة في عالم الشعر والادب .

وعندي ان المتنبي شاعر فريد، اوتى من سلامة الفطرة وصدق العبقرية حظاً رفيعاً بحيث لم ينله احد من الشعراء الذين اتوا بعده او سبقوه في الزمن . فهو شاعر مبتدع غير مقلد ، ينزع في شعره الى الحكمة والفلسفة . وتكثر فيه الامثال السائرة والتعابير الساحرة ويتجلى فيه الطموح والاعتداد بالنفس الى مدى بعيد ، انه بحق نسيج وحده ، وفريد دهره . صحيح انه واحد من الناس ، ولكن الناس مختلفون في هممهم وغاياتهم ، فنهم من يرضى باليسير من العيش. اما هو فله قلب كبير لا تقف غايته عند حدٍ .

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبيَّ ماله
مدى ينتهي بي في مراد أحده

* * *

وقال :

يقولون لي : ما أنت في كل بلدة
وما تبتغي ما ابتغي جلّ ان يُسمى

واني لمـن قوم كأن نفوسهم

بها أنف ان تسكن اللحم والعظما

وما الجمع بين الماء والنار في يدي

باصعب من ان اجمع الجد والفهما

فـلا عبرت بي ساعة لا تعـزني

ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

وقال :

اطاعن خيلا من فوارسها الدهر

وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر

واشجع مني كل يوم سلامتي

ومـا ثبتت الا وفي نفسها أمـر

تمرست بالافـات حتى تركتها

تقول امات الموت أم ذُعر الذعر

واقدمت إقدام الاتى كأنّ لي

سوى مهجتي أو كان لي عندها وتر

ذكر الشارح الاخير لديوان المتنبي فقال[1]: وشأن المتنبي كالشأن في نوابغ الدنيا فالشاعر النابغة لايمهر بارادته ولا ينبغ بان يخلق في نفسه مادة ليست فيها وانما هو يولد مهيأ بقوى لاتكون الا فيه وفي امثاله وهو زائد على غيره ممن لم يرزق النبوغ كما يزيد الجوهر على الحجر ، او الفولاذ على الحديد أو الـذهب على النحاس ثم تتفاوت

(١) مقدمة شارح الديوان المرحوم عبدالرحمن البرقوقي .

هذه القوى في النوابغ فتتنوع وتتباين وتعمل فيها احوالهم وازمانهم وحوادثهم ومن ثم يجتمع لكل منهم شخصية ويستقل بطريقة ومذهب .

فاذا تناول معنى من المعاني تناوله على طريقته الخاصة . فكثيرا ما يقرأ النابغة كلاما لغيره أو يتأمل خاطرا أو يشهد أمرا . فاذا كل ذلك قد اوحى اليه وانعكس على مرآة ذهنه بمعان مبتكرة طريفة لا تشبه ما كان بسبيله وجها من الشبه لا قريبا ولا بعيدا وليس فيها الا انها جاءت من ذلك الطريق . وهو بعد لم يتعمد لها ولم يتكلف ولم يصنع شيئا وانما هو تلقى من ذهنه وتلقى ذهنه من قوة لا يدري ما هي ولا اين هي . وكما يختار النبي يختار النابغة وليس كل الناس انبيا. ولا كلهم نوابغ ولا يصنع النبي اكثر من ان يتلقى عن الوحى وكذلك يتلقى النابغة عن البصيرة وهى تكون فيه هو وحده بمقام الملك من الملائكة أو الشيطان من الشياطين على حين تكون في سواه بمقام الانسان من الناس . فالرجل الذكي اشبه بانسانين احدهما هو والآخر بصيرته وهو بذلك اقوى من غيره ولكن النابغة وبصيرته اشبه بانسان وملك ،أو انسان وشيطان فهو دائما اقوى من القوه وهو دائما متصل بشيء فوق الانسانية .

وهكذا يخلد كل شعر انساني خلود الدهر ويكتب له النصر في كل عصر . وكأنه رحمه الله كان يستشف الغيب حين قال :

وما الدهر الا من رواة قصائدي

اذا قلت شعراً اصبح الدهر منشدا

فسار بـه من لا يسير مشمراً
وغنى بـه من لا يغـنى مغـردا

* * *

ذكرت ان في شعرة غطرسة وانفة. مصداق ذلك انه كان يخاطب بشعره الملوك والرؤساء. كما يخاطب الند نده. استمع الى قصيدته التي يوجهها الى سيف الدولة :

يا اعـدل الناس الا في معاملتي
فيك الخصام وانت الخصم والحكم
اعيذها نظرات منك صادقـة
ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع اخى الدنيـا بناظره
اذا استوت عنده الانوار والظلم
انا الـذي نظر الاعمى الى ادبي
واسمعت كلماتي من بـه صمم
اذا رأيـت نيوب الليث بارزة
فـلا تظنـن ان الليـث يبتسم
مـا كان اخلقنا منكم بتكرمة
لو ان امركم من امرنا أمـم
وبيننـا لورعـتم ذاك معرفـة
ان المعارف في اهـل النهى ذمم

يقول شراح الديوان : ان المتنبي في هذه القصيدة كان يعاتب

سيف الدولة. وانا اسأل: اذا كانت هذه القصيدة في العتاب، فكيف يكون التعريض واللوم والتأنيب؟.. اليس في قوله:

اعيذهـا نظرات منك صادقـة
ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
ومـا انتفاع اخى الدنيا بناظره
اذا استوت عنده الانوار والظلم
انا الذي نظـر الاعمى الى ادبي
واسمعت كلماتي من بـه صمم

اليس في هذا دليل على فساد حواس الامير (سمعه وبصره)؟. وانه يقول له ايها الامير انك لم تميز بين الصحة والسقام، والنور والظلام.

* * *

ان هذا الغرور قد لازم المتنبي في اغلب شعره، حتى في المواضع التي ينبغى له ان يرق فيها ويلين كمواضع الغزل مثلا. استمع الى غزله في تلك المرأة ذات الجمال والدلال، ذات العيون الساحرة والثنايا المعسولة. انظر اليه كيف اساء اليها؟ وكيف كان موقفه معها، انه موقف لا يقفه اهل العشق ولا يرضاه ذوو الصبابة.

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى
وللحب ما لم يبق منى وما بقى
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه
ولكن من يبصر عيونك يعشق

وبين الرضا والسخط والقرب والنوى

مجـالٌ لدمـع المقـلة المترقـرق

واحلى الهوى ماشك في الوصل ربه

وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقى

وغضبى من الادلال سكري من الصبا

شفعت اليهـا من شبابي بريـق

واشنب معسول الثنيات واضحٍ

سترت فمِي عنه فقبـل مفرقى

لا لا ، ايها الشاعر العظيم . لا يقال لصاحبة هذا الجمال والجلال والدلال مثل ما قلت . ولا يبيح ذوو الصبابة لانفسهم ان يذلوا هذه الحسنا . المعشوقة مثل هذا الاذلال. ولا يرضون لها ان تقبل رؤوسهم لان في ذلك اهانــة للحسن وتوهيناً للجمال . وانت اعرف الناس بمواضع القُبل .ولكن الغرور اعاذنا الله منه هو الذي دفعك الى هذا الموقف .

وحاشا المتنبي ان يجهل ذلك ، ويقع في مثل هذا الخطأ المخالف لمقتضى الحال . غير ان لكل جواد كبوة ، ولكل عظيم هفوة .

* * *

قلت : ان للمتنبي طابعاً شعرياخاصا به . وقد يظهر هذا الطابع في جميع ما تناوله من الاغراض الشعرية. الا وهو الدقة والمتانة والمبالغة والتجسيد وتوليد الصور العجيبة استمع اليه يصف اسداً .

ورد اذا ورد البحـيرة شـاربـا

ورد الفـرات زئـيره والنيـلا

متخضب بـدم الفوارس لابسٌ

في غيلـه من لبدتيـه غيـلا

مـا قوبلـت عينـاه الا ظنتا

تحت الدجى نـار الفريق حلولا

في وحـدة الرهبـان الا انـه

لا يعـرف التحـريم والتحليـلا

يطـأ الـثرى مترفقـاً من تيهـه

فكانـه آسٍ يجس عليـلا

ويرد عفرتـه الى يا فوخـة

حتى تصير لرأسـه اكليـلا

* * *

وقال في وصف شجاعة سيف الدولة :

تفيت الليالي كل شيء اخذته

وهن لما يأخذن منك غوارم

اذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً

مضى قبل ان تلقى عليه الجوازم

وقفت وما فى الموت شك لواقف

كانك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الابطال كلمى هزيمـة

ووجهـك وضاح وثغرك باسم

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى

الى قول قوم انت بالغيب عالم

وقال واصفاً شِعبَ بوّان

مغاني الشِعب طيباً في المغـاني
بمنزلـة الربيـع مــن الزمــان

ولـكن الفتى العـربيَّ فيهـا
غريبُ الوجـه واليد واللسان

ملاعب جِنة لـو سار فيهـا
سـليمانٌ لسار بـتر جمـان

طَبَـتْ فرسانـنا والخيلُ حتى
خشيتُ وانْ كرُمنَ من الحران

غدونا تنفض الاغصـان فيهـا
عـلى اعرافهـا مثلَ الجُمان

فسرت وقد حجبنَ الشمسَ عني
وجئنَ من الضياء بما كفاني

والقى الشـرقُ منها في ثيابي
دنانـيراً تفـر مــن البنــان

ولقد تبلغ مبالغات المتنبي حد الافراط ، بل قد تخرج فيه الى المستحيل . وذلك كقوله في جمال الخصر وحسنه :

وخصـر تثبت الابصـار فيه
كأنَّ عليه من حدق نطاقا

وقـال في وصف خائف هارب :

وضاقت الارض حتى صار هاربهم
اذا رأى غير شيء ظنه رجلا

وقال واصفاً نحافة جسمه

ولو قلمٌ اُلقيتُ في شق رأسه
من السُقم ما غيرتُ من خط كاتب

وقال في الرثاء

ما كنت احسب قبل دفنك في الثرى
ان الكواكب في التراب تغور
خرجوا به ولكل باكٍ خلفه
صعقات موسى يوم دُكّ الطور

وقال في الهجاء

ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم
الا وفي يده من نتنها عود

وقال في المدح

بمن اضرب الامثال ام من اقيسه
اليك واهل الدهر دونك والدهر

وقال فيه :

واعجب منك كيف قدرت تنشأ
وقد اُعطيتَ في المهد الكمالا
واقسم لو صلحت يمين شيء
لما صلح العبادُ له مثالا

وقال في الغزل

كتمتُ حبكِ حتى منك تكرمة
ثم استوى فيه اسراري واعلاني

كأنه زاد حتى فاض من جسدي
فصار سُقمي به في جسم كتمان

وقال فيه ايضاً

وفتانة العينين قتالة الهوى
اذا نفحت شيخاً روائحها شبّا

* * *

الافتخار والحماسة

في شعر المتنبي

اذا صح ما ذكرناه من ان روح المبالغة طاغية في شعر المتنبي بوجه عام ، فينبغي ان نعلم ان المبالغة في شعره الحماسي بالضرورة تزيد على سائر شعره زيادة ملحوظة .

وقبل الاستدلال على صحة ذلك يجمل بنا ان نعرف رأي نقاد الادب عن معنى المبالغة والغلو حتى نتأكد من صحة مبالغات المتنبي وغلوّه في الفخر والحماسة .

عرّف النقاد المبالغة في الكلام فقالوا : هي ان تبلغ بالمعنى اقصى غاياته ، وابعدَ نهاياته[1] كقوله تعالى :

(يوم ترونها تذهل كلُ مرضعة عما ارضعت ، وتضع كلُ ذات حمل حَملها ، وترى الناسَ سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد) .

ولو قال : تذهل كل امرأة عن ولدها لكان بياناً حسناً وبلاغة كاملة ، وانما خصّ المرضعةَ للمبالغة ، لان المرضعة اشفق على ولدها

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٢٨٧

لمعرفتها بحاجته اليها ، واشغف به منها .

وكقول عُمير بن الاهتم التغلبي :

ونُكرم جارَنا ما دام فينا   ونُتبعه الكرامةَ حيث مالا

فاكرامهم للجار ما دام فيهم مكرمة ، واتباعهم اياه الكرامة حيث مالا من المبالغة .

* * *

واما الغلوّ فقد قالوا عنه : انه تجاوز حد المعنى ، والارتفاع به الى غاية لا يكاد يبلغها[1] كقوله تعالى (واذ زاغت الابصارُ وبلغت القلوبُ الحناجر) وكقوله جلّ شأنه : (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) .

وقالت امرأة كانت لا تظهر اذا طلعت الشمسُ ، فقيل لها : لماذا لا تظهرين اذا طلعت الشمس ؟ فقالت أخاف ان تكسفني ، وذمّ اعرابي رجلا فقال : (يكاد يُعدى لؤمُه من تَسمى به)

وقال الطرمّاح يهجو تميماً :

تميمُ بطرق اللؤم اهدى من القطا
ولو سلكتْ سُبل المكارم ضلتِ
ولو ان برغوثا على ظهر نملة
يكرُّ على صَفّى تميم لولت

واما مبالغات المتنبي بافتخاره بنفسه فانها تبلغ به حد الافراط مما جعل النقاد يثيرون حوله ضجة صاخبة من الاستنكار بحيث

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٢٨٠

جعلتهم يعيبونه وينقدونه بالحق وبالباطل ، حتى ذهبت تلك الضجة بكثير من محاسن ادبه وجميل شعره .

فؤاد ما تسليه المُدام وعمر مثل ما تهب اللئام
ودهر ناسُه ناسٌ صِغار وان كانت لهم جثث ضخام
وما انا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرَغام

يقول : لست من هؤلاء الذين ذكرتُهم وان عشتُ بينهم ، ومثلهم في ذلك مثل الذهب الابريز الخالص الذي يكون بين التراب .

ولم يقف نقد النقاد له عند شعره ، بل اخذ الحاقدون عليه يشهّرون به وبنسبه ، ويستشهدون على وضاعة بيته بفراره من ذكر ابائه في شعره كقوله :

انا ابن من بعضه يفوق ابا الـ ... باحث والنجلُ بعضُ من نجله
وانما يذكر الجدودَ لهم من نَفروه وانفذوا حِيَله
فخراً لعضب اروح مشتمله وسمهريٍ اروح معتقله
انا الذي بيّن الالـه به الـ ... أقدار والمرء حيثما جعله
جوهرةٌ يفرح الكرام بها وغصةٌ لا تسيغها السِفله
ان الكِذاب الذي أكاد به اهون عندي من الذي نقله
فلا مبال ولا مداجٍ ولا وانٍ ولا عاجزٍ ولا تُكَله

يقول : انا ابن الذي بعض ولده يفوق ابا الباحث عن نسَبي ، ذلك ان الانسان الذي يحتاج الى الفخر بجدوده هو الذي لا فضيلة له في نفسه ، اما انا فسيفي ورمحي يفتخران بي لا افتخر انا بهما ، لماذا افتخر بغيري وقد ميّزني الله ، وبيّنَ بي اقدار الناس لاقتداري

على وصف كل واحد بما فيه، انا زينة الحياة بين الاشراف، وجوهرة يفرحون بها ، كما اني غصة في حلوق اللئـام لا يقدرون على اساءتي وهضمي لاني اذلهم واكشف نقائصهم . ثم ان الكذب عندي اهون من روايته ونقله. فلا اكترث له، ولا لمن رواه، ولا انا مبال باعدائي ولا مداج لهم ، ولا عاجز عن مجازاة المسيء لي ، ولا ضعيف اتكل في امري على غيري .

ارأيت كيف يفعل الغرور بالنفس ؟ ارأيت كيف يجعلها تفرط في الافتخار بذاتها ، ويغري الناس للتألب عليها ؟

* * *

ومن شعره في الفخر ايضا قوله :

لا بقومي شرُفت، بل شرُفوا بي
وبجَـدي سمـوت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضـا
د وعَوذ الجاني وغوث الطريد

يقـول في البيت الاول : انا شريف بنفسي ، وقومي هم الذين شرُفوا بي ، وبسعيي وقدري علوت في الحياة لا بآبائي . مع العلم ان قومي اشرف من تكلم العربية وبهم فخر العرب جميعا ، فهم حماة المستغيثين ، وحصن المطارَدين .

قال الواحد : لو اقتصـر المتنبى على البيت الاول من البيتين المذكورين لكان الأم الناس نسبا . لكنه قال بعده البيت التـالي، فانقذ نفسه من لوثة اللؤم .

---

(١) في هامش الجزء الاول من شرح البرقوقي ص ٢٠٨ لديوان المتنبي .

المـدح اثر من اثار الاعجاب والاكبار بمزايا الممدوح . سواء اكانت تلك المزايا معنوية او مادية ، والصفات المعنوية المحمودة مثل العقل والحلم والشجاعة والكرم والعفة والعدل والنجدة والاستقامة وما الى ذلك من الصفات الروحية التي يهبها الله لمن يشاء من عباده، واما الصفات المادية المحبوبة مثل مفاتن الجمال في الاشكال . وهي في الانسان تظهر في سلامة بدنه ، وتناسب اعضائه كطلاقه الوجـه ، وامتشاق القامة ولون البشرة ، ورحابة الصدر وضمور الخصر وحور العينين ، وما الى ذلك من الصفات البدنية الـتي تتعشقها النفوس ، وتنجذب اليها الابصار لاول وهلة .

والمدح في الشعر العربي القديم كان يستهدف انبل الغايات واشرفها فكان الشاعر منهم تعجبه الشمائل الشخصية والفضائل الاجتماعية ، تنفعل نفسه بها فيصوغها قصيدة او خطبة او رسالة تكون وصفا جميلا لتلك الفضائل وتعبيراً ادبيا عما احس به تجاه الذين اتصفوا بها افراداً وجماعات .

جاء في كتاب (الفنون الادبية عند العرب[1]) ان المديـح في شعر العرب انما نشأ اعجاباً بالفضيلة وثناءاً على صاحبها ، وان الغاية منه لم تكن في البدء سوى غايـة خلقية تتمثل في توق الانسان الى الحياة الفضلى ، وبلوغ ما ارتسمه من مثل اعلى له . واكبر الظن ان المادحين الاولين كانوا يرون امتداح العظماء نوعاً من الواجب الادبي

(١) ص ٣٦ .

نحوهم ، واعترافاً بفضلهم نظراً لما قدموه من خدمات بين ايدي قبائلهم ، واذا لم يكن الامر كذلك ، فلا بد اذاً وليد شعور داخلي من لدن الشاعر بضرورة الاقتراب من الاعمال العظيمة التي يحققها الممدوح. وذلك من اجل اقامة اتصال بين الشاعر وبينها لانها تنقصه ، ولانه يشعر بحاجته الى سدهذا النقص ، فمنطقه النفساني يحمله على الاشادة بالفضائل وباصحابها ، ليظهر امام الناس بانه هو متصف بها ايضا ، او على الاقل ، هو يسعى اليها ويرجو ان يكون له مثلها في يوم من الايام ، فالرغبة في التشبه بالعظماء قد تكون باعثاً على المديح .

* * *

والمتنبي فى مدحه من الشعراء الذين يمدحون لتحقيق اهدافهم العامة . وحسبنا دليلا مدحه لملك بنى حمدان ، لانه كان مدحاً حقيقياً صادراً عن حب وولاء ، ولانه وجد في شخص سيف الدولة مَلِكاً عربياً شهماً يذود عن قومه وعروبته ودينه كما يذود الاسد عن عرينه . لذلك القى المتنبي بجواره عصاه ، وظل في صحبته يخوض معه المعارك ويشاركه في سرائها وضرائها . حتى وقعت بينهما القطيعة ، فرحل عنه الى مصر ، لا كرهاً حقيقياً لسيف الدولة ، ولكنه رحيل العاتب الزارى ، ليثير نخوته ، ويكبت اعداءه ، ويريه انه ليس ممن ينام على ضيم ، ويرضى بالهين من العيش ، ويتحمل جرأة ابن خالويه عليه ، فيقول له :

(ازل حسد الحساد عني بكبتهم
فانت الـذي صيرتهم لي حسدا)

ثم يقول :

(افي كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيفٌ يقاوينى ، قصيرٌ يطاول)

فرق كبير بين شاعر يمدح لمجرد الارتزاق ، والمغانم الشخصية وتوفير اسباب العيش وشاعر يمدح لاغراء الممدوحين على الفضائل او لنيل منزلة اجتماعية يقضى بها ما عليه من حقوق . فالاول شاعر متكسب يجتدى المعروف والاحسان، ويرضى باقل العطايا ،والثاني شاعر مصلح يجاهد في توجيه ذوي الشأن من الامراء والحكام نحو اهداف عالية وخصال شريفة محمودة .

لقد ثبت تاريخيا ان المتنبي كان يشترط على سيف الدولة، انه اذا انشده مديحه ، لا ينشده الا وهو قاعد ، وانه لا يُكلف تقبيل الارض بين يديه . ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط . وتطلع الى ما يرد منه[1] ، اما مدائح المتنبي بوجه خاص فقد احسن وصفها استاذنا الكبير الدكتور محمد مهدي البصير فقال :

اما مدائحه لسيف الدولة فأنها تتألف من ٢٨ قصيدة و ٣١ مقطوعة تتضمن ١٥١٢ بيت لم تتفتق عن مثلها قريحة شاعر في الجاهلية والاسلام . وانك لتستعرض هذه المجموعة فلا تدرى ، اتدهش لخطورة مالها من الاهمية التاريخية ، ام لعظم مالها من القيمة الفنية، وبعد كلام خارج عن غرضنا في تبيان اراء كبار الادباء في مدائح المتنبي نسوق اليك قطعا من تلك المدائح لتعلم بنفسك المدى الذى بلغه المتنبي في هذا المضمار . قال من قصيدة يعاتب بها سيف الدولة :

---

(١) كتاب الصبح المبنى عن حيثية المتنبي ص ٣٥ .

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقم

فوت العدو الـذي يممته ظفر
في طيـه اسف في طيه نعـم

قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت
لك المهابـة ما لا تصنع البُهَم

الزمت نفسك شيئاً ليس يلزمها
ان لا يواريهم ارض ولا علم

اكلما رمت جيشا فانثنى هربا
تصرفت بك في آثاره الهمـم

عليك هزمهم في كل معترك
وما عليك بهم عار اذا انهزموا

اما ترى ظفراً حـلواً سوى ظفر
تصافحت فيه بيض الهند واللمم

* * *

وقال في مدح سيف الدولة ايضا من قصيدة مطلعها :

اجاب دمعي وما الداعي سوى طللِ
دعا فلباه قبل الركب والابل

وقال فيها

ضاق الزمان ووجه الارض عن ملك
ملء الزمان وملء السهل والجبل

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به

في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

تمسي الاماني صرعى دون مبلغه

فما يقول لشيء ليت ذلك لي

يا ايها المحسن المشكور من جهتي

والشكر من قبل الاحسان لا قبلي

لان حلمك حلم لا تكلفه

ليس التكحل في العينين كالكحل

الهجاء في شعر ابي الطيب

الهجاء فن من فنون الشعر ، وهو الجانب السلبي لشعر المديح، مارسه الشعراء في جميع العصور الادبية ، قالوه اما انتقاما لانفسهم من المهجوين ، او تشنيعا بما اعوج من اخلاقهم .

وقد يتفنن الشعراء بالهجاء حتى ليبلغ بهم الحال الى هجاء انفسهم واهليهم كما فعل الحطيئة وغيره من الشعراء . والمتنبي في الهجاء ليس بدعا عنهم . غير انه كان يأنف من مخاصمة العزل الضعفاء ويرتاح الى مخاصمة الاقوياء من ذوي النفوذ والسلطان . وقد تجده في كثير من الاحيان يهجو الزمن الذي عاش فيه ، ويهجو المجتمع الذي خالط افراده ، واطلع على مساوئهم .

وانما نحن في جيل سواسية

شر على الحر من سقم على بدن

حولي بكل مكانٍ منهم خِلَقٌ

تخِطى اذاجئتَ باستفهامها بِمَن

هكذا يرى المتنبى الجيل الذى عاش، ان اقراره قد تساووا في الشر دون الخير فليس فيهم مَن يُركَن اليه ويعوّل عليه، فحوله اناس كالبهائم، اذا اردت الاستفهامَ عنهم فقل - ما انتم - ولا تقل من انتم ؟ والا عدَوتَ الصواب .

وقال يهجو كافور وينقم على نفسه، وعلى الظروف التي دفعته الى هذه الحال الوخيمة في مقامه عنده .

اريك الرضا لو اخفت النفس خافيا

وما انا عن نفسي ولا عنك راضيا

أَمينا وإخلافا وغـدراً وخِسَّةً

وجبنا، اشخصا لُحتَ لي ام مخازيا

تظنُّ ابتساماتي رجـاء وغبطـةً

وما انا الا ضاحكٌ مـن رجائيا

وتعجبني رجلاك في النعـل أنني

رأيتك ذا نعلٍ اذا كنتَ حافيا

وانك لا تدرى الونك اسـود

من الجهل ام قد صار ابيض صافيا

ويذكرني تخييطُ كعبك شقه

ومشيك في ثوب من الزيت عاريا

ولولا فضول الناس جئتك مادحا

بما كنت في سرّى به لك هاجيا

فاصبحتُ مسـروراً بما انا منشدٌ
وان كان بالانشاد هجوكَ غاليا
وان كنتُ لا خيراً افدتُ فانني
افدتُ بلحظي مِشفرَيك الملاهيا
ومثلك يُؤتى من بـلاد بعيدةٍ
ليُضحك ربات الحدادِ البواكيا

نستطيع ان نتبينَ من هذه القطعة مقدار العنف في هجاء ابي الطيّب ، ومبلغ الاقذاع فيه .

الا ترى كيف اعرب عن امتلاء نفسه بكره كافور بحيث صار لا يقوى على اخفاء بغضه له ، ولو استطاع لفعل . بل صار المتنبي يمقت نفسه لانها سولت له الذهاب الى كافور ، الى انسانٍ اجتمعت فيه شتى المساوىء كالكذب وإخلاف الوعد ، والغدر ، والخسة ، والجبن ، فهو شخصية موبوءة بالمخازي . ثم يعود المتنبي يضحك من نفسه لانها وضعت رجاءها في غير اهله ، وضعته في انسان فاسد الرأي ، غليظ الجلد ، متشقق الكعب يرى لونـه الاسود بياضا ، ثم هو لا يفرق بين المـدح والهجاء ، وكان الاولى بالمتنبي ان يهجوه ولكن قدره لا يساوى الهجاء ، فالهجاء كثير عليه . واخيراً يقول لـه : ان كنت لم تفدني خيراً فقد افدتني التلهى بك والضحك عليك . كيف لا ومنظرك المضحك ينسى الثاكلات ثكلهن بحيث اذا رأينه غلبهن الضحك فلهون بذلك عن الحزن والاسى .

غزل المتنبي

المتنبي شاعر الحب والفتنة والجمال على رغم اولئك النقاد الذين ارادوا الشهرة على حساب نقد المتنبي وعن طريق خالف تعرف .

المتنبي شاعر الحب والفتنة والجمال لانه شاعر عظيم بكل ما تتضمنه كلمة عظيم . نعم انه شاعر والشاعر انسان رقيق الحس سليم الوجدان متوقد الذهن مرهف الشعور متدفق العاطفة يتعشق الفعل الجميل والمنظر الجميل والكلام الجميل لذلك لا يصح ان نقول بعد ان ثبتت شاعرية المتنبي طوال القرون : انه لا يعرف الحب وليس في شعره غزل . ونحن نعلم ان الغزل صفة ملازمة للشعراء . ثم هل لدى الشعراء من بضاعة غير وصف الحب والغزل اكثر من باقي الاغراض ؟ .

الغلطة التي انخدع بها بعض النقاد الذين نفوا عن المتنبي حبه الحقيقي انهم لا يفسرون الحب الا بالعلاقة الجنسية القائمة بين الذكر والانثى . تلك العلاقة الواهية التي ينتهي اثرها بانتهاء فعلها . وفعلها هذا يزول بلحظات خاطفة كلحظات رمشات العيون . اما العلاقات الاخرى القائمة على حب الشمائل الكريمة والعواطف النبيلة كحب الوفاء وحب الكرم وحب الصدق وحب التضحية فلا يدخلونها في حسابهم حين ينقدون وحين يحكمون ، وليس لها قيمة عندهم في دنيا الحب . وتلك الخدعة هي التي جعلتهم يصدرون على الشعر والشعراء احكاما فاسدة لا تعبر عن حقيقة انتاجهم الشعري ولا تعطيهم حقهم من السمو والعبقرية . واذا كان الغزل عند هؤلاء النقاد هو مجرد

وصف الاحوال الخاصة بالقبل والعناق ووصف تعطيل لغة الكلام، فالمتنبي ضعيف الغزل . اما اذا اريد بالغزل وصف المعاني الراقية في شمائل المحبوب فالمتنبي غزل من الطراز الاول .

يزعم بعض النقادان غزل المتنبي كان غزلا صناعيا وانه اصطنعه جريا على عادة شعراء العرب الدين كانوا يستهلون قصائدهم بالغزل حتى لا يقال عنه انه خالف سنن من قبله من شعراء قومه ولئلا يتقولوا عنه انه لم يرع عمود الشعر العربي الذي التزمه فحول الشعراء .

وهذا مجرد ادعاء ، لان صدق الغزل و كذبه لا يعرفان من اطار القصائد وانما يعرفان من طريق آخر هو طريق حرارة الالفاظ والمعاني وما يحتملانه من لوعة القلب المشتاق .

عزيز اساً من داؤه الحدق النجل
عياء بـه مات المحبون من قبل
فمـن شاء فلينظر الي فمنظري
نذير الى من ظنّ ان الهوى سهلُ
ومـا هـي الا لحظة بعد لحظـة
اذا نزلت في قلبه رحـل العقل
جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي
فاصبح لي عن كل شغلٍ بها شغل
سبتني بدل ذات حسنٍ يزينهـا
تكحل عينيها وليس بهـا كحل
كأن لحاظ العين في فتكه بنـا
رقيب تعدى او عدو لـه دخل

ومن جسدي لم يترك السقم شعرة
فما فوقها الا وفيها له فعل
كأن رقيباً منك سد سامعي
عن العذل حتى ليس يدخلها العذل
كأن سهاد الليل يعشق مقلتي
فبينهما في كل هجر لنا وصل
احب التي في البدر منها مشابه
واشكو الى من لا يصاب له شكل

وكقوله :

كتمت حبك حتى منك تكرمة
ثم استوى فيك اسراري واعلاني
كأنه زاد حتى فاض من جسدي
فصار سقمي به في جسم كتماني

وكقوله :

يا نظرة نفت الرقاد وغادرت
في حد قلبي ما حييت فلولا
أجد الجفاء على سواك مروءة
والصبر الا في نواك جميلا
وأرى تدللك الكثير محببا
وأرى قليل تدلل مملولا

وكقوله :

واما انا الا عاشق كل عاشق
اعق خليلـه الصفيين لائمـه
وقد يـتزيا بالهوى غير اهلـه
ويستصحب الانسان من لا يشاكله

وكقوله :

كئيبا توقاني العواذل في الهوى
كما يتوقى ريض الخيل حازمه
قفي تغرم الاولى من اللحظ مهجتي
بثانيـة والمتلف الشيء غارمـه

وكقوله :

أرقٌ عـلى أرق ومثلي يأرق
وجـوًى يزيد وعـبرة تترقرق
جهد الصبابة ان تكون كما ارى
عـينٌ مسهدة وقلـب يخفـق
مـا لاح برق أو ترنم طائـر
الا انثنيت ولي فـؤاد شيق
جربت من نار الهوى ما تنطفي
نار الغضى وتكلُّ عما تحرق
وعذلت اهل العشق حتى ذقته
فعجبت كيف يموت من لا يعشق

الوصف في شعر المتنبي

الوصف غرض من اهم اغراض الادب العربي . ثم هو فن دقيق لا يبلغ مداه الا الادباء الذين يمتازون بالحس المرهف والشعور الرقيق والتعبير البليغ مضافا الى ذلك معرفة شاملة بطبائع الاشياء ومقاييس الجمال واصول الاجتماع ... ذلك لأن ميدان الوصف ميدان واسع قد يتناول جميع الكائنات ارضها وسماواتها شموسها واقمارها انهارها وبحارها جبالها وسهولها جدبها وخصبها اشجارها واثمارها . وقد يتناول الامم والشعوب عقولها وغرائزها حربها وسلمها شقاءها وسعادتها رقيها وانحطاطها .

وكلما كانت ثقافة الاديب عميقة واسعة وملكته الادبية قوية نامية كان وصفه للاشياء دقيقا وتصويره لها حسنا . ولقد رزق المتنبي ملكة فائقة رفعته في عالم الشعر ، ومارس تجارب هامة صهرته في بوتقة المعرفة حتى اخلصت سبكه فجاء آية في عصره ومرآة صقيلة في زمانه .

برتني السرى بريَ المُدى فرددنني
اخف على المركوب من نفسي جرمي
وابصر من زرقاء جوٍ لانني
متى نظرت عيناي ساواهما علمي

وكقوله :

أهـم بشيء والليالي كأنها
تطاردني عن كونه واطارد

وكقوله :

انا صخرة الوادي اذا ما زوحمت
واذا نطقت فأنني الجوزاء

وكقوله :

ابدا اقطع البلاد ونجمي
في نحوس وهمتي في سعود

وكقوله :

رماني الدهر بالارزاء حتى
فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذا اصابتني سهام
تكسرت النصال على النصال
وهان فما ابالي بالرزايا
لأني ما انتفعت بأن ابالي

لم يقف وصف المتنبي عند حدود المرئيات وانما كان ينفذ الى بواطنها ويكشف عن اسرارها فذكاؤه الوقاد وتبصره في عواقب الامور ينبئان عن دخائل النفس البشرية كما تنبيء اشعة رونتكن عن خفايا الجسد .

وما الخوف الا ما تخوفه الفتى
ولا الامن الا ما رآه الفتى أمنا

فالخوف في نظر المتنبي ليس ناشئا من هذه المظاهر المرئية التي يخافها الناس عادة وانما هو أمر ناشيء من معنى خفي كامن في نفس

الانسان . فالظلام الدامس في ارض موحشة مثلا ليس مصدراً للخوف بل المصدر الحقيقي للخوف هو تلك الهواجس التي تستولي على قلب الجبان فتجعله يحسب الظلام حشودا من العفاريت فيظل يرتعد منها دون ان يكون في ذلك الظلام ما يوجب هذا الخوف .

و كذلك الامن والطمأنينة فـان مصدرها ايضاً امر معنوي لا يتصل بتلك المرئيات المادية ... الا ترى ان بعض الناس قد يكونون وسط اشياء تنخلع من هولها القلوب ومع ذلك فلا يرون فيها مايدعو الى الرهبة والقلق .

قلت ان وصف المتنبي كثيرا مـا يتناول المعـاني الكامنة وراء المرئيات ، ذلـك لان المرئيات ظاهرة للعيان يدرك وصفها اوساط الشعراء . اما المعاني الخفية لا يغوص اليهـا ولا يستطيع ابرازها الا افذاذ الشعراء ممن أوتوا موهبة طبيعية وقدرة بالغة على تصوير الامر المعقول بصورة المحسوس . وفي طليعة هؤلاء الافذاذ المتنبي .

رأيتك محض الحلم في محض قدرة
ولو شئت كان الحلم منك المهندا
وما قتل الاحرار كالعفو عنهم
ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
اذا انت اكرمت الكريم ملكته
وان انت اكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندا

ولكن تفوق الناس رأيا وحكمة
كما فقتهم حالا ونفسا ومحتدا
يدق على الافكار ما انت فاعل
فيُترك ما يخفى ويؤخذ ما بدا

الا ترى كيف صور الحلم وجعل قدرته تفعل في التأديب والارهاب كما يفعل السيف المهند. واقام العفو عن الكرام المذنبين مقام العقوبة لهم ثم استدرك فقال ومن يتكفل لك بوجود الكريم الذي يقدر نعمة العفو ويستجيب الى دواعى الكرم. ولذلك جاء بالبيت مؤكدا ومبينا ان الكريم اذا اكرمته وصفحت عنه صار كأنه مملوك لك بعكس اللئيم فانك اذا اكرمته زاد عتوا وجرأة عليك. لذلك ينبغي ان يعامل كل انسان حسبما يستحق فمن استحق العطاء لم يُستعمل معه السيف ومن استحق القتل لم يُكرم بالعطاء. ثم يقول لسيف الدولة أنت اعرف بمواقع الاساءة والاحسان لما وهبك الله من تفوق في الرأي وسمو في النفس وشرف في الاصل. لذلك كان ما تبتدعه من المكارم يدق على افكار الشعراء. فيأخذون ماظهر من اوامرك ونواهيك ويتركون ما خفي عنهم.

الفصل الخامس عشر

الامثال في شعر المتنبي

الامثال في شعره كثيرة جداً ، يضيق عنها صدر هذا البحث ، بحيث لا تخلو قصيدة في ديوانه من تلكم الامثال ، سواء اكانت تلك القصيدة من قصائده الطوال ام القصار .

والعجيب من امثاله انها من النوع المبتكر البليغ الذي يحمل في طياته الحكم والبرهان .

والاعجب من ذلك ان امثاله زاخرة بروح فلسفية عميقة ، ترى فيها من تجارب الحياة ودقة التصور وصدق الحكم مايجعلها موضع اهتمامك وحفظك .

وهذه طائفة من امثاله اذكر منها على سبيل التمثيل لا الاحصاء .

قال في علوّ الهمة .

على قدر اهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم

وقال في كثرة جريان الامور على خلاف رغبات الناس .

ما كل ما يتمنى المرء يدركه
تجري الرياح بما لا تشتهي السُفنُ

وقال في كون العقل يشقي صاحبه بينما الجهلُ يسعده .

ذو العقل يشقَى في النعيم بعقله
واخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

وقال في كون الانسان يعين الزمان ويمدّه بوسائل الهلاك

كلما انبت الزمـان قنـاة
ركّب المـرء في القناة سِنانا

وقال فيمن لا يبصر النهـار الا بدليل فلا يستطيع احد افهامَه بحقائق الاشياء .

وليس يصح في الافهام شـيء
اذا احتاج النهـار الى دليـل

وقال في كون الانسان مجبولاً على الظلم : ومن لم يظـلم منهم فلسبب في دخيلة نفسه

والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفـة فلعلّـة لا يظلـــم

وقال في كون الشريف يضحي بجسمه ولا يضحي بعرضه وعقله .

يهون علينا ان تُصاب جسومُنا
وتسلَم اعراضُ لنا وعقـول

وقال في كون الخـلائق تتفاضل بعقولها ، ولولا ذلك لكانت الضياغم افضل من الناس

لولا العقول لكان ادنى ضيغم
ادنى الى شـرف من الانسان

وقال في كون المرء اذا لَؤُم طبعُه وساءت افعالُه توهم السوء في كل ما يراه او يسمعه .

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه
وصدّق ما يعتاده من توهم

وقال في كون المعالي لا تُنال بدون تعب ، كالشهد لا يجنيه مشتاره الا بعد ان يلاقيَ وخزات ابر النحل .

تريدين لقيان المعالي رخيصة
ولا بد دون الشهد من ابر النحل

وقال فيما اذا عظمت الهمم و كبرت النفوس تعبت الاجسام في تحصيل مرادها .

واذا كانت النفوس كباراً
تعبت في مرادها الاجسام

وقال في كون الانسان الذي يعيش بلا امل أشدّ حزناً ممن يعيش على امل

ليست صَبابةُ مشتاقٍ على امل
من اللقاء كمشتاق بلا امل

وقال في حداثة السن لا تحول دون الحلم . فقد يكون المرء حليما وهو شاب كما يكون حليماً في المشيب .

فما الحداثة عن حلم بمانعةٍ
قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

وقال في كون صانع الجميل والاحسان محبوب ، كما ان المكان

الذي يجد الانسان فيه عزه طيب.

وكل امرئ يولي الجميلَ مُحبَّب
وكلُّ مكانٍ يُنبت العزَّ طيّب

وقال في الحض على عدم الرضا باليسير، مبرهناً على ان طعم الموت واحد في طلب عظائم الامور وصغائرها.

اذا غامرت في شرف مروم　　فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في امر حقير　　كطعم الموت في امر عظيم

وقال فيمن يعيبون ما لا عيب فيه، ان علّة ذلك ناشئة من سُقم فهمهم للامور.

وكم من عائب قولاً صحيحا　　وآفتُه من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الاسماعُ منه　　على قدر القرائح والفهوم

ولقد تفنن النقاد وتنوعوا في دراسة امثال المتنبي، وذهبوا بها كل مذهب، فلم يكتفوا باستخراج المقطوعات، والابيات التي يضرب بها المثل. بل حققوا الامثال واستنبطوها من انصاف ابياته.

وها نحن نذكر بعضها، ونحيل طالب المزيد منها الى كتاب (يتيمة الدهر) للثعالبي[1]، قال:

مصائب قومٍ عند قوم فوائد

* * *

ومن قصدَ البحرَ استقل السواقيا

* * *

(١) الجزء الاول ص ١٦٩ .

وخيرُ جليسٍ في الزمان كتاب

* * *

ان المعارف في اهـل النهى ذمم

* * *

وربما صحت الاجسـامُ بالعـلل

* * *

ويستصحب الانسانُ من لا يلائمه

* * *

اذا عظم المطلوب قلّ المساعـد

* * *

وفي عنق الحسناء يُستحسن العقد

* * *

انا الغريق فما خوفي من البلل

* * *

وليس كل ذوات المخلب السبع

* * *

ليس التكحل في العينين كالكَحل

* * *

ان النفيس غريب حيثما كانا

* * *

ولا رأيَ فـي الحب للعاقـل

* * *

ولكن طبع النفس للنفس قائد

* * *

ومـن فرح النفس ما يقتـل

* * *

فى طلعة الشمس مايغنيك عن زحل

* * *

ومن تفنن النقـاد ايضا استنباطهم المثلين في مصراعى البيت الواحد من ابيات المتنبي كقوله :

وكل امرىء يولى الجميل محبب

وكل مكان ينبت العز طيب

وكقوله :

ذل من يغبط الذليـل بعيش

رب عيشٍ اخفُّ منه الحمام

وكقوله :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجـرح بميت ايـلام

وكقوله :

كفى بك داءاً ان ترى الموت شافيا

وحسب المنايا ان يكن امانيا

وكقوله :

افاضلُ الناس اغراضٌ لذا الزمن

يخلو من الهم اخلاهم من الفطن

وكقوله :

واتعبُ من ناداك من لا تجيبه
واغيظُ من عاداك من لا تشاكل

وكقوله :

لا تشتر العبد الا والعصا معه
ان العبيد لا نجاس مناكيد

وكقوله :

اذا انت اكرمت الكريم ملكته
وان انت اكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندا
وما قتل الاحرار كالعفو عنهم
ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
وقيدت نفس في ذراك محبة
ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا

الفصل السادس عشر

مآخذ النقاد على المتنبي

العصمة لله وحده . لذلك ما كان بدعاً ان يقع اعاظم الشعراء في بعض الهفوات ، ولا سيما المكثرين منهم ، وحسب الشاعر العبقري مفخرةً ان تكون حسناتُه الشعريةَ اكثرَ بكثير من سقطاته .

ومن ذا الذي تُرضيَ سجاياه كلها

كفى المرء نبلا ان تُعدَّ معايبه

والمتنبي الذي سحر شعره الالباب، ودخل القلوب من كل باب، فملأ دنيا الادب حكمة وإباء وجمالاً ، كان من الطبيعي ان يصبح هدفاً للنقد بسبب طغيان شعره على شعر غيره، ممن تقدمه من الشعراء او عاصره او جاء بعده ، او ممن حقد عليه من الحكام والامراء الذين تكبرَّ عليهم وترفعَّ عنهم ، وأنِفَ من مجاملتهم .

من هذا المنطلق صار المتنبي حديث الحاضر والبادي . فمنهم من يرفع شعره الى الاوج ، ومنهم من يحطّ من قدره .

اما الذين رفعوه فانهم يقدمونه على كثير من الشعراء ، واما الذين نقدوه فمنهم من يلحقه بابي تمام والبحتري ، ومنهم من يجعله دونهما .

اما نقد الناقدين له فانه منصب على ابيات جاءت في مطالع قصائده أو مبثوثة في ثنايا تلك القصائد .

اجل ، لقد تعلق بعض النقاد بنقد بعض مطالعه فحَسِبها قبيحة، مما يمجها السمع ويصدف عنها القلب ويتعثر بها اللسان .

قال في مطلع قصيدة يمدح بها محمد بن زُريق الطرطوسي :

(هذى برزتِ لنا فهجتِ رسيسا
ثم انثنيت وما شفيت نسيسا)

ان هذا المطلع لم يعجب النقاد ، لانهم يريدون ان يكون المطلعُ مستهلا جميلا للقصيدة، وعنواناً لمضمونها ، وتعبيراً رائعاً لمن يقرأها او يسمعها ، وفألا حسنا يستبشر منه الممدوح ، فتهتز له نفسه ، وتنتشي اريحيته ، فيقبل على الشاعر اقبالاً كبيراً .

لذلك قالوا : ان مثل هذا المطلع ليس من غرر المطالع ، ولا من احرار الكلام ، (لا يرفع السمعُ له حجابه ، ولا يفتح القلبُ له بابَه) ، هذا فضلاً عما فيه من تكرار السينات وغثاثتها ، وانعدام الفائدة منها ، كما انهم لم يرضهم حذف علامة النداء من (هذى) لعدم جواز حذفه عند النحويين .

* * *

وكذلك عابوا عليه مطلع قصيدته التي مدح بها الاستاذ كافور عند اول لقائه به . كقوله :

(كفى بك داء ان ترى الموت شافيا
وحسبُ المنايا ان يكنّ امانيا)

عابوه فقالوا لا يصح ان يستفتح مدحته للذي اكرم مثواه ، فاخلى له داراً ، وخلع عليه خلعا ، وحمل اليه الافاً من الدراهم ويقول وهو بين يدي الممدوح (كفاك ايتها النفس ان تكون المنية امنية لك) .

اليس معنى ذلك ان المتنبي غير راضٍ عن حاله ، وان مثل هذا

اللقاء بالنسبة اليه اقربُ ما يكون الى الموت . واذا صح ذلك فهل يصح ان يذكر الشاعر الداء والموت والمنايا ؟ اليس في ذكر هذه الالفاظ ما يرعب النفوس ويوجب التشاؤم ؟.

* * *

وهكذا كان الناس يتطيرون من مثل هذه الابتداءات . وقديما لام النقاد كبار الشعراء .

ذكروا ان أبا نواس لما انشد الفضل بن يحيى البرمكي قصيدته التي مَدَحه بها ، ومطلعُها :

أرَبْعَ البِلى ان الخشوعَ لبادي

عليك واني لم اخنْك ودادي

تطيَّر الفضل من هذا الابتداء فلما انتهى الى قوله :

سلام على الدنيا اذا ما فُقدتُم

بني برمك من رائحين وغادي

استحكم تطيّره ، ولم يمض اسبوع حتى نزلت بهم النازلة .

* * *

وكذلك لام النقاد اسحاق بن ابراهيم الموصلي حين انشد المعتصم شعراً حسناً الا انه افتتحه بذكر الديار وعفائها فقال :

[يا دارُ غيَّرك البِلى ومحاك

يا ليتَ شعري ما الذي ابكاك]

قال ذلك في حفلة كبرى اقامها المعتصم لما فرغ من بناء قصره بالميدان، فدعا اليها عِلْية القوم فحضروا بكامل زينتهم . ولم ير الناس

احسن من ذلك اليوم .

ولما سمع المعتصم هذا المُستهل تطيَّر ، واخذ الناس يتغامزون على اسحاق ، فقالوا كيف ذهب عليه مثلُ ذلك مع معرفته وعلمه وطول خدمته للملوك ، ثم اقاموا يومهم وانصرفوا فما عاد منهم اثنان [1] .

* * *

وكذلك عاب النقاد شيئا من شعر المتنبي ، فقالوا ان في معانيه تكراراً كقوله من قصيدة يشكو فيها من الحُمّى التي اصابته بمصر [2]

جرحتِ مُجرّحاً لم يبقَ منه مكانٌ للسيوف وللسهام

وقال في مرثية والدة سيف الدولة :

رماني الدهرُ بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال

فصرتُ اذا اصابتني سهامٌ تكسّرت النصالُ على النصال

* * *

وقال من قصيدة في مدح سيف الدولة :

وما الحسن في وجه الفتى شرف له

اذا لم يكن في فعله والخلائق

وقال في وصف الخيل :

اذا لم تشاهد غير حسن شياتها

واعضائها فالحسن عنك مغيّب

* * *

---

(١) كتاب الصحيح للنبي عن حيثية للتنبي . ص ١٨٢ .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبي الجزء الاول ص ١١٨ .

وقال :

بعثوا الرعب في قلوب الاعادي
فكأنّ القتالَ قبـل التلاقي

وقال :

قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت
لك المهابـة مـا لا تصنع البُهُم

* * *

وقال في معنى تصرفت فيه الشعراء .

ذلّ من يغبط الذليـل بعيش
رب عيش اخف منـه الحمام

وقال في صباه :

عش عزيزاً او مت وانت كريم
بين طعن القنـا وخفق البنود

* * *

ولاحظ النقادعليه انه يتبع الفقرة الغراءبالكلمة العوراءذكروا من ذلك قولـه من قصيدة يمـدح بها سيف الدولة على بن عبدالله الحمداني :

ليالىّ بعـد الظاعنين شُكول
طِوال وليلُ العاشقين طويـل

ُينّ لي البدرَ الذي لا اريده
ويخفين بدراً ما اليـه وصول
وما عشتُ من بعد الاحبة سلوة
ولكنني للنائبات حمول
وما شرقي في الماء الا تذكراً
لماء به اهل الخليط نزول
يحرمه لمع الاسنة فوقه
فليس لظمآن اليه سبيل

وله من قصيدة اخترع اكثر معانيها ، وتسهل في الفاظها فجاءت مصنوعة ثم اعترضته تلك العادة المذمومة فقال :

اغركم طولُ الجيوش وعُرضها
عليٌّ شروب للجيوش اكول
اذا لم يكن لليث الا فريسة
غذاه ولم ينفعك انك فيل

ثم اتى بما هو اطمُّ منه فقال :

اذا كان بعض الناس سيفاً لدولة
ففي الناس بوقات لها وطبول
فان تكن الدولات قسماً فانها
لمن ورد الموت الزؤام تدول

قال الصاحب قوله الدولات وتدول من الالفاظ التي لو رزق فضل السكوت عنها لكان سعيداً .

* * *

فنحن نكتفي بذكر هذا المقـدار من العيوب التي لم تنهض دليلاً على ضعف شعر المتنبي ولا على فساد ذوقه فهو شاعر من فحول الشعراء ولو انصفناه لقلنا انه في طليعتهم . ولكن نقول قاتـل الله الاغراض ونتأسى بالقول المأثور كفى المـرء عبقرية ان تعـدّ معـايبه .

الفصل السادس عشر

المقارنـة الادبيـة

المقارنة الادبية باب من ابواب النقد الادبي ، يراد به الجمع بين بعض القطع الادبية شعرية كانت ام نثرية ، واجراء موازنة بينهـا ، وبيان الصفات التي ميزت بعضها على بعض ، واخيراً اصدار الحكم عليها بحسب قوتها أو ضعفها وبحسب اسلوبها الذي اتبعه الاديب في نسجها وابرازها من عالم الخفاء والتصميم الى عالم البيان والظهور .

* * *

ان تاريخ هذا النوع من النقد الادبي قديم قدمَ الانسان الذي حاول تدوين ما دار بخلده من الافكار والخواطر . فقد اجرى اهل الادب هذه المقارنات منذ العصر الجاهلي حتى زماننا هذا .

فقد اجرتها ام ُجندب زوجة امرىء القيس بين زوجها وخصمه علقمة الفحل حين احتكما اليها في ايهما اشعر .

* * *

واجراها النابغة الذبياني مع اعشى قيس والخنساء ، وحسان بن ثابت الانصاري .

* * *

وكذلك فاَضل عمرو بن الحارث الاعرج بين حسان والنابغـة وعلقمة الفحل ففضل حساناً عليهما وكانا حاضرين معه واثنى على لامية حسان التي يقول فيها :

لله دَرُّ عصابة نادمتهم

يوما بجلّق في الزمان الاول

يمشون في الحُلل المضاعَف نسجها

مشي الجمال الى الجمال البزّل

والخالطون فقيرهم بغنيّهم

والمشفقون على الضعيف المرمل

بيض الوجوه كريمة احسابهم

شم الانوف من الطراز الاول

* * *

وقارن شبّة بن عقال وخالد بن صفوان بن الاهتم بين جرير والفرزدق والاخطل ، اذ رُوِيَ أن هشام بن عبدالملك وهو يومئذ امير ، قال لشبّة : الا تخبرني عن هؤلاء الذين مزّقوا اعراضهم ، وهتكوا استارَهم ، واغروا بين عشائرِهم في غير خيرٍ ، ولا برٍّ ، ولا نفع ، ايهم اشعر[1] ؟..

فقال شبّةُ : اما جرير فيغرف من بحر ، واما الفرزدق فينحت من صخر ، واما الاخطل فيجيد المدح والفخر. فقال هشام: مافسرت لنا شيئاً نحصله. فقال: ماعندي غير ما قلتُ . فقال لخالد بن صفوان: صفْهم لي يا ابن الاهتم ، فقال :

اما اعظمهم فخراً ، وابعدُهم ذكراً ، واحسنهم عذراً ، واشدُهم ميلًا ، واقلهم غزلاً ، واحلاهم عَللا ، الطامي اذا زخر ، والحامي اذا زأر ، والسامي اذا خطر ، الذي ان هدر قال ، وان خطر صال ،

(١) الادب العربي وتاريخه للاستاذ محمود مصطفى ج ١ ص ٣٢٢ .

الفصيح اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق .

واما احسنهم نعتاً ، وامدحهم بيتاً ، واقلهم فوتاً . الذي ان هجا وضع وان مدح رفع ، فالاخطل .

واما اغزرهم بحراً ، وارقهم شعراً ، واهتكهم لعدوه ستراً ، الاغر الابلق ، الذي ان طَلب لم يُسبق ، وان طُلب لم يُلحق ، فجرير : وكلهم ذكيّ الفؤاد ، رفيع العماد ، واري الزِناد .

* * *

من هنا نعلم ان اختلاف النقاد في الموازنة بين هؤلاء الشعراء الثلاثة اختلاف شديد ، عُنيَ به كثير من النقاد ، وكان لكل ناقد منهم وجهةُ نظر . فمن كان هواه في رقة النسيب ، وجودة الغزل ، والتشبيب ، وجمال اللفظ ، ولين الاسلوب ، والتصرف في اغراض شتى ، فضل جريراً ، ومن مال الى اجادة الفخر ، وفخامة اللفظ ، ودقة المسلك ، وصلابة الشعر ، وقوة اسره ، فضل الفرزدق ، ومن نظر بعد بلاغة اللفظ ، وحسن الصوغ الى اجادة المدح ، والامعان في الهجاء ، وأستهواه وصف الخمر ، واجتماعُ الندمان ، حَكمَ للاخطل .

على ان طائفة من اهل النقد المعتد بنقدهم يرون ان جريراً اشعر الثلاثة ، لانه طرق جميع ابواب الشعر ، ولم يقصر في باب .

* * *

وقد وازن الاصمعي بين بشار بن برد ومروان بن ابي حفصة حين سأله ابو حاتم السجستاني عن ايهما اشعر .

فقال الاصمعي : بشار اشعرهما . فقال ابو حاتم : وكيف ذاك ؟

قال : لان مروان سلك طريقاً كثر سلاكه فلم يلحق بمن تقدمه . وان بشاراً سلك طريقا لم يسلكه احدٌ فانفرد به ، واحسن فيه ، وهو اكثر فنون شعر ، واقوى على التصرف واغزر واكثر بديعا ، ومروان آخذ بمسالك الاوائل .

* * *

وقد وازن ابو نواس بين الشماخ بن ضرار والفرزدق فقال ما معناه : ما اسوأ قول الشماخ حين خاطب ناقته :

اذا بلغتني وحملت رحلي عرابة فاشرقي بدم الوتين

وما احسن قول الفرزدق في مخاطبته لناقته :

علام تلفّتين وانت تحتي
وخير الناس كلهم امامي
متى تأتي الرصافة تستريحي
من الانساع[1] والدّبر[2] الدوامى

ثم اردف قائلا : فلما سمعت قوليهما عبت الشماخ وتبعت الفرزدق فقلت :

فاذا المطيُّ بنا بلغن محمداً فظهورُهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطئ الحصى فلها علينا حرمة وذمام

وقلت ايضا

اقول لناقتى إذ قربتني لقد اصبحتِ عندي باليمين

(١) الانساع الذهاب اي السفر .
(٢) جمع دبرة . وهي قرحة الدابة .

فلم اجعلك للغربان نحـلا ولا قلت : اشرقي بدم الوتين
حرمت على الازمة والولايا واعلاق الرحالة والوضين[1]

* * *

ووازن الناقد الكبير ابو القاسم الحسن بن بشر الآمدى بين ابي تمام الطائى ، وابى عبادة البحتري في كتابه (الموازنة) .

وكان يرى ان احسن ماتكون الموازنة بين القطعتين اذا اتفقتا في الوزن والقافية والاعراب ، غير انه يعتقد ان مثل هذا الاتفاق لا يكاد يحصل مع اتفاق المعاني التي تقتضيها الموازنة ، وهى المرمى والهدف .

ومما هو جدير بالملاحظة ان الامدى كان يستعين بالله ان يجعله قادراً على مجاهدة النفس ، ومخالفة الهوى ، وترك التحامـل ، حتى يكون عمله بالغاً غاية الكمال .

* * *

وقد وازن السيد قسطاكي الحمصي بين اربع قصائد لاربعة شعراء في موضوع العتاب . وهم معن بن اوس ، وابو عبادة البحتري ، وابو الطيب احمد بن الحسين المتنبي ، وابو فراس الحمداني . وها انا اطلعك على مطالع هذه القصائد ولك مراجعتها ان شئت .

قال معن[2] بن اوس من شعراء الحماسة لابي تمام .

---

(١) النحل العطاء ، والوتين : عرق في القلب يجري منه الدم الى العروق والولايا : البراذع . والاعلاق : ما علق على الرحل من العهون وغيره . والوضين : حزام الرحل .

(٢) معن بن اوس شاعر مجيد متين الكلام حسن الديباجة فخم المعاني من مخضرمي الجاهلية والاسلام .

لعمرك ما ادرى واني لأوّجلُ

على اينـا تعدو المنية اول

وقال ابو عبادة الوليد بن عبيدالله الطائى يعـاتب ابراهيم بن الحسن بن سهل .

أابراهيم دعـوة مستعيد لرأى منك محمود فقيد

وقال ابو الطيب يعاتب سيف الدولة امير حلب :

يا اعدل الناس الا في معاملتي

فيك الخصام وانت الخصم والحكم

وقال ابو فراس الحارث بن سعيد الحمداني يعاتب ابن عمـه سيف الدولة :

اسيف الهدى وقريع العرب إلامَ الجفاء وفيم الغضب

* * *

كتاب

(الموازنة بين الشعراء)

للدكتور زكي مبارك

وازن الدكتور زكي مبارك بين عـدد من الشعراء ، وازن بين الحصري وشوقي ، وبين البحتري وشوقي ، وبين البوصيري وشوقي ، وبين شوقي وابن زيدون .

كما وازن بين ابي نواس وابن دارج ، وبين ابي نواس وعبدالباقي ابراهيم ، ووازن بين صبري ومطران وبين البارودي وابي فراس .

والذي يهمنا من هذه الموازنات الادبية التي اجراها المرحوم زكي مبارك ان نطلع على اسلوبه في النقد الادبي رجاء الافادة منه لا الاحاطة بجميع الموازنات التى ضمها كتابه المذكور .

ولعلنا واجدون بغيتنا في موازنة واحدة من تلكم الموازنات ، هي موازنته بين قصيدتى الحصري واحمد شوقي .

وها نحن نسجل قصيدة الحصري اولاً للدور الذي لعبته طوال العصور الادبية ، وَوَلِعَ بها كثير من الشعراء . كما وَلِعَ بها كثير من النقاد . ثم نتبعها بقصيدة شوقي باعتباره عارض بها قصيدة الحصري .

ثم نأتي بعد ذلك على النقد الذي اجراه المرحوم زكي مبارك بالشكل الذي جاء في الكتاب .

وفائدة هذه الموازنة كما يراها المرحوم زكي مبارك انها تمكن الباحث فيها من دراسة عرائس الشعر دراسة منظمة دقيقة ، وتريه كيف تتصاول العقول ؟. وكيف تتسابق القرائح ، اذ كانت معارضة الشاعر للشاعر نوعاً من السباق في عالم البيان .

وكذلك يرى ان لهاتين القصيدتين اثراً في اندية الادب ، ومجالس الغناء .

ثم يأخذ الدكتور بتعريف الحصري فيقول : هو ابو الحسن علي إبن عبدالغني الفهري المقرىء الضرير القيرواني ، وهو ابن خالة ابي اسحاق الحصري صاحب كتاب زهر الاداب . ثم نقل ما ذكره ابن بسام عنه في الذخيرة فقال : ان ابا الحسن الحصري كان بحر براعةٍ ، ورأس صناعةٍ ، وزعيم جماعةٍ وانه طرأ على الاندلس في منتصف

المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان .

اما تعريف الدكتور لشوقي فانه قال عنه : انه شاعر معروف في مصر والشرق ، وله كلف بمعارضة القدماء ، وهو كذلك خبير باسرار اللغة العربية وبصير بشئون الحياة . وهو كالحصري افتتح قصيدته بالنسيب ، واختتمها بالمديح . ثم قال : ساقتصر في الموازنة على صدر القصيدتين ، اذ كان النسيب هو السبب فيما يرجى لهما من الخلود ، ان كان لهذا العالم حظ من الخلود . وبعد هذا العرض يأتي بقصيدة الحصري . فيقول :

يا ليل الصب متى غدُه اقيام الساعة موعده
رقد السمار وأرّقه اسف للبين يردده
فبكاه النجم ورقّ له مما يرعاه ويرصده
كلِف بغزال ذي هيف خوف الواشين يشرده
نصبت عيناي له شركاً في النوم فعز تصيده
وكفى عجبا أني قنصٌ للسرب سباني أغيده
صنمٌ للفتنة منتصبٌ اهواه ولا اتعبده
صاحٍ والخمر جنى فِمه سكران اللحظ معربده
ينضو من مقلته سيفا وكأن نعاسا يغمده
فيريق دم العشاق به والويل لمن يتقلده
كلا لا ذنب لمن قتلت عيناه ولم تقتل يده

* * *

يا من جحدت عيناه دمي وعلى خديه تورده

خداك قد اعترفا بدمي فعلام جفونك تجحده
اني لا عيذك من قتلي واظنك لا تتعمده
بالله هب المشتاق كرى فلعل خيالك يسعده
ما ضرك لو داويت ضنى صباً يدنيك وتبعده
لم يُبق هواك له رمقاً فليبك عليه عُوّده
وغداً يقضي او بعد غد هل من نظرٍ يتزوّده
يا اهل الشوق لنا شرقٌ بالدمع يفيض مورّده
يهوى المشتاق لقاء كمو وصروف الدهر تبعّده
ما احلى الوصلَ واعذبه لولا الايام تنكّده
بالبين وبالهجران فيا لفؤادي كيف تجلّده

قصيدة شوقي

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحّم عُوّده
حيران القلب معذّبه مقروح الجفن مُسهّده
اودى حُرقاً الا رمقاً يبقيه عليك وتُنفده
يستهوى الورق تأوهه ويذيب الصخر تنهده
ويناجي النجم ويتبعه ويقيم الليل ويقعده
ويُعلّم كلَّ مطوقةٍ شجنا في الدوح ترddه
كم مد لطيفك من شركٍ وتأدب لا يتصيّده
فعساك بغمضٍ مسعفه ولعل خيالك مسعده
الحسن حلفت بيوسفه والسورة أنك مفرده

قدوّد جمالك او قبساً | حوراء الخلد واورده
وتمنت كل مقطعة | يدها لو تُبعث تشهده
جحدت عيناك زكيّ دمي | اكذلك خدك يجحده
قد عز شهودي اذ رمتا | فأشرت لخدك أشهده
وهممت بجيدك أشركه | فأبى واستكبر أصيده
وهززت قوامك أعطفه | فنبا وتمنع املده
سبب لرضاك امهده | ما بال الخصر يعقّده
بيني في الحب وبينك ما | لا يقدر واشٍ يُفسده
ما بال العاذل يفتح لي | باب السلوان وأوصده
ويقول يكاد تُجن به | فاقول واوشك اعبده
مولاي وروحي في يده | قد ضيعها سلمت يده
ناقوس القلب يدق له | وحنايا الاضلع معبده
حسّادي فيه أعذرهم | وأحق بعذري حُسده
قسماً بثنايا لؤلئها | قسمَ الياقوت منضده
ورضابٌ يُوعد كوثره | مقتول العشق ومُشهده
وبخال كاد يحج له | لو كان يقبل أسوده
وقوام يروي الغصنُ له | نسباً والرمح يفنده
وبخصر اوهنَ من جلدي | وعوادي الهجر تبدده
ماخنت هواك ولاخطرت | سلوى بالقلب تبرده

ولنذكر اولاما في القصيدتين من الاغراض . وانا لنجد الحصري تكلم عن طول الليل ، وطيف الخيال ، وخمر الرضاب ، وسيف المقله ، وجناية العين ، وحمرة الخد ، واستعطاف الحبيب ، وفناء المحب.

ونجد شوقي تكلم عن لوعة المضنى ، وطيف الخيال ، وجمال المحبوب ، وجناية العين ، وحسن القد والجيد ، ودقة الخصر ، والصبر على الوشاة ، وتفدية الحبيب ، والرفق بالحساد ، والحرص على الحب والبراءة من السلوان ، فقصيدة شوقي اذاً احفل بالاغراض .

مواطن الحسن

ولنوازن بين المطالع ، وانا لنجد الحصري يقول :

يا ليل الصب متى غده ... اقيام الساعة موعده
رقد السمار وارقه ... اسف للبين يردده
فبكاه النجم ورق له ... مما يرعاه ويرصده

ونجد شوقي يقول :

مضناك جفاه مرقده ... وبكاه ورحّم عُوده
حيران القلب مُعذبه ... مقروح الجفن مُسهده
اودى حرقاً الا رمقاً ... يبقيه عليك وتنفده
يستهوي الورق تأوهه ... ويذيب الصخر تنهده
ويناجي النجم ويتبعه ... ويقيم الليل ويقعده
ويعلم كل مطوقة ... شجناً في الدوح تردده

والمطلع في رأي الدكتور هو اول صورة شعرية . لا اول بيت، ومطلع شوقي اوفى واروع من مطلع الحُصري، وخطاب الحبيب في قول شوقي :

مضناك جفاه مرقده　　　وبكاه ورحم عوده

ارقى من خطاب الليل في قول الحصري :

يا ليل الصب متى غده　　　اقيام الساعة موعده

وقول شوقي في حيرة المحب وعذابه وفنائه :

حيران القلب مُعذبه　　　مقروح الجفن مُسهده

اودى حُرقاً الا رمقاً　　　يبقيه عليك وتنفده

يستهوي الورق تأوهه　　　ويذيب الصخر تنهده

هذه الابيات اوفى وامتع من قول الحصري :

رقد السمار وارقه　　　اسف للبين يردده

وقول شوقي :

ويناجي النجم ويتبعه　　　ويقيم الليل ويُقعده

اقرب في صدقه الى الواقع من قول الحُصري :

فبكاه النجم ورقّ له　　　مما يرعاه ويرصده

وقول الحصري في تصيد الطيف :

نصبت عيناي له شركاً　　　في النوم فعزّ تصيده

وكفى عجباً أني قنص　　　للسرب سباني أغيده

ابرع من قول شوقي :

كم مد لطيفك من شرك — وتأدب لا يتصيده

فمساك بغمض مسعفه — ولعل خيالك مسعده

لان الحصري حدثنا عن حقيقة صادقة ، وهي تمنع الطيف : فليس في طوق المحب ان يظفر بطيف حبيبه كلما مد له الاشراك .

اما قول شوقى :

كم مد لطيفك من شرك — وتأدب لا يتصيده

فانه لا يعجب الدكتور مبارك ، لان التأديب هنا نوع من الضعف ولو ذكر انه يهاب ان يتصيده لحمد له هيبة الحسن ، وان الحسن لمهيب الجناب . كما قال الشاعر :

(حمى نفسه الحسنُ اضعاف ما
حمى نفسه الجمرُ لما التهب)

وقد يروق للدكتور قولُ شوقى :

مولاي وروحيَ في يده — قد ضيعها ، سلمت يده

ناقوس القلب يدق له — وحنايا الاضلع معبده

حسادي فيه اعذرهم — واحق بعذرى حُسده

لانه يجد فيها صورة للوعة المحب يشفق بمحبوبه ، ويحنو عليه ، في ظلمه وعدوانه . ولم يعرض الحصرى لمثل هذا المعنى البديع ، واخلق بهذه الابيات ان تكون صلاةً للحسن ، ان قضى الله ان نصلي له ،

له ، كما يصلي فريق للشمس عند الشروق ، والهوى كما قيل اله معبود[1] .

ثم يعود فيقول : ما ارفق شوقي وما ارقه حين يقول :

قد ودَّ جمالك او قبساً حوراءُ الخلدِ وامردُه

فان الحسن لا يُعبد بارقَّ من هذا الوصف . وهل العبادةُ الا وصف المعبود بالتفرد والجلال ؟

وقد اجاد الحصري في استعطاف الحبيب اذ يقول :

لم يُبقِ هواكَ له رمقا فليبكِ عليه عُوده
وغداً يقضي او بعدَ غدٍ هل من نظر يتزودُه

ولا نجد هذه النغمة المحزنة في قصيدة شوقي ، وانها لتذكرنا بهذا البيت الحزين .

واری الايام لا تدنى الذي ارتجى منك وتدنى اجلي

مظاهر الضعف

وهناك مواطن ضعف في نظر الدكتور ، منها كلمة صنم ، حيث يقول فيها : واني لاستثقل الصنم المنتصب في قول الحصري :

صنمٌ للفتنة منتصبٌ اهواه ولا اتعبدُه

لان كلمة (الصنم) كلمة غير شعرية[2] ، والعرب تستملح (الدميةَ

(١) كتاب الموازنة بين الشعراء ص ١١٩ .

(٢) لكثرة ما ورد في ذم الاصنام لان هذه الكلمة لا تزال تشير الى التمثال. ولعل الدكتور يرى فيه مظهراً من مظاهر البلادة .

في وصف المرأة الجميلة ، والدميةُ هي الصورة المنقشة من الرخام ، والجمع دُمى قال بعض الاعراب :

وانِي لأُهدَى بالاوانس كالدُمى
وانِي باطراف القنـا للعـوب
وانِي على ما كان من عُنجهيتي
ولوثـةِ اعـرابيتي لاديب

وكذلك يستضعف الدكتور قول الحصري :

ما احـلى الوصلَ واعذبه | لولا الايـامُ تنكدُه
بالبين وبالهجـران فيـا | لفؤادي كيف تجلُّدُه

واضعف منه عنده قول شوقي :

بيني في الحب وبينك ما | لا يقدِرُ واشٍ يفسدُه
ما بالُ العاذلِ يفتحُ لي | بابَ السلوان واُوصدُه

فيقول : ولا ادري ما قيمة التعجب في البيت الثاني من هذين البيتين، وهو لا يزيد شيئاً عن الصوت العامي المشهور (كيد العواذل كايدني بس اسمع شوف)

وقول الحصري :

صاحٍ والخمـرُ جنى فمِـه | سكرانُ اللحظِ معربدُه

اروع وابدع من قول شوقي :

ورضابٍ يوعَدُ كوثرُه | مقتولُ العشقِ ومُشهدُه

ثم يقول الدكتور :

وارى من الظلم ان نوازن بين هذين البيتين . فان بيت الحصري بيت فذّ نادر المثال ، وفيه وحده صورةٌ شعريةٌ رائعةٌ ، وما رددته الا فتنتُ به فتنةً جديدةً ، وظهر لي منه معنىً جديدٌ ، كالوجـه المشرق لا نهاية لحسنه . ولا حد لقدرته على تصريف القلوب .

ولذلك تتأمل كلمة (جنى) في قوله

صاح والخمرُ جَنى فَمِـه　　　　سكرانُ اللحظِ معربدُه

وما هذه العربدة ياصاح ؟ انها الأشراك التي يقيدك بها اللحظُ ، وانت تنهل من ورده العذب الجميل .

وقول شوقي :

جحدتْ عيناك زكيَّ دمي　　　　اكذلك خدك يجحدُه
قد عزّ شهودي اذ رمتا　　　　فاشرتُ لخـدك اُشهدُه

ارق من قول الحصري

يا من جحدتْ عيناه دمي　　　　وعـلى خـديـك تورده
خداك قـد اعترفا بدمي　　　　فعلام جفونك تجحـده

لان الاستفهام في قول شوقي اعطى المعـنى شيئاً من الحسن ، وزاده تمكينا في النفس ، على ما فيه من الابتذال .

وكذلك عند الدكتور لا قيمةَ لقول شوقي :

وبخصرٍ اوهنَ من جلدي　　　　وعوادي الهجـر تبددُه

وهي مبالغة مردودة ، لان الذي يستملح الخصر الدقيق لا يرضيه ان يكون اوهن من صبر المحب تعدو عليه عوادي الصدود .

ثم يقول : وقد ظلم شوقي نفسه حين قال :

وقوام يروى الغصنُ لـه   نسباً والرمـح يفنـدُه

كما اساء الحصري الى شعره اذ قال :

اني لاعيذك من قتـلي   وأظنـك لا تتعمـده

فان هذا خيال فقهاء لا خيال شعراء .

روعة الخيال

ثم يقول الدكتور : وانه ليجمل بنا بعد هذا ان نوازن بين ما للحصري وشوقي من الخيال الرائع ، وانا لنستجيد قول الحصري :

ينضـو من مقلته سيفاً   وكأنَّ نعاساً يغمـدُه

فيريق دمَ العشاق بـه   والويـل لمـن يتقلـدُه

كلاَّ لا ذنب لمـن قتلت   عيناه ولم تقتل يـده

وان البيت الاول لمن وثبات الخيال ، وفي البيت الثاني ضعف ، والثالث مع ضعفه مستملح مقبول .

وكذلك هو يستجيدُ قولَ شوقي :

ناقوسُ القلبِ يدق لـه   وحنايا الأضلعِ معبدُه

ويقول: وللقارى ان يلومنا في استجادة هذا البيت وان يذكر ان هذا ايضاً خيال فقهاء لا خيال شعراء . ولنا ان نذكر القارى بان المعابد والنواقيس من الالفاظ التي استملحها العرب ، لكثرة ما تحدث عنها الشعراء ، وهم يتغنون بمعالم اللهو ، وملاعب الشباب ، ولهم في الاديرة شعر ممتع . وكذلك ظرف شوقي حين تحدث عن المعبد

والناقوس. وكان خياله قريبا في الحسن من خيال الحصري، اذ توهم اللحظ سيفا يكاد يغمده النعاس، واني لمفتون بهذا الخيال.

البراعة في تناول المعاني

وانا لنرى شوقي ابرعَ من الحصري في تناول المعـاني، ومن السهل ان نعلل هذا: فان الحصري لم يجرِ في قصيدته الا على الفطرة، وكان من ذلك ان رضيَ بعفو الخاطر، اما شوقي فمارض، من همه ان يظفر بالسبق، وكان من ذلك ان عُنيَ بترتيب المعاني، واختيار الالفـاظ. وتنوع الاغراض، على ان هذا التكلف لم يمضِ بلا عيوب، فانه لا معنى لقول شوقي:

وبخـال كاد يُحجُ لـه　　　لو كان يقبلُ اسـودُه

ولا رونقَ لقوله:

وتمنتْ كلُّ مُقطِعةٍ　　　يدها لـو تُبعث تشهدُه

الحكم

وللقارئ - ان شاء الحكم - ان يرجع الى ما اسلفنا القولَ عنه من مواطن الحسن، ومظان الضعف، ومواقع الخيال، ليرى اي الشاعرين اولى بالسبق، وايهما ارجح في الميزان.

وحسبه ان دللناه على ما في القصيدتين من المحاسـن والعيوب فاننا لا نُعنى بالاشخاص، وانما يعنينا ان ندرس الشعر، وان نقف على ما فيه من القوة والضعف، والحسن والقبح،. وكذلك ندرس البيان. ونحن نوازن بين الشعراء.

المراجع

طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي .
الشعر والشعراء لعبدالله بن قتيبة
البيان والتبيين لعمرو بن بحر الجاحظ .
الكامل لمحمد بن يزيد المبرد
يتيمة الدهر لعبدالملك الثعالبي
الاغاني لابى فرج الاصبهاني .
زهر الاداب لابى اسحاق الحصري .
نهج البلاغة للامام علي بن ابى طالب (رض)
الصناعتين لابى هلال العسكري .
البديع لعبدالله بن المعتز .
اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لعبدالقادر الجرجاني .
الوساطة بين المتنبي وخصومه لعلي بن عبدالعزيز الجرجاني .
الموازنة بين الطائيين لابى بشر الآمدي .
الامالي لابى علي القالي .
ادب الكاتب ، وعيون الاخبار لعبدالله بن قتيبة .
العمدة للحسن بن رشيق القيرواني .
انباه الرواة على انباه النحاة لعلي بن يوسف القفطى .
معجم الادباء ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي .
معجم الشعراء لمحمد بن عمران المرزبانى .

الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء	للمربازنى ايضا .
العقد الفريد	لشهاب الدين بن عبد ربه الاندلسي
مجمع الامثال	لاحمد بن محمد الميدانى
الفهرست	لمحمد بن اسحاق النديم .
ديوان ابي الطيب شرح البرقوقي	لاحمد بن الحسين الشهير بالمتنبي
الصبح المنبي في حيثية المتنبي	ليوسف البديعي
لزوم ما لا يلزم	لاحمد بن عبدالله المعري .
البديع في نقد الشعر	لاسامة بن منقذ
نقد الشعر	لابى فرج قدامة بن جعفر
سحر البلاغة وسر البراعة	لعبدالملك الثعالبي .
عيار الشعر	لمحمد بن طباطبا العلوي .
المفضليات	للمفضل الضبي .
الاصمعيات	لعبدالملك بن قُرَيب الاصمعى
اساس البلاغة	لمحمود بن عمر الزمخشري .
امالي المرتضي	لعلي الموسوي العلوي .
الانصاف في مسائل الخلاف	لكمال الدين الانبارى .
عبث الوليد	لابى العلاء المعرى .
سقط الزند	للمعرى .
مقامات البديع الهمذانى	لاحمد بن الحسين
مقامات الحريري	للقاسم بن علي الحريرى .
جمهرة اشعار العرب	لمحمد القرشي .

ديوان الحماسة	لابي تمام حبيب بن اوس الطائى .
قراضة الذهب في نقد اشعار العرب	لابن رشيق القيروانى .
الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة	لعلي بن بسام الشنتريني .
نفح الطيب من الغصن الرطيب	لاحمد المقرّى التلمسانى .
مقدمة بن خلدون	لعبدالرحمن الشهير بابن خلدون.
رسالة بن القارح	الى ابى العلاء المعرى .
رسالة الغفران	للمعرى الى ابن القارح
سر الفصاحة	لعبدالله بن سنان الخفاجى
المثل السائر	لضياء الدين بن الاثير .
رغبة الامل من كتاب الكامل	لسيد بن علي المرصفي
عصر المأمون	لاحمد فريد الرفاعى
النثر الفني	لزكي مبارك
المواهب الفتحية	لحمزة فتح الله
النقد المنهجى	لمحمد مندور
النقد الادبى	لاحمد امين
اسس النقد الادبى عند العرب	لاحمد احمد بدوى
المعارك الادبية	لانور الجندي .
المدخل الى النقد الادبى الحديث	لمحمد غُنيمى هلال
تاريخ الادب العربى	لمصطفى صادق الرافعى
تاريخ الادب العربى	لجرجى زيدان

بلوغ الارب في معرفة احـوال العرب لشارحه وضابطه	لمحمود شكري الالوسي . محمد بهجة الاثري .
الموازنة بين الشعراء	لزكي مبارك .
الياذة هوميروس	لسليمان البستاني .
جمهورية افلاطون	لمترجمها عن الانكليزية حنا خباز
جمهرة خطب ورسائل العرب	لاحمد زكي
من شعر ابي حيان الاندلسي	جمع وتحقيق مطلوب والحديثي
الحب العذري و كتاب الشعر في بغداد	لاحمد عبدالستار الجوارى
الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث	لمصطفى السحرتي
الفن ومذاهبه في الشعر العربي	لشوقي ضيف
الادب ومذاهب النقد فيه	لمؤلف هـذا الكتاب رشيد العبيدي .
المرأة في الشعر العربي	لعلي الهاشمي .
شعر المخضرمين	ليحيى الجبوري .
نقائض جرير والفرزدق	لمحمود غناوى .
البلاغة الفنية	لعلي الجندي .
قضايا الشعر المعاصر	لنازك الملائكة .
في الادب العربي الحديث	ليوسف عز الدين .
ابو حيان التوحيدي	لعبدالرزاق محي الدين .
التمام في تفسير اشعار هذيل	لاحمد ناجي وخديجة . واحمد مطلوب

الشعر العراقي	ليوسف عز الدين .
تاريخ الادب العربي	لبروكلمان .
في الميزان الجديد	لمحمد مندور .
الادب وقيم الحياة المعاصرة	لمحمد زكي العشماوي .
اراء في العربية	لعامر رشيد السامرائي .
نقد وتعريف	لعبدالله الجبوري .
النقد الادبى اصوله ومناهجه	لسيد قطب
دفاع عن البلاغة	لاحمد حسن الزيات .
تاريخ الادب العربى	لاحمد الاسكندرى
اصول النقد الادبى	لاحمد الشايب
تراث الانسانية	عباس محمود العقاد وصحبه
الغربال	لميخائيل نعيمة
قواعد النقد الادبى	للاسل آبر كرُمبي ترجمة محمد عوض محمد
فنون الادب	لتشارلتن ترجمة زكي نجيب

تصحيح اخطاء

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢	٣	كناطع	كناطح
٢٢	١١	تسطير	تسيطر
٤٤	١٤	اندده	انداده
٤٥	١٤	اصطفاده	اصفاده
٥٨	١٣	علقة	علقمة
٥٩	١٦	الصعرية	الصيعرية
٩٣	٣	الدعودة	الدعوة
١٠٣	٩	مجرف	مجلف
١٠٤	٩	يستشد	يستشهد
١١٦	٩	كاقاحسي	كاقاحي
١٢٨	١٨	الموامة	المواءمة
١٧٦	٦	آمان	آمن
٢٠٣	٤	التكمل	التكحل

وهناك اخطاء اخرى بسيطة لا تخفى على القارىء الكريم، اغفلنا ذكرها.

الفهرس

الصفحة

تم طبع الجزء الاول من هذا الكتاب في اليوم الاول من غـرة شهر ربيع الاول سنة ١٣٨٩ هـ الموافق ١٧ ايار سنة ١٩٦٩ بمشيئة الله، ويليه الجزء الثاني ان شاء الله .

مطبعة المعارف

كتب مطبوعة للمؤلف

١ ـ الادب ومذاهب النقد فيه .

٢ ـ دراسات في النقد الادبي فى جزئين .

٣ ـ تحقيق ديوان العرجى بالاشتراك مع زميل .

٤ ـ دليل النحو الواضح بالاشتراك مع زميل .

٥ ـ شرح واعراب شواهد نحوية .

٦ ـ سلسلة كتب في القراءة للاميين بالاشتراك مع لجنة .

تحت الطبع

٧ ـ معالم الطريق الى حياة افضل .

٨ ـ المذاهب الادبية الحديثة .

٩ ـ قالت لي نفسي وقلت لها .

١٠ـ رسالة في فلسفة الجمال .

١١ـ المقارنات الادبية في القديم والحديث .